

ART & THOUGHT

فكر

VV



GOETHE INSTITUT
INTER NATIONES



Hermann Claasen: »Köln, Ritterstraße 1947«.

Reproduction from the Catalogue: Hermann Claasen: Nie wieder Krieg. Bilder aus dem zerstörten Köln.
© Wienand Verlag, Köln 1994

عندما

دفعنا بهذا العدد إلى الطباعة كانت الحرب على العراق قد وصلت إلى نهايتها. لقد فرحنا مع زملائنا وأصدقائنا العراقيين بسقوط نظام صدام حسين الذي فرض دكتاتورية رهيبة على العراق لأكثر من ربع قرن. في الوقت نفسه كلنا أمل، وبعد هذه النهاية السريعة للحرب، أن تستعيد الأمم المتحدة سلطتها، التي جردتها منها الولايات المتحدة، وأن تعود إلى دورها وتساعد العراقيين في بناء بلدتهم بسلام وإرادتهم.

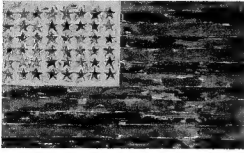
ونظراً للقلق والتسرع، اللذين نوقشت من خلالهما الحرب، ارتأينا أنه سيكون من المفيد إلقاء نظرة على التاريخ الطويل للفكر البشري الذي تناول الحرب. فالفيلسوف اليوناني هرقليط قال قبل خمسمئة سنة من ميلاد المسيح إن "الحرب هي أم الأشياء جميعها". في حين يرى ابن خلدون "أنّ الحرب وأنواع المقاتلة لم تزل في الخليقة منذ أراها الله. وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض، ويستعصّب لكل منها أهل عصبته. فإذا تدامروا لذلك وتوافقت الطائفتان، فأحدهما تطلب الانتقام والآخرى تدافع، كانت الحرب وهو امر طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل." وإذا عدنا بالتفكير إلى الوراء فسنجد أنّ التاريخ البشري شهد الكثير من الحروب. وأنّ معارضة الحرب بدأت أيضاً في وقت مبكر. يشهد بذلك المؤرخ اليوناني ثوكيديديس في مؤلفه الشهير "حرب البيلوبونيز". فالمرافعة المؤثرة للملك أرخيداموس ضد الحرب، التي وجدناها عند ثوكيديديس، والتي تفتتح بها هذا العدد، عمرها ٢٥٠٠ سنة، ومع ذلك فإنّ الكثير من حججها مازالت خفية إلى يومنا هذا. ولا بد من القول: إنّ ما لفت انتباهنا، أثناء بحثنا عن نصوص ضد الحرب في العصور القديمة والوسطى، أنّ الحروب قدمت وكأنها أمر طبيعي. هذا ما ينطبق على الغرب المسيحي وعلى العالم الإسلامي على السواء. ومع شيوع مذهب "الإنسانية" في القرن الخامس عشر أخذنا نجد نصوصاً تقترب مما نفهمه اليوم بالمسألة، أي مذهب رفض العنف بكل أشكاله. سنحاول في هذا العدد أن نرصد التغيرات التي طرأت على طريقة التفكير في الحروب والتجارب التي مرت بها البشرية وذلك عبر عدد كبير من المقالات التي تنشر لأول مرة باللغة العربية.

"ليس العراق، بل أمريكا هي المشكلة" هذا ما كتبه الشاعر العربي أدونيس قبل الحرب. بدورنا نريد أن نسأل هل هذا هو واقع الحال؟ وللاجابة عن هذا السؤال سنحاول أن نحلل علاقة أمريكا بكل من أوروبا والمجتمع الدولي، ومن خلال وجهات نظر مختلفة. لن نكتفي بمقالات الكتاب الغربيين، بل سنتابع معالجة هذا الموضوع في الأعداد القادمة عبر استطلاع آراء عدد من المفكرين العرب أيضاً.

ونظراً للواقع السياسي العالمي الراهن بقي الأدب في الهامش. فحتى أعظم كاتب لا يستطيع أن يوقف القنابل، وهذا ما يدفع إلى السؤال: ماذا يستطيع الكاتب أن يؤثر بكلماته في عالم البربرية؟ الروائي، البلغاري المولد، الذي يكتب باللغة الألمانية وحامل جائزة نوبل للأدب إلياس كانييتي، طرح هذا السؤال في واحدة من أشهر مقالاته. إنه يخلص إلى نتيجة مفادها أنّ الكلمة يوسعها أن تقاوم قوى الموت، في عالم تقش فيه العنف.

نحن في "فكر وفن" إذ نوافق كانييتي على ما توصل إليه، نأمل أنّ يكون هذا العدد، الذي أهد في ظل الحرب على العراق، خير دليل على أهمية الأفكار والفنون في عالم يزداد عنفاً.

أوروبا القديمة وروما الجديدة



Peter Bender بيتر بندر
أوروبا والولايات المتحدة ٤٠

Stephen Kalberg ستيفن كليبرغ
سوء تفاهم ذو جذور ٤٣

Arundhati Roy أرونهاتي روي
كيف تسوق حرباً؟ ٥٠

أدب



Elias Canetti إلياس كانيتي
وظيفة الكاتب ٥٤

Mona Yahia منى يحيى
نصب الحرية ٦٠

Said سعيد
منمنمات قاهرة ٦٥

الحرب والسلام



Thucydides ثوكيديدس
هكذا تحدث أرخيداموس ٤

Erasmus إراسموس
لتجنح للسلام ٦

Montesquieu مونتيسكيو
موضوعات حول الحرب ٨

Heinrich Böll هاينريش بول
رسائل من الجبهة ١١

Hans M. Enzensberger اتنسينبيرغر
تأملات ذاتية ٢٠

Jörg Friedrich يورغ فريدرش
قصف مدينة فوبرتال ٢٣



Herfried Münkler هرفريد مونكلر
نهاية الحروب التقليدية ٢٩

Ulrich Ladurner أولريش لادورنر
أدق حروب التاريخ ٣٣

Mantshahr Amirpur مانتشير أميربور
الرؤية الإيرانية للحرب على العراق ٣٦

FIKRUN WA FANN, Nr. 77, 40. Jahrgang, 2003

فكر وفن، عدد ٧٧، السنة الأربعون، ٢٠٠٣

Herausgeber: الناشر:
Goethe-Institut معهد غوته
Inter Naciones إترناتسيونيس

Redaktionsleitung: إدارة التحرير:
Stefan Weidner شتيغان فايندر

Redaktion: التحرير:
Ahmad Hissou أحمد حسو
Stefan Weidner شتيغان فايندر

Korrektorat: المراجعة اللغوية:
Ibrahim Malik إبراهيم مالك
Ahmad Hissou أحمد حسو

Layout: الإخراج الفني:
Graphicteam Köln - Bonn ميشائيل كروب
Michael Krupp يون

Satz und Gestaltung: الصف والإخراج:
Amin Mohtadi م. أمين المهدي
Mohtadi Verlag, Köln المهدي للنشر، كولونيا

Druck: الطباعة:
Köllen Druck + Verlag, كولن للطباعة والنشر
Bonn بون

Kasparstr. 41 عنوان هيئة التحرير:
D-50670 Köln

E-Mail: البريد الإلكتروني:
Fikrwafann@aol.com

© 2003 Goethe-Institut Inter Naciones
ISSN 0015-0932

Internet: إنترنت:
www.goethe.de/in/d/pub/fikrun/fikrun.html
www.qantara.de

«فكر وفن» مجلة ثقافية تصدر مرتين في السنة
وتوزع مجاناً. يحق لأصحاب المكاتبات أن يبيعوها بسعر
لا يتجاوز قيمته ٢,٥ يورو/دولار



Ahmad Hissou أحمد حسو
عالم صدام حسين ٧٠

Stefan Weidner شتيغان فايندر
السي البابي ٧٢

Martin Lohmann مارتين لومان
نحن نحدد ما هو الارهاب ٧٣

Stefan Weidner شتيغان فايندر
من يسرق كلمة الله؟ ٧٤

Stefan Weidner شتيغان فايندر
صورة دكتاتور ٧٤

Annemarie Schimmel أنا ماري شمل
أيام لا تنسى ٧٦

Ahmad Hissou أحمد حسو
لغة العلوج ومارق الإعلام العربي ٧٨

الغلاف الأمامي: أحسنه الإسكندر الخديوية

"Iskandar's Iron Cavalry",

Page from the Great Mongol Shahnama (Book of Kings), Iran
1330. Harvard University Art Museums. Reproduction from the
catalogue: The Legacy of Genghis Khan.

The Metropolitan Museum of Art.

"اللوحه نصف غزو الاسكندر الهند. حيث دعا ملكها بروس Ponu إلى
الاستسلام، إلا أن بروس رفض وفشل أن يتقدم حتى النهاية. وحين اخبره
جواسيسه بأن الجيش الهندي المدعوم بالتيلة قوي جداً ولا فرصة أمامه للانتصار
عليه، أعد الإسكندر جيشاً من فرسان وأحصنة حديدية موصوعة على دواليب
ملوثة قذبة للاشتغال لللفظ. ورغم قوة الجيش الهندي إلا أنه تراجع وانتهز أمام
جيش الإسكندر التي تصاعدت منه البرقان، كما تم أسر الملك بروس."

الغلاف الخلفي: "علم أمريكي على حصان عربي"، إيران، قرون ١٥٩٠.
London, British Museum.

Reproduction from the catalogue: Chevaux et cavaliers arabes.
Exhibition at the Institut du monde arabe, Paris

هكذا تحدث أرخيداموس

أقدم إنذار حربي

ولد ثوقيديديس حوالي 460 قبل الميلاد في اليونان. هو يعتبر إلى جانب الجليل القديم مثل هيرودوتس مؤسساً لكتابة التاريخ. كما عاصر حرب البيلوبونيز التي وقعت بين أسبارطة وأثينا وأرخها في عمله الشهير الذي يحمل الاسم نفسه. تميز كتابه بعرضه للأحداث بشكل سليم وموضوعي كما أنه يحتوي على عدد كبير من خطابات السياسيين المخضرمين حول الحرب. هنا ننشر خطاباً للملك أسبارطة أرخيداموس قبل أن يعلن الحرب على أثينا، ويعتبر تاريخياً من أقدم الإنذارات الحربية قبل بدنها.

عندما تلقى الأسبارطيون من حلفائهم أخبار مظالم أثينا الواقعة عليهم، ومن أثينا ردّاً على تلك الشكاوي والاحتجاجات، استنفروا جميع قواهم لعقد اجتماع متراس الصفوف ثم تداولوا بشأن تلك التطورات. وهبّت أغليبتهم عن رأيها في نفس الاتجاه، وهو أن أثينا قد انتهكت فعلاً حرمة القانون، ولذا يتحتم الدخول فوراً في حرب ضدها، بيد أن ملكهم أرخيداموس، الذي اشتهر بالحكمة وحصافة الرأي تحدث إليهم قائلاً: "أيها الأسبارطيون، لقد عشت بنفسي حروباً عدة، وهو ما يعرّفه المشاورون معي في السنين أظهركم، الذين عاشوا نفس الظروف لدرجة أن لا أحد يتحمس لهذا الشيء بدافع من الجهل وعدم معرفة ما سيؤول إليه مصير الكثير من الناس، حتى ولو انطلق من هذا التصور، وهو أن ذلك يعني عملاً جيداً ويضمن الأمن، بل إن هذه الحرب التي تتداولون بشأنها الآن، سوف لا تكون أنفء الأشياء وأقلها قيمة وأهمية، حسبما قد يجوز استنتاجه بوضوح من تأملات معقولة في تقديرات حياوية مسبقة لأن قواتنا الحربية كانت متساوية النوع سواء بالنسبة إلى أعدادنا من مجموعة البيلوبونيز أو بالنسبة إلى المدن المجاورة لنا. إذ كان كل هدف تمكن مهاجمته بسرعة خاطفة، لكن شن حرب ضد شعب يعيش في أراض قاصية، وله تمحارب كبرى في المعارك البحرية بل أكثر من ذلك، هو يتمتع بالشهرة والتفوق على كافة الأصعدة: مثل الثروات الثابتة والمقولة، والسفن والأسلحة والخيول وجماهير غفيرة لا وجود لمثلها مطلقاً في أي مدينة من مدن هيلينا على انفراد. يضاف إلى ذلك، ارتباطه قبل كل شيء بحلفاء ملتزمين له بالدفع، فكيف يجوز إذن شن حرب على هذا الشعب بسهولة؟ وبشكل حتمي؟ وعلى أي شيء يعتمد يتيئكم في توجيه ضربة خاطفة، دون أن تكونوا مسلحين؟ فهل تعتمدون على مسفتنا؟ إننا في هذا المجال أكثر ضعفاً، وإذا أردنا القيام باستدراك التسلح المضاد للمجابهة، مع ما يقتضيه ذلك من تداريب وتأمين فإن ذلك سيحتاج إلى وقت طويل. إذن، هل تعتمدون على أموالنا؟ إننا نفتقنا الكثير الكثير منها، فالدولة لا تملك شيئاً، وقد يمكن أن لا يستطيع الأفراد أيضاً أداء مهمة الأخذ والجلب والدفع فقط.

ولربما قد يجوز أن يكون أحدكم على يقين من أمره، لكوننا متفقون عليهم في الأسلحة وقوات الجيش. وقد نستطيع غزو بلادهم وتدميرها بالكامل، لكنهم

لهذا السبب فلا تعتقدوا أن ما قد يمكنكم السيطرة عليه من بلادهم وكأنه مجرد «رهن» فقط، تزداد قيمته بازدياد استخدامه على الوجه الأكمل، وأنه يتحتم على الإنسان صيانتة والحفاظ عليه قدر المستطاع، كما لا يتحتم الدفع بهم إلى درجة من اليأس والفتنوط قد لا يمكن التحكم بأي وسيلة في تداعياتها فيما بعد.

وعندما نكون نحن غير مجهزين بالسلاح المطلوب، يتم الدفع بنا عن طريق مظالم الخلفاء وشكواهم إلى غزو بلادهم بتهور واستعجال، وتدميرها وتقطيع أوصالها، فحينئذ يجب عليكم التفكير فيما يلي: ألم تكن بذلك سئلاً بسلطان يوليوز فضيحة تكراه ونقصهم في مآرق حرج؟ لأنه يمكن للإنسان التدخل كوسيط لفرض الشكاوي والمزايدات، سواء صدرت عن الدول أو عن المواطنين، إلا أن حرباً نورد غرض غمارها فرادي وجماعات، والمسار المهجول الذي تتخذ، قد يكون من الصعب حقاً توقيف رحاها، بشكل بارع مرة أخرى!

ولا يحق لأي كان وصف هذا الموقف بالحيثي، حينما يرى الكثيرون منا عدم مهاجمة إحدى المدن باستعجال وتهور، لأن لقاداتها وسكانها حلفاء أيضاً لا يقلون عن حلفائنا ويدفعون إليهم الأموال. لكن الحرب ليست قضية أسلحة بشكل أكبر مما هي قضية تمويل! فاللأمر هو الذي سيعاد في البداية الأسلحة لتؤدي مهمتها، خصوصاً وأن الأمر يتعلق بقوات برية، تقف ضد قادة متمرسين في المارك البحرية، وهذا ما نريد العمل من أجله قبل كل شيء.

أما الخلفاء فلا يجوز لهم الدفع بنا في وقت مبكر إلى ارتكاب هذه الحماقة، عبر خطبهم النارية، وبما أننا نؤيد الوصول إلى مخرج من هذا المأزق، بعد أن يتحمل الطرفان مسؤوليتهما العظمى في ذلك، فإننا نريد أيضاً أن نذكر بهذوء رؤوية في مخططاتنا وصيغها المتنوعة.

بل حتى تلك التهم الموجهة إلينا بكوننا مترددين خائفين لا تسمحوا لها أن تصيبكم بالحسرة والندامة. إذ إنكم إذا استعجلتم الآن، فإن ذلك سيؤدي إلى تأخير النهاية، لكونكم تهاجمون وأنتم غير مسلحين، يضاف إلى ذلك أننا نعيش منذ أمد بعيد في مدينة حرة تطبق شهرتها الأفاق، وفي هذا الوجود بالضبط تكمن الصرامة المتعقبة.

لذا فنحن الوحيديون الذين لا ندفع بهم نشوة النصر بعد تحقيق هدف جيد، إلى مزالق الجريئة، والإساءة إلى الغير، كما أننا نحزن الذين يخضعون بنسبة أقل من الآخرين لضربات القدر المصيرية.

كما أننا من أولئك الذين لا يقع التأثير عليهم عندما يحاول الإنسان الوقوف ضد أفكارهم بواسطة الإشادة والتثويه، ويريد التغرير بهم ليقعوا في جبال المخاطر والمهلك! إننا لا نخضع بمثل تلك الإثارة للصعوبات، ولا ترتفع انفعالاتنا

بمثلكون المزيد من الأراضي الخاضعة لسيطرتهم، كما يمكنهم استدراك الضعف الذي تعاني منه قواتهم البحرية أيضاً. وعندما نحاول خلق شقاق وتفرق في صفوف حلفائهم، فينتحمر علينا الوقوف إلى جانب أولئك ودعمهم بالسفن الحربية أيضاً، لأن معظم تلك المدن أرغيلية الطابع على سواحل الجزر. وعليه فكيف نقوم بقيادة هذه الحرب؟ إذا لم نحقق نصراً بحرياً، أو لم نسيطر على مداخلهم المالية التي يستخدمونها لصيانة السفن وتصلبها، فإننا لن نحجي سوى الشرور والأضرار فقط، وبدلاً من تسليح لنا ولو فرصة واحدة لوقف رعي الحرب والخروج من ويلاتها بشرف! وخصوصاً إذا كنا متهمين بكوننا نحن الذين بدأوا الحرب وأطلقوا شرارتها الأولى. لذا، فنحن لا نسمح لأنفسنا بالانخداع بالأوهام المفضلة التي تقول: الحرب تنتهي بسرعة، إذا تم هجوم صاعق، يقضي على الأخضر واليابس، بل إنني أخشى أكثر من ذلك: أن نؤرث أبنائنا وأحفادنا أوارار هذه الحرب وتبعاتها لأجيال قادمة، حتى ولو أنه من غير المرجح أن يكون الأثنيون المستزعمون بأنفسهم، وأرقاء أراضيتهم، وكان ليس لديهم أي تجربة لترويع الآخرين وتهديدهم بما في ذلك شن الحرب عليهم.

يبد أي لا أريد أيضاً أن أقف موقف المتفرج الذي يرى بعينه فقط كيف يقع إضعاف حلفائنا دون أن نتصدى لضربات المحتل! وإذا نحن نريد، ودون إشهار للسلاح كذلك، أن نبحث برسولنا إليهم وهم يحملون شكاوانا وتظلماتنا، ودون أن نتحدث عن الحرب في هذا السياق بكامل الوضوح. لكن مع ذلك فنحن لا نريد الاستسلام، بل سنواصل حتى في هذه الفترة تسليحنا كذلك، مرة عن طريق كسب المزيد من الخلفاء في ميلاس، مثلما هو الشأن مع البرابرة. ومرة أخرى عن طريق تقوية سلطتنا ونفوذنا في أي ناحية من النواحي عن طريق السفن أو عن طريق المال، ما استطعنا لذلك سبيلاً! (ويجب ألا يُلَم أحد مثلاً، تلاحقه ضربات أئينا إذا ما طلب العون والتجدة خارج هيلينا، بما في ذلك لمجة البرابرة لينقذ نفسه.) أما إمكانياتنا الذاتية، فإننا نريد تطويرها بشكل أفضل في المستقبل أيضاً. وعندما يفهمون رسالتنا فيما بعد، فإن ذلك سيكون أحسن، أما في غير هذه الحالة، فإننا سنستطيع في غضون سنتين أو ثلاث سنوات أن نصبح مسلحين بشكل جيد، وننتعج بروج معينة أصلب، وبالتالي سنسترحم لغزوهم إذا كنا نريد ذلك!

بل ربما سيستسلمون بشكل أسرع، إذا رأوا بأعينهم حجم تسليحنا المتطابق مع ما تضمنه خطاباتنا وإنداراتنا. وهذا في الوقت الذي يرون فيه أن أراضيهم وبلادهم مازالت لم تصبح قاعاً صفيصاً، وهو ما سيدفع بهم حتماً إلى الدخول في مشاورات، تتناول ما بين أيديهم من الممتلكات والثروات التي لم تتعرض للتدمير والحراق بعد.

وتتحمس عبر الإثارة والاستفزاز، بل نحن أقل استجابة للحسرة والندامة، إذا أخطأنا بمظلّم أي شخص وشكواه. إننا محايرون ومتشبهون في ذات الوقت بالأفكار الرشيدة، بسبب تربيتنا، لأن معظم الحياء يمكن أولاً في التروّي والتعقل، كما تكمن الشجاعة الحقة في التجنّب والتحاشي. أما تشبعنا بالأفكار الرشيدة فيعود سببه إلى تربيتنا الساذجة التي تدعو إلى احتقار القوانين التي تتضمن صرامتها الكثير من السلوك والمواقف قد يدفع بالإنسان إلى عدم الخضوع لها، وهي لا تلقنا أن لا نصبح خيراً محنكين في الفنون عديمة الجدوى، كي نجعل حجم التسليح المعادي وقيّمته أضعف وأقلّ بواسطة الكلمات المهيمنة. ومنذ القدم ونحن نسلح أنفسنا باطراد عبر الالتزام بهذا الموقف العملي، وهو كأنّ خصومنا أعداءنا يتفوقون علينا باستمرار ذكاء ورجحان عقل وفي كافة الميادين والأشياء. ولا يجوز أن نعلق آمالنا على أخطائهم فحسب، وإنما نعتمد على قدراتنا الذاتية ومنطقتنا الفكرية المسبقة ذات الضمانات المؤكدة. بل لا يجب على الإنسان أن يعتقد بأن هناك فرقاً «جوهرياً» بين إنسان وإنسان، لكن الأقوى منهما فعلاً هو الذي تتم تربيته في رحاب الضرورات القصوى.

ونحن نريد الحفاظ على هذا الانضباط التربوي المنتقل إلينا من الآباء والأجداد، والذي ضمن لنا الاستفادة منه في جميع الفترات، أننا سنتمسك به في المستقبل، ولا نريد تحت أي ضغط أن نتخذ في بضع ساعات من يوم واحد فقط قرارات مصيرية تطال الكثير من حيوات الناس، والكثير من الممتلكات والمدن، بل والكثير من الأسماء اللامعة أيضاً، وإنما نريد أن نعمل ذلك في هدوء تام وروية. ونظراً إلى أوضاع قوتنا فيحق لنا فعل ذلك بنسبة أقرب. لذا فابعدوا إلى «أبنائنا» برسائل تتعلق بسلوك بوليلديا، وأخرى تتعلق بالمظالم التي يعاني منها حلفاؤنا ويحتاجون ضدها، لا سيما وأنهم مستعدون لتنصيب هيئة تحكيمية كذلك. ولا يسمح لأي شخص، اتهم في السابق بانتهاك القانون، أن يشارك في هذه الهيئة ولا في إنشائها. وفي ذات الوقت اعملوا على تسليح أنفسكم، لأن هذا القرار سيكون الأفضل، وهو الذي سيرهب الأعداء في معظم الظروف. "

ترجمة: محمد المراكشي

Erasmus

إيراسموس

لتجنح للسلام

عاش إيراسموس ما بين 1466 و 1536، ويعد من كبار علماء الآداب القديمة والإصلاحيين للعقيدة المسيحية. كان مسالماً عن قناعة تامة. شرح بشكل مفصل في كتاباته العديدة عن موقفه الراض للحر.

هذا من عواقب الحرب. إن شعرت، أن عبثاً يقع عليك، وأنت تقود حثالة من المجرمين المرتزة في بلدك، وتطعمهم من تاعسة مواطنيك، وتكون خاضعاً ومزلقاً لهم، بل إنك تضع مضيرك الشخصي وسلامتك تحت تعسفهم، فلنكن على بينة، أن هذه من شروط الحرب. إن كنت تستفزع غارات السلب والنهب، فإن هذا بالذات ما تلقنا إياه الحرب، وإن كنت تلعن جرائم القتل، فإن هذا بالذات ما يكتسب في ظروف الحرب. لأن من يتوجس من قتل إنسان في حالة الانفعال، سيستاجر لقاء عربون ضئيل، لقتل الكثير الكثير من البشر؟ حين يعني انتهاك القوانين هلاكاً محتملاً للكيان العام، فإن القوانين تستصمت في ظل الحرب. إن كنت تعد الاعتصام وغشيان المحارم وغيرها من الفضائح وبأنها أكثر من فظيعة، فإن الحرب أستاذة لكل

إن كنت تعد العدة ساعياً للحرب، فما عليك إلا أن تمنع النظر ملياً في طبيعة كلٍّ من السلام والحرب، ما يقضي إليه هذا من نفع وما يؤدي ذاك، من الناحية الأخرى، إلى ويلات. وهكذا عليك أن تتروى إن كان يحسن بك أن تستبدل السلام بالحرب.

إن كانت قضية ما مبعث إعجاب حقاً، فإن ذلك ملكوت يزدهي بكل بهاء، على كافة الأصعدة، بمدن قائمة على الخير وحقول مزدهرة، وأفضل القوانين على الإطلاق، ونظام تربية مرموق وأتقى تغيير في الأعراف. تأمل في الأمر جلياً؛ في أنك ستحطم سعادتك هذه كلها، إن حاربت. وعليه، فإنك إذا نظرت إلى أطلال المدن والقرى المهدامة والكنائس المندثرة والحقول المهجورة ومنظرها الذي يبعث على الرثاء، عليك أن تتلكر، أن كل

تكون الرغبة الخاصة لحاكم صالح أن يسود على قوم كرماء، فإنه سيلعن الحرب، التي لا ينتش عنها سوى رعاي ديدنهم الحسة. حين يكون حريصاً على كل ما يملكه المواطنين، كما لو أنه ثروته الخاصة، فإنه سيتحاشى بكل الطرق حرباً،

ذلك. إن كان منيع كل منكر الجحود وزيارة الدين، فإن هذا بالذات سيظهر تماماً، ما أن تدور رعي الحرب. إن كنت ترى، أنه ليس في صالح الدولة على الإطلاق، أن يتمتع أرائك الناس بفضوذ هائل، فعند اندلاع الحرب تكون الغلبة

لأفطن المجرمين. وإن من ترسلهم في عهد السلام إلى أعواد المشانق، يتقلدون في زمن الحرب أرفع المناصب. من يا ترى يستطيع أن يقود القوات المحاربة عبر عمارات سرية بشكل أفضل من قاطع طريق محترف؟ من يا ترى يرغب في اقتحام البيوت بكل جراءة أو نهب الكنائس غير لص أو ناهب كنيسة؟ من سيكون جريئاً إزاء العدو ويخترق

بسيفه قلبه أكثر من قاطع طريق أو مجرم؟ من سيكون، بالطبع، خليقاً بإحراق المدن والحصون كالحارق المتعمد؟ ومن يستهين، كذلك، بأخطار الموج والبحار كالفرسان المحترف الذي أمضى يوماً في طلب الغنائم؟ إن أردت على ما يبدو أن ترى، أي جحود هي الحرب، فعليك أن تدرك طبيعة من يخوض الحرب. حين لا يكون لدى الحاكم الورع شيء أحرز من سلامة مواطنيه، تكون الحرب أبغض ما عنده. حين تكون سعادة الحاكم، أن يحكم وهو قدير العين، فينبغي أن يكون حريصاً على السلام كل الحرص. وحين

وما الحرب إلا ما علمت ودفتر
متى تبعثوها تبعثوها لامية
فتعركل عركل الرعي بشناليها
وتنتج لكركل غلمان أشركلهم
فتغلل لكركل ما لا تغل لأهلها

وما هو عنها بالحديث المرجر
وتضري إذا ضريموها فتضمر
وتفلق كشافاً ثمر تحصيل فتضير
كاحمر عاد ثمر ترضع فتظير
قري بالعراق من قنيز ودرهم

بغير من أبي سلمى

حتى وإن انتهت لصالحه تماماً، فإنه متفني، يقيماً، ثروات كل الناس ويجري إنفاق، ما تم كسبه من حرفة شريفة، على شلة شريرة.

إنه من نافلة القول التذكير باستمرار بما يلي: كل إنسان مغتر بما لديه من دوافع ويتطلع ميسماً إلى أماله، على الرغم من أن السبب، الذي يبدو للساخت محققاً، كثيراً ما يكون مجحفاً تماماً، والأمل غالباً ما يكون خادعاً. إذن عليك أن تفكر بسبب مشروع، وتصور أن خاتمة الحرب ستكون سارة كل السرور، ثم أحسب كل الخسائر التي ستحدثها الحرب



Paolo Uccello: The Battle of San Romano. © National Gallery, London.

في العراء بعيداً عن الوطن. كما أن بناء أسوار جديدة سيكلف أقل بكثير من تقويض الأسوار القائمة بواسطة هكينة الحرب. لا أريد، الآن، أن أجمل كم من المال سرق من قبل المحصلين ومديري الخزائن وقادة الجيش، وهذا قطعاً ليس بجذره يسير. لو قمت بتقدير كل شيء بطريقة تتوخى الدقة في التفاصيل، ستجد أنه كان يمكن أن يفتدى السلام بعشر هذه النفقات. لكنك تعتقد، إن أنت عفوت عن إهانة ما، ستخسر شيئاً من شجاعتك البطولية؛ على العكس من ذلك، ليس هناك ما هو أدل على القنوط وعلى ضعف شخصية الملك أكثر من السعي لأخيه الشار. إنك ترى، أن ذلك سينال من كرامتك، إن قمت بإجراء مفاوضات مع أمير من بلد مجاور، قد تربطك به رابطة رحم أو مصاهرة، ربما كان عدداً ذلك يخطب ودك، لكي تتنازل عن شيء من حقه. إن هذا لك السلام، الآن، باهظ الثمن بشكل أو بآخر، فلا تتصور أبداً، أن هذا سيكون إسرافاً، إنما قل لنفسك: سأضحي بهذا الثمن الباهظ من أجل السلام.

ترجمة: علي أحمد محمود

والمنفعة التي سيحققها النصر، وانتظر، إن كان النصر جديراً بكل ذلك. قلما يتحقق النصر من دون إراقة دماء. ها أنك قد ضرجت انتصارك بدماء بشرية. عدا ذلك عليك أن تأخذ بنظر الاعتبار تردّي الأخلاق وضمحلل الآداب العامة، التي لن تعوض بأي ربح على الإطلاق. إنك تفرغ خزائن الدولة وتسرق الشعب، تشغل على الطيبين وتعرض الفساشين على ارتكاب الجريمة، لكن عندما تلقي الحرب بأوزارها لا يمكن تجاوز مخلفاتها حالاً. أما العلوم فإنها تخسر ما تبواته من مكانة ومقام، كما تنقلص النشاطات التجارية. ولكي تضيق الخناق على عدوك، تجهد نفسك مضطراً إلى أن تقوم قبل ذلك ويكل نزع بحرمان نفسك من مناطق كثيرة. قبل الحرب، كانت كل البلدان للمجارة مفتوحة أمامك، لأن السلام هو كل شيء عبر تجارة البضائع إلى خير مشترك. انظر، ماذا صنعت بنفسك، فلم يعد، الآن، في مستناول يدك، ما كان بالأمس طوع إرادتك. كم من الآلات والخيام مستحتاج لتدمير بلدة صغيرة واحدة؟ ينبغي عليك أن تبني مدينة مؤقتة، كي تستطيع مقابلهما تحطيم مدينة قائمة فصلاً، بيد أنك على عكس ذلك تستطيع بتكاليف أقل إنشاء مدينة ثانية حقيقية. ولكي تحول دون تمكن العدو من مغادرة المدينة، فانك تنام

مونتيكيو Montesquieu

موضوعات حول الحرب

مقتطفات من كتاب «روح القوانين»

عاش الفيلسوف والكاتب الفرنسي مونتيكيو ما بين ١٦٨٩ و ١٧٥٥ ميلادية، واشتهر من خلال «رسائله الفارسية»، التي أدان فيها شن الحروب؛ لكنه في كتابه الهام «روح القوانين» وضع الحجج القائلة: إنَّ شن الحرب، ضمن ظروف خاصة، من الممكن أن يكون أمراً مشروعاً.

حول الحرب

إن حياة الدول تشبه حياة البشر. فلبشر في حالة الدفاع الطبيعي عن النفس، الحق في القتل؛ وللدول الحق في إعلان الحرب، كلما تعرض وجودها للتهديد. في حالة الدفاع الطبيعي عن النفس، أم لك حق القتل، لأن حياتي ملكي الخاص، تماماً كما أن حياة مهاجمي ملكه الخاص به. وبالمثل تخوض دولة حرباً، لأن وجودها شرعي، مثل وجود كل دولة أخرى. ولا يقتضي حق الدفاع الطبيعي بين مواطني الدولة بالضرورة الهجوم كتيبة له. فبدل أن

يهاجم الواحد الآخر، لا يحتاجون سوى التوجه إلى المحكمة. أنهم يحتاجون حق الدفاع هذا فقط في الحالات المفاجئة، التي يمكن للرمه فيها أن يفقد حياته، إذا ما انتظر المساعدة من القانون. ونستج من هذا، بأن المجتمعات الصغيرة تملك في أغلب الأحيان الحق في إعلان الحرب بالمقارنة مع الكبيرة، لأنها ستجد نفسها غالباً في حالة تدعوها إلى الخوف على وجودها.

إنَّ الحق في إعلان الحرب ينبع، بالتالي، من الحاجة ومن الضرورة الشرعية. وإذا لم يلتزم رجال الفكر ومستشارو

استنتاج تم استنباطه بطريقة خاطئة من مبدأ خاطئ. فدمير للمجتمع لا يقتضي بالضرورة تدمير البشر الذين يكونونه. إن المجتمع يمثل وحدة البشر، وليس البشر أنفسهم. كموطن يمكن للمرء أن يبيد، ولكن ليس كإنسان. ومن حق القتل في الغزو، استتب السياسيون حق تحويل البشر إلى عبيد. لكن هذه النتيجة خاطئة خطأ المبدأ نفسه. يمتلك المرء حق تحويل البشر إلى عبيد، فقط إذا كان ذلك الوسيلة الوحيدة للحفاظ على الاحتلال. هدف الاحتلال هو تأمين الوجود. الاستعباد لم يكن أبداً يهدف للاحتلال، ولكن قد يحدث أن يكون الوسيلة الوحيدة من أجل تأمين الوجود.

وفي هذه الحال، فإن تأييد هذه العبودية يتعارض مع طبيعة الأشياء. يجب أن تكون هناك إمكانية للشعب المستعبد أن يصبح حراً. إن العبودية في الغزو حدث عارض. فبعد مدة من الزمن، مسترطت فرق دولة الاحتلال بفرق الدولة المحتلة، عن طريق عادات وعقود رواج وقوانين وعقود تجارية وينبع من الانسجام الروحي، وهنا يتوجب أن تتوقف العبودية. إن حقوق الاحتلال لا تملك صلاحيتها، إلا إذا لم يحدث مثل هذا التقارب، وظلت الفرق الكبيرة قائمة بين الاثنين، بحيث لا تنق الواحدة بالأخرى.

وهكذا، فإن الغاري الذي يستعبد شعباً ما، عليه أن يستقي نفسه الوسائل، وما أكثرها، من أجل إخراجه من هذه العبودية.

إنني لا أشتط هنا في الكلام. فأبأنا تصرفوا يمثل هذه الطريقة لما غزوا الامبراطورية الرومانية. لقد عملوا على تلطيف القوانين التي سنوها زمن الحرب والعنف ولحظة الزهو بالنصر، كانت قوانينهم قاسية، فجعلوها منصفة. وعند البورغوازيين والقوانين واللومبارديين توجب على الرومان أن يعيشوا دائماً كشعب مهزوم، لكن قوانين Euric و Gondebaud و Rotharis جعلت من البرابرة ومن الرومان مواطنين.

ومن أجل اخضاع الساكن، حرّمهم شرباً من الحرية وحق التملك. لويس الطيب اعتصمهم؛ إنه لم يتم بشيء أفضل من ذلك طيلة مدة حكمه. الزمن والرق لطفاً من اخلاقتهم. ولقد ظلوا له دائماً أوفياء.

عن جمهورية غازية

أن تعتمد دولة كونفدرالية على احتلال دولة أخرى، كما رأينا في أيامنا هذه عند السويسريين، هو ضد طبيعة الأشياء في النظام الفدرالي. لكن الأمر يصمد بدرجة أقل في الجمهوريات الفدرالية المختلطة، حيث العلاقة قائمة بين جمهوريات ومملكات صغيرة.

الحكام بهذا الإطار، فإن كل شيء سيصرف طريقه إلى الضياع. وعندما يتركز المرء على مبادئ المجد والصيت العظيم والمصلحة الاعتبارية، فإن أنهاراً من الدماء سوف تغسل وجه الأرض. وعلى المرء خاصة أن يشجب الحديث عن مجد الأمير وإلا أضحي مجد الأمير طموحه. والطموح شهوة وليس حقاً شريعياً.

صحيح، أنه من شأن الصيت العظيم لسلطته أن يزيد من قوة دولته، ولكن ليس أقل من ذلك الصيت العظيم لمداته.

حول حق الغزو

إن حق الغزو ينبع من حق الحرب، ويستمبر نتيجة له، ويتوجب عليه أن يتبع نفس الروح.

فعندما يتم غزو شعب ما، فإن حق هذا الشعب على الغازي يقوم على أربعة أنواع من القوانين: قانون الطبيعة، الذي يمثل في ضرورة الحفاظ على النوع؛ قانون النور الطبيعي، والذي يلزمنا بمعاملة الآخرين كما نحب أن تتم معاملتنا؛ القانون الذي يكون للمجتمعات السياسية، والتي لم تلد الطبيعة صمراً؛ وأخيراً القانون المشتق من الشيء ذاته. الغزو تملك؛ وروح التملك تنقسم روح المحافظة والاستعمال وليس روح التدمير.

حين تغزو دولة أخرى، فإنها تعاملها بطريقة من الطرق الأربعة التالية: تستمر في حكمها حسب قوانينها، ولا تحفظ لنفسها إلا بحق ممارسة الحكم السياسي والمدني؛ أو أنها تمنحها حكماً سياسياً ومدنياً جديداً؛ أو أنها تدمر المجتمع، وتشتت في مجتمعات أخرى؛ أو أنها تعمد أخيراً إلى إبادة كل المواطنين.

الطريقة الأولى تتفق مع القانون الدولي الذي تنسجه في أيامنا هذه، أما الرابعة فتتفق مع القانون الدولي في عهد الرومان. ويحق للمرء أن يحكم إلى أي حد أصبحنا أفضل من ذي قبل. يتوجب علينا هنا أن نحیی أزمنا المعاصرة، المحلل الراهن، فلسفتنا وأخلاقتنا.

فقهاء قانوننا العام، الذين اعتمدوا في ذلك على التاريخ القديمة، والذين انطلقوا من أوضاع قاسية، وقصوا في أخطاء كبيرة. لقد أرجعوا كل شيء للاحتياط، ومنحوا الغزاة حقاً، لا أعرف ما هو، في القتل، وما يسفر عن ذلك من نتائج رهيبية مثل المبدأ ذاته، وسنّ قوانين، لو امتلك الغزاة القليل من الحب السليم، لما عملوا بها. ومن الواضح أنه في حالة إتمام الغزو، لا يعود للغاري الحق في القتل، لأنه لم يعد يتواجد في حال الدفاع الطبيعي، ولا يحتاج لذلك من أجل الحفاظ على وجوده.

ما جعلهم يفكرون يمثل هذه الطريقة، هو أنهم اعتقدوا أن الغازي يمتلك حق تدمير للمجتمع، واستنتجوا من ذلك أن له حق تدمير البشر الذين يكتنون هذا المجتمع، ولكنه

متابعة لنفس الموضوع

هناك أيضاً سلبية أخرى للغزوات التي تقوم بها الديكتاتوريات. فالدول المستعبدة تظل دائماً تحقد على حكومتها. إنها ملكية من ناحية المصطلح، ولكنها في الواقع أقسى من الملكية، كما أوضحت ذلك تجارب كل الألمان وكل الدول. الشعوب المحتلة هي في وضع حزين. إنها لا تتمتع لا بإيجابيات الجمهورية ولا إيجابيات الملكية. ما قلته عن الدولة الشعبية يصدق أيضاً على الأرستقراطية. وهكذا، فإنه حين نعمد جمهورية إلى الحفاظ على تبعية

شعب ما لها، فيجب عليها أن تبحث أمر إصلاح ما ينتج عن ذلك من سلبيات، بإعطائه حقاً سياسياً جيداً وقوانين مدنية جيدة.

كانت جمهورية في إيطاليا تحكم سكان كوروسيكاء، لكن قانونها السياسي والمدني يحقهم كان مجسفاً. إن المرء يتذكر قرار العفو العام الذي دعا إلى عدم الحكم عليهم بالعقوبات البدنية، فقط لأن الحاكم يملك القناعة الأخلاقية باجرامهم. لقد رأينا غالباً شعوباً تطالب باستشارات، ولكن هنا أقر الحاكم حقاً لكل الأمم.

عن أخلاق الشعوب المهزومة

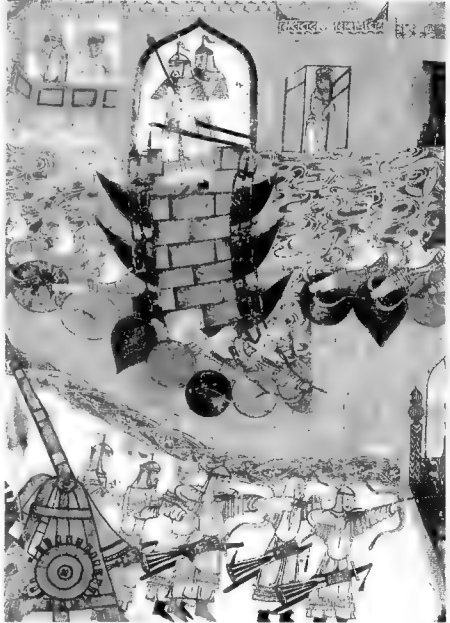
لا يكفي، في مثل هذه الغزوات، أن يترك المرء للأمة المهزومة قوانينها؛ بل الأهم من ذلك أن يترك لها أخلاقها، لأن أي شعب يعرف، كيف يجب أن يدافع دائماً عن أخلاقه أكثر من دفاعه عن قوانينه.

لقد تم طرد الفرنسيين تسع مرات من إيطاليا - يقول المؤرخون - بسبب من وقاحتهم تجاه النساء. فكثير بالنسبة لأمة أن تعاني وهو المنتصر، وأكثر من ذلك شبقه، والأكثر من ذلك تطفله، الذي هو بلا شك أكثر إثارة للغضب؛ إنه يضاعف الاهانات بلا حد.

ترجمة: رشيد بوطيب

مونتيسكيو: روح القوانين - الكتاب ١٠

ويتعارض أكثر من ذلك مع طبيعة الأشياء، أن تحتل دولة ديمقراطية مدناً أخرى، لا يمكن دمقرطتها. ويتوجب أن يتمتع البلد المحتل بإيجابيات السيادة، كما فعل ذلك الرومان في بداية حكمهم. وعلى المرء أن يحصر الغزو بعدد المواطنين الذين يحتاجهم للديمقراطية. أو إذا ما غزت دولة ديمقراطية شعباً ما من أجل حكمه، فإنها تعرض حريتها للخطر، ذلك أنها سوف تتمتع سلطة كبيرة للموظفين الذين ستبحث بهم إلى البلدان المحتلة (...).



غزو بغداد

"The Conquest of Baghdad". Illustration from the Diez Albums, Iran, 14th century. Staatsbibliothek Berlin. Reproduction from the catalogue, "The Legacy of Genghis Khan". Exhibition at the Metropolitan Museum of Art and the Los Angeles County Museum of Art (until 27th of July 2003).

نصف الفورة الغزو للفرلي ليليلاد. وقد تم تخطيط بعض عناصرها لأشخاص وغرفية. لسياد الفير والمحقق حول القصور الدفاعي رسمت أيضاً بطريقة وغرفية مستوحاة من الفن الصيني. هذه التابلو التي ترحي بالاله الجبلية، والاكشاك والافرون ودورج المقتلين الموهومة بطريقة متعلمة حول سور المدينة، رسمت أيضاً بطريقة وغرفية بسيطة.

رسائل من الجبهة

هاينريش بول (١٩١٧ - ١٩٨٥)، الحائز على جائزة نوبل للآداب، كان جندياً صاعدياً وليلة ستة سنوات في الجيش الألماني. في السنوات الأخيرة نُشرت له ولأول مرة رسائله التي تتجاوز الثمانمائة رسالة والتي كتبها أثناء خدمته العسكرية ومشاركته في الحرب العالمية الثانية. رسائله تعد وثيقة (لرؤية بول للموحشة) ووثيقة عن حياة الجنود في الحرب.

فرنسا في ٧ آب ١٩٤٠

والدي العزيزين .. إخوتي الأحباء

بعد مسيرة مئة وخمس عشرة ساعة وصلنا بالأمس إلى المكان المحدد لمهتنا. ثم رحنا من بلدة فرنسية صغيرة تحت وطأة شمس الصيف اللاهبة، مثقلي الظهور بالجلب واللعينة، رهاه عشر كيلومترات، لنعسكر في قرية صغيرة. ما زالت القرية توشك أن تكون مهجورة تماماً، بعد أن عاد إليها عدد ضئيل جداً من القرويين. الناس هنا، على العموم، طيبون، لكنهم واهون جداً لكرامتهم؛ لا نرى هنا غير النساء والأطفال والرجال الطاعين في السن، الذين يسعون جاهدين إلى مواصلة استزراع جزء يسير من الأرض. إنني أستطيع هنا، بما تعلمته من اللغة الفرنسية في المدرسة، أن أفهم مع الناس بشكل جيد؛ صباح الأمس واليوم قمت بالتبضع بالحليب والزبد والبيض، وكلما حاولت أن أحبر للنساء عن شيء من العطف، فذهبن يهزئن فقط رؤوسهن باستسلام ويرددن: "إنها الحرب، الحرب الثانية في وطننا." إن ما رأيناه من تدمير وتخريب خلال ساعات النهار القليلة، التي سرنا فيها، لا يصدق بالفعل. بيد أن المساكن كانت أقل عرضة للتدمير، خاصة حين تقع في مكان لا يمكن تحاشيه، كأن تكون بالقرب من مخزن وقود أو مصنع، كما سلمت أغلب الحقول أينما كانت، بغض النظر عن بعض الحفر التي خلفتها القنابل، وقد رأيت ميدان قتال ضخمًا وحيناً قرب أحد الجسور على نهر الزوم، حيث الحقول والمروج قد حولتها الدبابات والعربات المدرعة إلى خراب وما زالت العربات التي اخترقها الرصاص متناثرة هنا وهناك برمتها وقد اعتراها الصدأ. كما تبدو جميع محطات القطار في وضع يبحث على الفرز، وما يزيد من بشاعة المنظر، الحصى الراتبة التي تغطي حلتها على الطبيعة الفرنسية. بيد أننا لو جمعنا، كل ما وقع أمام أعيننا على امتداد خطوط السكة الحديدية من بنايات تعرضت للقصف، فإن حصيلة ذلك ليست بالكثيرة، مثلما شاهدنا في روتردام بعضاً منها في حالة أقرب إلى الظلمة، وأدركنا بعضها الآخر؛ تخيلوا، أن كل ما هو واقع في مدينة كولوني بين الرنغن والراين (أي المدينة القديمة برمتها) يضاف إليها رهاء مئة متر من المدينة الجديدة، قد سوي بالأرض، وإنكم تعبرون إلى هناك بواسطة جسر سكة الحديد الذي يقع على ارتفاع عشرة أمتار، كان مكاناً أنشبه بالجسيم حقاً. ثم شاهدنا الأنواء ترتفع هنا وهناك في أقبية البيوت المهلعة، وظلال الناس الباحثين عن شيء ما. ليس هناك ما هو أكثر فظاعة من الحرب.

خاصة الإنسان يتعامل مع محيطه داخلياً، فإن ذلك يعد الرعب بعينه... عندما تتطلع إلى مثل هذه الأمور، تصبح مسألة التفكير بما هو حق وظلم جنوناً مطبقاً بالفعل، إن مجرد التفكير بحد ذاته يكاد يكون جريمة بحق العقل؛ بل أنني أعتقد أبعد من ذلك، أننا نغيب الحيوان، لأنه ليس له عقل يقتل عليه.

رغم ذلك أجدني مسروراً، وإن بدا ذلك لا يحتمل التصديق، لأنني ابتعدت عن مدينة برومبيرغ، حين أذكر ذلك الآن، أشعر وكأن كابوساً من البلادة يستحوذ عليّ.

كنا سعداء الحظ لحد ما بحصولنا على المأوى الحالي. كنا ثلاثة رجال نقطن في غرفة صغيرة لصبي أو فتاة في بيت ريفي فرنسي مهجور. إنها خالية من الأثاث، لكن توجد في إحدى أركانها أصناف من الامتعة القديمة التي تقض غايات قديمة استخدمت لأجلها هذه الغرفة: سلة الأشغال اليدوية، بضعة رفوف، دمي قديمة، روايات لباول بورغسه، مشد عتيق، رسائل متنوعة إلى إحدى الأوانس، وبطاقات زيارة. على حد قول الناس، قام الإنكليز بنهب كل شيء هنا. لم يعد هنا ما يمكن اقتناؤه، حين تروم الحصول على سجاير أو خمر، عليك أن تبحث عن مقصف للقوات الألمانية. هناك يباع الخمر، الذي يحتمل أنه تم الحصول عليه مجاناً، بأسعار فاحشة.

أثناء تحركنا، بالأمس من محطة القطار، إلى هنا، مررنا في طريقنا بأربع مقابر للجند، اثنتان منها للآلمان والإنكليز من عام ١٩٤٠ ومقبرتان للفرنسيين من عام ١٩١٨ و ١٩٤٠.

نكثت هنا بانتظار إلغاء وحدتنا وتوزيعنا على الفئات التي طالبت بالتحاقنا بها: نأمل أن يتم نقلنا من هنا بالسيارات؛ لكنه سيكون جميلاً أيضاً، حين نحصل على يومي استراحة بعد رحلة مضنية بالقطار، لكنكم تعرفون بالتأكيد أن ربع كيلو القهوة المد خصيصاً للوالدة أصبح جاهزاً. بيد أنني لا أستطيع إرساله، قبل أن يتم توزيع وحدتنا، حينذاك يكون من الممكن إرسال ستة طرود صغيرة شهرياً إلى البيت، وزن كل منها ربع كيلو. لكن حلم الحصول على القهوة أصبح للأسف في خسر كان. إذ لا يوجد هنا شيء على الإطلاق، لحسن الحظ حصلت على ما عندي من القهوة في بلجيكا. أرق التحيات القلبية لكم جميعاً.

هاينريش

هاينريش بول يكتب إلى صديقه أناماري كش مونفرسدورف في ١٧ شباط ١٩٤١

عشت صباح اليوم "حياة رائعة"، بل "باذخة"؛ تهرت من الذهاب إلى العروض السينمائي، في انتظار الجنرال - هل أنا مجرم، لأنني أعبر عما عندي بلا مهابة كضايقات صف؟ - كنت على عجل ونظفت، فيما عدا ذلك قرأت رواية بوليسية "حالة دروغا". ثم حضر الجنرال الذي يوحى مظهره بوقار لحد ما، أطلع على كل شيء، ثم طرح ما شاء له من الأسئلة، ثم مضى. أتعلمين، ماذا سألتني، ماذا سألتني الجنرال أنا بالذات: "ألا تحب أن تكون جندياً يا بني؟" صمتت بشجاعة في حضرة نصف دوتية من كبار الضباط، رغم أن "نعم، صدقت" كانت تزيد أن تغلت من لساني بكل تلقائية وعبودية. تخيلي، أنني كنت أحمل على ذراعي الأيسر لحمة غاية في الصغر، أما هو فكانت ياقة معطفه الحمراء تتلألا والكثير الكثير من الذهب يرصع حلقه، لكنني صمتت... والسيد الجنرال أدرك ظهوره متحمياً... (..)

من هاينريش بول إلى زوجته أناماري فرنسا في ٢٥ تموز ١٩٤٢

(...) الآن، في عصرية هذا اليوم أجدني هنا في مخبأ لبضع سويغات، لأحل محل من سيرتادون السينما؛ آه، أنا سعيد حقاً في عصرية هذا السبت، بيد أنه سيكون مملحاً جداً، حين تزف ساعة العودة إلى مواقعنا الاحتياطية الرثة، بينما نحن الآن في مخبأ جميل على الساحل الناتق؛ والبحر السديدي الرائع، هذا العنصر العظيم، ومن خلفنا الرى الخفيفة الرائعة التي يتمايل فوقها العشب. آه، كم كان جميلاً، حين كنا نعسكر هنا في "الخط الأمامي". يا ليتنا نستطيع ذات مرة أن نعود إلى هنا، كم سيكون ذلك ساراً... .

في هذه الأثناء حاوِدت القراءة في طبعة جيب عن دار وكلام، بعد فترة لقطع طويِلة، كانت تضم بضعة قصص قصيرة، ليست بمستوى جيد جداً، كانت شهوانية بعض الشيء، لكنها كانت شيئاً مختلفاً بكثير عن أداء خنمة بليلة ومستمرة.

نحن لا نعرف هنا غير الزعيق، والصراخ وبلا استراحة ولو لدقيقة واحدة حتى التاسعة والنصف ليلاً. فانا لم أحصل بالفعل على استراحة قبل العاشرة ليلاً، مع ذلك تجددني أكتب كل يوم رسالتين على الأقل، وهذا يستشير، في كل مرة من جديد، اندعاش وحتى جل رؤسائي، بيد أنني ما أزال مستمرّاً على الكتابة اليومية، حتى لو كنت على فراش الموت وحتى لو قام كل مسؤولي قطارات الجيش الألماني بقطع أعناقهم ...

أحضرت كل مساء إلى حجرة مسؤول القطار حاملاً رسائلتي، حتى لو كانت ساعات النهار مشقة بالعمل، التدريب، النداءات، والنداءات الليلية. أكتب لك، باستمرار، رسالة واحدة على الأقل وأسعى قدر المستطاع لكتابة أخرى إلى البيت؛ وهذا يؤثر حفيفة الآخرين بطريقة مبالغ فيها، بما فيهم الملازم الثاني الذي يرى، أنه لا ينبغي كتابة الكثير من الرسائل، لأن ذلك يكشف الكثير من الاهتمامات الشخصية.

لم أجد قلداً للفصيل، إنما أصبحت ببساطة حامل بندقية ضمن قصبي القديم؛ ربما كان هذا هو سبب سعادتي. لقد التحقت في هذه الأثناء أعداد كبيرة، مؤهلة بشكل أفضل مني لقيادة الفصيل، وهكذا نحت عن هذه المسؤولية، التي أقوم بها لساعات عند غياب قائد الفصيل؛ وأنا سعيد،



هاينريش بول، ١٩٤٠.

ذلك لأنني لا أتمتع بأي كفاءات عسكرية على الإطلاق. يبدو البحر، هذا اليوم، هائجاً والرياح نهب إلى هنا، عبر مرتفعات الساحل الثاني باستمرار، وقد بلغت شدتها ست درجات. يؤسفني أنني لا أستطيع أن أرى شيئاً من إنكلترا من مكاني هذا؛ كان سيسعدني لو استطعت أن أرى مرة أخرى صحور دولر، التي شاهدها عيناك أيضاً ...

إنني أتوق إلى حياة تسم بجوع وحشي ومؤلم؛ أكاد أشعر في البكاء بفعل الشوق المذهب، بمجرد أن أفكر بحفلة موسيقية جميلة أو بحفيف أوراق شجرة في الصيف، أو بأمنية هادئة على شاطئ الراين أو باحتفال جاد في احد المعارض ...

ربما سمعت ذات مرة حديثاً عن الجنود العنيدين، الذين يتحملون كل شيء بصبر وأناة، تذكرني دائماً، أنني واحد من هؤلاء؛ لأننا نسمح بأن يمارس معنا كل هذا الزعيق وكل هذا السخف، وتكاد لا تهتز مني شعرة واحدة. إنني أتصور نصيبي في ذلك باستمرار ...

دائماً، حين يُعَف أمرؤ ما، تكون لدي رؤية ساذجة، بأنه ملقى في مكان ما في العشب وينزف جريحاً، أو ربما يكون ميتاً وقد اتحنى رأسه إلى الامام فوق بندقيته في مكان ما، وقد تعاد رسائله مليلة بملاحظة: قتل من أجل ألمانيا العظيمة.

دائماً، دائماً أفكر بأن أحداً، وقد أكون على حق آلاف المرات، قد أغلظ له القول، ولهذا أيضاً لم أجد قادراً على أن أكون قادلاً للفصيل ...

أنني متعب جداً إثر مسيرة إلى مقرنا الجديد، لم تكن بأكثر من خيبة فادحة. ربما لاني احتسيت الكثير من التبدد...

عقدت هنا صداقة مع روسي مقيم في فرنسا منذ نهاية الحرب العالمية الأولى؛ إنه يساهم في إطفاء شمع من عطشي إلى النيكوتين، إذ يهديني تبغاً، تصوري أن روسياً في فرنسا يهديني تبغاً عام ١٩٤٢ هذا يعد بالفعل أشبه بمجزء! بيد أنه حقيقة! لذا سأقدم له ضداً كل حصتي من الحيز؛ سأفعل ذلك، رغم أنني أتصور جوعاً؛ لتذكري فقط أن روسياً قد أهداني في عام ١٩٤٢ تبغاً ١١ (...)

من هاينريش بول إلى أناماري

الجهة الغربية في ٢ تشرين الثاني ١٩٤٢ / عيد الموتى

(...) اليوم شهدت يوماً جميلاً وممتعاً للغاية، رغم أنني كنت ثلاث أو أربع مرات مثيلاً وكدت أموت من شدة البرد. خرجنا هذا اليوم، في السحر، سرنا بجواد وعربة متهلن في عباب الضباب، وما زالت الظلمة تغمر الجسر الخشبي الضخم الذي يمتد فوق نهر السين والار، كان عالم شبحي على ارتفاع كبير لحد ما وعربتنا تبحر كالجنود فوق النهر متأرجحة ومن ثم وصلنا إلى عزبة، في البداية كانت إلى غرفة الجلوس، حيث كان الفلاح يتناول الفطور مع عائلته، كان شيئاً رائعاً، أن تجلس أمام المدفأة وتدخن الغليون وأنت تتفاوض حول سعر التفاح! ثم رحنا إلى مخزن ضخم جداً مملوء بالتفاح المطعم تطعيماً كلياً، بحيث كادت تسكون رائحته الزكية الحلوة، ثم قمنا بتحميل العربة بطنين من التفاح، دفعنا ثمان ماركات عن الطن الواحد، بعدها انطلقنا مبحرين وسط الضباب والبرد. كنا نرتعد برذاً، والفلاح الذي اضطررت أن أكشف له مهنتي، كان يتأدني ضاحكاً: "من الأفضل أن تدرس حياة العسكرا" كان رجلاً فاضلاً، بديناً، ذا عيون واسعة وجميلة، يشيع محياء فخراً ووسوراً وطمانينة، كان، في الواقع، ملكاً، وقد خيل لي، أن وضعي يدعو للشفقة، كجندي صغير يعاني من البرد، ويدخن تبغاً رخيصاً؛ احتسيتها أثناء الطريق قدحاً من العرق اللذيذ الباعث للدفء في أوصالنا، وهكذا واصلنا مسيرتنا على طريق زراعية ضيقة، غارقة في الضباب وشبيهة بممر خشبي صغير فوق الماء. كانت تسمع قرعقة السوط، والولد يهدير مهمهماً مدعماً مع جياده؛ أه، إنني أفكر طيلة الوقت، أن هذا اليوم هو عيد الموتى (...).

لكني محرومٌ من أي استراحة؛ أثناء ساعات الظهيرة عليّ أن أبحث عن دراجة هوائية، وهي مهنة شاقة، وأن انطلق بها بعد الغداء مباشرة للحصول على رأس من الفستق مطبخنا، أه، يا لها من رحلة! لقد ذكروا لي أن راعياً، يتسكع هنا وهناك مع عشته وقطيعه الصغير؛ عليه أن يبيعا خروفاً؛ ولم تكن نعرف على الإطلاق، إن كان يدعى "بولين" وأين هي الناحية على وجه التقريب التي يتسكع فيها مع قطيعه. أه، كانت أمطار عزيرة تنهم ونحن نتسكع على الطريق الزراعي، بين حقول وعبر غابات تكاد تحتفظ بخضرتها، نحسني الحجر في أغلب الحانات التي تمر بها، وأخيراً، أخيراً بعد الإلحاح في السؤال اهتدينا إلى كوخه. ثم سرنا نخترق الحقول والمزارع والمروج وأخيراً اقتربنا من غلام يافع أشقر، يدخن غليوناً، وتهتز شعرات لحية غير الحليقة، وما أن نقلت له طبلنا، حتى سمح آنذاك بأن نقدم له سيجارة، ثم نادى على كلابه وهمس لها بكلمات قليلة خافتة، وجرت مسرعة كالسكونة حول القطيع، لتحشره أمامنا؛ أه، كل هذه الرووس الشاحبة من الأغنام توجه أنظارها نحونا، متعبة وحزينة بشكل بليد نوعاً ما. انتظينا خسروفاً سميئاً - كان معنا جزأراً -، وهنا بدأت المفاصلة الرائعة مع الفتى الأشقر الذي كان لديه متسع كبيرٌ من الوقت وأعصابٌ كالسلك المعدني، بيد أننا كنا على عجلة من أمرنا، فكانا نلح عليه بشدة وبلا هوادة، حتى خفضنا السعر من ١٥٠٠ إلى ٩٠٠ فرنك، حقاً، لقد استغفرنا الأمر رهام ساعة. أه، لقد خر على الأرض كالشجرة المتساقطة، حين قدمنا له رزمة من الأوراق النقدية من فئة ألف مائة فرانك (...).

(...) كنت أنسى باستمرار أن أجيبك بشأن الحلف. نعم، أنا سعيد جداً في أن أقتني خفاً، إنه مريح، خاصة حين يكون عليّ أن ارتدي طيلة النهار جزءة ثقيلة، لذا فانا أوجوك، إن كان ذلك ممكناً... إنه بالفعل شعور خيالي، حين أقدر، كما هو الآن، أن أنام حتى الثامنة والنصف نسي أيام الأحد في سرير وثير وأنهض بوعي من لا يحتاج إلى أداء الخدمة طيلة النهار، أه، لكننا بالطبع هنا نعمل أيضاً حتى في أيام الأحد، بيد أن العمل ينشأ بالأساس أثناء وجودنا في المكتب، هذا ذلك ليس هناك الكثير مما يمكن القيام به، لأن الفرنسيين مولعون بالراحة خاصة في أيام الأحد؛ حين أفكر، بأن من أدوا الخدمة قبلنا لمدة سنتين هنا كانوا يتمتعون بإجازة لثلاث مرات في السنة، أجد أن حياتهم كانت أفضل من حياة الجنود، الذين حالفهم الحظ في أن يكونوا في ألمانيا!

نحن هنا في مصب نهر منسب وضحكم، ضخامة بحيرة، لكنه يخضع للمد والجزر، وتلوح في المقدمة قمم بينا ويسارا، كلا الراسين وبينهما سعة البحر التي لا تقاس، والتي نحسها فعلاً، ما أن نتطلع إلى هناك؛ في الصيف، وبكل يقين، يكتسب المكان هنا جمالاً ساحراً؛ بيد أنه يخالجنني شعور، أننا في ترحالنا الطويل الطويل، لن نمكث هنا رداً طويلاً أيضاً! أنني، الآن، منذ ٣٠ أيلول، أي منذ غادرت مصباً فاذفقت اللهب، أكاد أكون في حالة ترحال بلا انقطاع؛ رأيت الكثير من المدن الصغيرة والقرى، رأيت الرون عدة مرات، وفي الآونة الأخيرة، حين شرعنا بالمسيرة الكبيرة الشاقة، مررنا أيضاً بالرون في حوالي منتصف الليل. كانت ليلة جميلة وباردة بشكل نادر، سرنا أثناء المساء والليل بمحاذاة السين... ثم وصلنا إلى الرون، أه، لقد كنا متعبين لحدا الجنود، كنا نلوح تحت عبء حملنا الثقيل للدرجة غير معقولة، كانت الجياد التي نجر العربة الريفية الفرنسية التي صادرتها من أجل جهازنا، قد استنفدت بالفعل كل طاقتها. وهكذا مررنا بالقرب من كاتدرائية جميلة وبالحطام المحيط بها، وبدا بالفعل كأن الحرب، التي صمدت منذ سنتين هنا، قد بعثت من جديد؛ ثم أتينا بعد الرون إلى جبل شاهق ذي سلسلة طويلة بشكل جنوني؛ سلكتنا، صاعدين طريقاً جبلياً شاقاً لمسافة اثنين أو ثلاثة كيلومترات. كان علينا أن ندفع العربات، وتستمر الخيول في جرها لمسافة ٣٠ أو ٤٠ متراً، ثم نضع الأساقين تحت العجلات ونقوم بأخذ استراحة قصيرة. أه، لم أتصور، أننا سنقطع هذا الجبل، وفي ذروتها أخذنا استراحة طويلة وانتظرنا، حتى يأخذ كل دوره؛ مما راد في الطين بلة، أن السماء أخذت ترسل غيثاً مدراراً؛ قمت برفع بطانيتي ووضعتها على أحد الجياد التي كانت تجر العربة والتي وافقتنا طيلة المسيرة؛ كان شيئاً رائعاً، أن أتمد إلى جسم الحيوان البلاقي الذي يحتوي بذات البطانية، وأدخن سيجارة. أه، كانت رائحة العرق نفذة واحدة، لكنه كان يمنحني دفئاً رائعاً، وظهري محمراً من الجراب، شعرت أنني كالريشة خفيفاً وحرراً. أه، لقد مكثنا هنا رهاء الساعة، تذكرت مسيرات عام ١٩٤٠، حين تقدمنا خلف خطوط الجبهة، دون أن نخوض حرباً، وكنا نرى أحياناً حطاماً يتصاعد منه الدخان والكثير من الجياد النافقة. (...)

لكن ينبغي أني كنت في عام ١٩٤٠ شاباً يافعاً بشكل لا مثاء، فعلاً، يخيل إليّ، أنني كنت حينذاك صبياً، غضباً تماماً وقوياً وغير مثقل بالهموم؛ بيد أن الحرب صنعت منا جميعاً رجالاً طاعينين في السن، بشكل عجيب، وفي نفس الوقت أعادتنا شباباً ولكن من نمط غريب... أه، استمر الأمر خلف الرون، خلف هذا الجبل العظيم، كان يقال لنا باستمرار: "سنصل، لم يبق أمامنا سوى ٤ كيلومترات، سوى ٣ كيلومترات"؛ ثم يعاد القول: "لم يبق أمامنا سوى ٤ كيلومترات"؛ أه، أخيراً، أخيراً! وصلنا عند النجر، إلى «ماوى الفقراء». أه، قللنا بالجر وأوبنا إلى أقرب شونة، غص المكان بخمسة رجال، نمنا نوماً رائعاً، استيقظنا صباحاً ونحن على وشك الاختناق بالقيح؛ أه، ثم اغسلنا! ثم كان عليّ أن أجهول طيلة النهار في القرية باحثاً عن خيول جديدة وعربة لجرائنا، أه، أن الأمر يستحق أن نضحكي من أجله بوقتنا السمين؛ وفي المساء واصلنا السير، من دون جُرب، على الأقل بالنسبة إلى الأغلبية. لكن كان علينا بدلاً من ذلك أن ندفع العربات، في الغالب، لمدة كيلومترات؛ أه، هكذا واصلنا سيرنا على هذا المنوال طيلة ثلاثة أيام، بيد أننا، في اليوم الأخير، سافرننا بالسيارة، كانت حكاية رائعة، أن نقطع خلال ساعة واحدة بالسيارة ما كان علينا أن نقطعه على الأقدام في يوم كامل ويجهد مجهود. (...)

هنا بدأت انخيراً «حياة رخيّة» وذلك في يوم الجمعة قبل ثمانية أيام؛ في الواقع، أنا هنا منذ عشرة أيام؛ كم مضى هذا الوقت بسرعة جنونية!

ما جعل حياتي لا تطاق بشكل لا يصدق، هو الليلع الذي في حجرتنا هنا، يستمر من الصباح حتى المساء، إن ما يرويه طيلة النهار من هراء يفوق كل وصف، يكاد يصعب وصفه، حقاً، إني أشاهد إن لم يكن هذا نوعاً من الجحيم على الأرض. يستمر هذا الشيء، بكل معنى الكلمة، من الساعة التاسعة صباحاً حتى الحادية عشرة ليلاً وبلا انقطاع. هراء وهذيان مستمر، آه، هذا الهراء الذي يفوق كل وصف، من دون تقديم فكرة معقولة! حين تكون رسائلي سيئة بشكل بالغ وبيّدة، فضديني، أن السبب كامن في هذا الصندوق البائس. آه، إنه من النادر جداً، حقاً، أن تسمع ذات مرة موسيقى إنسانية، وحينذاك عليّ أن أكفح كفاح الأسود، كي يسمح لي بسماعها؛ قد يمكنني أن أكتب عن فلسفة اللذيع، حقاً، وهي في ذات الوقت فلسفة الإنسان المعاصر - إنه شيء مفرح، فهذه تكتب حقيقة! بيد أنه لا يوجد هنا مكان دافئ آخر سواء لكنني لا أريد أن أتأذى، لأن ذلك سيكون طيشاً! في الغالب لا أسمع شيئاً وحين يسود الهدوء، بالفعل، لبضع دقائق أو يحل الصمت، وهاء نصف الساعة، يخيل إليّ حينذاك أنني في الجنة. هذه الأصوات النسائية - الرجالية المبتذلة، وهراء اللبّيعين المعسول، وهذه الاقتراءات المراتية وعصابة الأوغادا أصبح من الصعب بمكان، بالنظر إلى أشياء كهذه، الاعتقاد بالثاني. (...)

جلست في النافذة طيلة المعصرة؛ آه، يخرج الفرنسيون عن بكرة أبيهم للزهوة مصطحبين نساءهم الحسنات المائعات، والأطفال ضاحكين ... وأنا أقبع هنا مرتدياً جاكيتاً رمادياً، لا يسمح لي أن أشارك في الحياة؛ الطقس في الخارج كالحرير، وضوء الشمس باهر ودافئ ومعتدل في - كانون الأول! -، والخليج يمتد بشكل رائع، وعلي الجانب الآخر تلوح البلدات الصغيرة الملتنة. (...)

أخذت مقتي للحرب ولحياة الجنود تنامي باستمرار وبشكل فظيع! كان يثرثر عبر اللذيع من مكان ما مديع محقوت بشكل نادر، أن كلباً نافهاً كهذا ينبغي أن يصغ ويكمل جزءاً لما قاله. ليحفظ الله قلبي في يده، كي لا أضعف في هذا الزمن الرديء بشكل يجعل عن الوصف. وليحفظ الله ليّ قواي العقلية، كي أستطيع أن أقول كلمتي، التي هي ليس سوى صدى لصوت الله فينا، إن كان لنا أن نخرج من الحرب سالين. ليأخذ الله بيدي؛ آه، أن جل ما أتمناه هو أن أعمل في هذا الشتاء، أن أقوم بفعل إنساني حقاً، واكده فعلاً. ربما يسمح الله بذلك، وهذا ما أمله بحرارة! ليكن الله في عوننا، لتجاوز زمن الامتحان الصعب إلى الزمن الآخر، حيث نستطيع أن نحرك أجنتنا في فضاء الحرية! آه، حتى إن كان الزمن الآتي ليست أكثر إيلاماً ومعاناة، فإنا سوف نلتقي، كذلك مع كل أولئك الآخرين، الذين هم في ههنا. (...)

ستذهي زهور مسراتنا، وغيم كأبتنا، التي تأتي من الرب، ستكون دافئة، لكنها ستكون حياة مختلفة من تلك الطريقة الشاقة من الموت، التي علينا أن نحياها في هذه اللحظة. (...)

جعلت طباحتنا تحضر ليّ فارورة من التبيد الأحمر، لأنه يصعب عليّ مغادرة مكاني هنا؛ عليّ أن أمكث هنا باستمرار إلى جانب التلفون، وقد يحدث على الدوام شيء ما، لكن حالما يأتي رفيقي، سأقوم بتفقد مدفاة حمامنا القديم، واشغلها ثم أستمح بشكل رائع وربما أقوم بتزهوة على رصيف المياه؛ علينا باستمرار أن نأخذ بنادق معنا، إن نحن خرجنا، ولا يهم إلى أين نحن ذاهبون، وهذا يعد، بالطبع، من مسراتنا، لأن حمل آلة ورنها ست كيلو غرامات على كتفك باستمرار وحزام من المخراطيش ثقيل، لا يبعث على الفرح أصلاً، لكنني لا أريد أن أدع أمراً كهذا يدعني. (...)

إن تعمل، تبذل، تستعمر بتوهج إنساني حقاً شيء يبعث على الحياة فعلاً!

من هاينريش بول إلى أناماري ٢٩ آب ١٩٤٣ / الساعة الخامسة صباحاً

أعد لتوي من جولتي الأولى، التي بدأتها نائماً والتي استيقظت خلالها، عندما قمت أنا بالذات بإطلاق هاتف عال: "كولونيا"، حين سألتني الصوت القادم من موقع الحراسة في العاصفة عن كلمة السر؛ تناقلت

في مشيتي ومرمرت بين الكتيبان الرمالية ورأيت، كيف ينبت تحت قلبي الرمل الأبيض الجاف من تحت الرمل اللين لامعاً متوهجاً لدرجة، أنه يضيء طريقي كأنه أثر ملتبس. ثم أغيب في للخباء الغتم والباعث على الكآبة، الذي يجثم ككايوس على رتي وقلبي ودماغي، بعد ما شهدت صفاء الطبيعة الطارح الجليل. ومن ثم يتكرر نفس الشيء: ما أن تلامس الزر الكهربائي، حتى ترى صفاً من أسرة متلاصقة، كل سريرين إلى جانب بعضهما البعض وفوقهما سريران آخرون، وبينهما مرصيق، وفيه أمتعة محزومة، كذلك يبدو الناسون في بزاتهم العسكرية، بلا علامة مميزة، كحزم رمادية باسقة، وقد انشغوا ببطانياتهم الداكنة. وكان عليّ أن أعيد باستمرار ملابس هذه الحزم وإيقاظها هزاً، بعضها يتدحرج ويستدير، حتى يستيقظ أخيراً - غالباً ما يكون ذلك بعد معركة كلامية -، ويدرك أن عليه أن ينهض. أمتقدين، أنه يمكن كتابة مادة في علم النفس، تقتصر بالأساس على مراقبة سلوك وتصرفات الإنسان عند استيقاظه من النوم واللحظات القليلة التالية. إنهم، في الحقيقة، جنود أطفال، يتدرون، بكل بساطة، بالبطانيات ولا يقرون بالواقع، إنما يفرقون مجدداً في الحلم، في هذا النوم اللذيذ الرائع للسعادة ويفرغون من الواقع ببساطة باعتباره حلماً. غالباً ما يوظفهم للمرة الخامسة أو السادسة بلا انقطاع، وهم يهيمون دائماً باحتياجات مبهمه، برقة وبيرة حزينة، لكنه ليس من السؤلية أن تدعهم يستغرقون في النوم، وهذا أمر يعرفه كل من يقوم بدور الحراسة في الخارج، متعباً وياثماً، بحسب الدقائق برقية جامعة فعلاً. ثم ينهض هؤلاء الجنود الأطفال بعد كفاح شديد ويرتدون ملابسهم في استسلام ووجل، يمكن فيه ألم العالم برمت. ثم هناك الجنود القداماء، المغلاء والحصفاء، الذين يقولون: "نعم"، حالماً لمسهم، ثم يتناولون سجايرهم أو غلاينهم، كي يأخذوا بضعة أنفاس في دعة وسلام تحت الغطاء الدافئ، ثم ينهضون ويحلون محل الآخرين في الدقيقة المحددة بالضبط. كذلك هؤلاء لا تخلو مسحتهم من الحزن، بيد أن استسلامهم خال من الحساسية، فهو لم يعد مرهوناً باللحظة إياها، إنما بهول الحرب عامة، إنهم يسمون، في الحقيقة، فوق ذلك. وهناك الأخيلاء، أغبياء ياكسون، يعلون، باستمرار، من يوظفهم مذنباً فعلياً عن كل ما يحصل، بينما يؤدي السعداء عند منتصف الليل حراسة طواعية، يغط هؤلاء في النوم، ويسدلون بمركبة كلامية طويلة وبلا انتهاء، لأنهم يظنون أنهم قد أوقفوا بشكل مبكر. وهناك أنماط قليلة جداً من الجنود، من ينهضون حالاً وهم يتدنون «أغنية سهلة» ولا يحسون أبداً بشيء من الألم المض والحزن العظيم في هذه الحرب. هل لك أن تتصورين، أنني لا أحتاج لأكثر من أن أسئل إلى المخبأ في منتصف الليل وأنظر إلى الحزم الكثيرة الداكنة فوق الأسرة الرمادية، لأعرف، ماذا تعني الحرب. كما أن هناك مشرمتين مذهلين، ينهضون بوجوه كاحية مقلبة، يمكن تصورها متوهجة وملتهبة في ضوء شعلة الثورة. وهناك الجياع، الذين تراهم على الفور يمشون بسكاكينهم في القطع الخشبية من خبز الجيش، متعبون وحزاني، وهناك للتكاليلون - هناك المجرمون، الذي ينهضون، لكن، حالماً تذهب، يستلقون مرة أخرى ويستغرقون في النوم، رغم أنهم يعرفون أن رفاقهم المساكين يحرسون في الخارج وينتظرونهم، لكنهم يكذبون في يوم آخر بوقاحة، في أنه لم يتم إيقاظهم - وهناك من هم يائسون تماماً، يلبسون جزمهم بحزن قاطع، فعلاً، ويسرون إلى موقع الحراسة بوجوه متجهمة، لا تستطيع أن تتحدث معهم، حين تريد أن تشد من أزرهم، لأنهم يشخصون وكان على رؤوسهم الطير في حالة من مسخط يائس. أنا أعتقد، أنني يمكن أن أرى وأسمع وأشهد الكثير، لو كانت عينا مفتحة ولم أكن متعباً، متعباً، متعباً باستمرار.

وددت أن أروي لك الكثير، حين بدأت بهذا الموضوع، تصورت الكثير من النماذج المتنوعة، التي شخصتها بوضوح، لكنهم تبخروا وغرقوا في دوامة التعب الرمادية ذاتها، التي غميت الدماغ وتسم القلب. أمتقدين، أنني أكون أحياناً متعباً لدرجة، بحيث أشعر كأنني مبارك حين أستطيع، في العراء، أثناء الإعصار أن أسلقي في الرمل البارد وأنام، أنام - آه، لو أنام.

في هذه الأثناء حل صباح يوم الأحد. توقف الحراس عن الحراسة في الوقت المحدد لها بالضبط وأثرا بقتالهم اليدوية وذخيرة التنبيه إلى حجرتنا؛ سمح لهم أن يناموا لمدة ساعة ونصف الساعة، قبل أن تبدأ الخدمة! إنه يوم الأحد لا يعني ألا أن أكل، في أن يسمح لي بالخليل معك بهدوء ودعة فعلاً. أنني لا أستطيع أكثر من أن أكل ذلك.

(...)

(...) هذا يوم يسوده الهدوء لحد ما وما زال واقعاً بما فيه الكفاية، لكن حين يتقضي النهار، سأعرف ما الذي أتى به، ولا يمكنني قبل ذلك التكهّن بما هو غير متوقع. لقد تورطنا في قتال سريع، لكن الواقع يثبت، أن المشاة الروس لا يرجي منهم شيئ. فهم لم يقضوا مضاجعنا. هذا المساء - يحل الظلام في الساعة الثالثة - أخذنا نزحاً إلى الأمام في موقع متقدم، كان يشكل خطراً كبيراً في النهار. يُشرع هنا بقتل جنوني صباحاً وظهراً ومساءً. ليس هناك ما هو أكثر جنوناً وأكثر اجتراماً من الحرب. لا أريد أن أتأبكي، فأنا ما زلت سليماً وسابقي كذلك بالتأكيد. نحن هنا في تخوم حقل عباد شمس مترامي الأطراف، لم يعد فيه شيء سوى سيقان خريفية جرداء وقد حولته مدفعية الطرفون وجنازير الدبابات إلى أعاديد بكل معنى الكلمة، بحيث أصبحت الأرض خشنة، وصلبة وحالكة السواد. كنا نبدل جهداً، كي نحفر فيها حفراً لنا. فالأرض، الأرض هي عنصر المشاة. أنا أمل، في أن أستطيع أن أكتب لك أكثر من هذا، قريباً وكذلك للآخرين، إن خرجنا من هنا ليوم واحد. قد يستغرق الأمر هنا بعضاً من الوقت. اليوم أشرقت الشمس بشكل رائع، بحيث استطعنا أن نغف بطائياتنا القدرة المبتلة وملابسنا، كي لا تكون في الليل باردة جداً. (...)

من هاينريش بول إلى أناماري

سببستغورفي في ١٠ حزيران ١٩٤٤

(...) لأن لدي، الآن، شيئاً من الـ «بنفو»، العملة الهنغارية، فاني أستطيع أن أتحرك بشكل غير مقيد لحد ما مع المشور بالخرقة والسعادة، وأنا أبحث عن الحياة. إنه شيء غريب ومبهم، أن تؤثر الفلوس العارية واللامعة على الإحساس بالحياة هكذا. للأسف أنا لست قادراً على أن أحمل نفسي على ما لا تود، وهذا يعني ضمناً، أن أكون مستقلاً عن الآخرين. (...) الذكريات المفزعة عن تلك الأيام بالقرب من مدينة ياسي خفت وزال ما فيها من رعب مباشر، ولم تعد تثقل عليّ بشدة؛ أه، لم تحض سوى عشرة أيام، منذ إصابتي بجرح، مع ذلك، خيل إليّ أنها مدة طويلة جداً، منذ كنت هناك. إن هذه الوحشية البالغة للحرب قاسية لدرجة، بحيث أنني لا أستطيع أن أنسى أي ثانية من تلك الأيام وإنني لا أريد كذلك أن أساهل. لكنني أود، أن لا تعرضوا لهذا العنف الساحق والمروع والذي هو ثقيل ومظلم كالكايبوس. أتعرفون، أن كل هذه الذكريات عزيزة عليّ جداً جداً، بما فيها ذكريات الحرب، لكنني أريد أن أكون ذا سلطان عليها، وليس هي من لها سلطانٌ عليّ. ... أه، أنا أرغب أن أتحدث معك عن جميع الأسلحة الحديثة وعن «عبث» مماثل رزى يوحنا عن نهاية العالم، هذا العبث الذي كثيراً ما أدى إلى التضحية بحياة البشر. ليس هناك ما هو عبث، لأن كل شيء وأي شيء مفقود من الله، لكن من وجهة نظر بشرية وعسكرية هناك الكثير من العبث. أنا أعرف، الآن، أن الحرب إجرام، إجرام مطلق، بل هو الإجرام الأكثر فساداً! تكمن فيه كل أنواع الإجرام الأخرى، بأجمعها، بأجمعها ...

ستقرر الجبهة الغربية مصير هذه الحرب، وأنا أمل أن تحسم عاجلاً. ما زال غرب أوروبا يعد أساماً بشكل مؤقت لدرجة، أنها ستؤدي إلى قرار الحسم. الله وحده يعلم، كيف سيكون المستقبل. أنا مشغول من الحرب، فهي أصبحت شيئاً فشيئاً بلبلة جنونية، لم يعد هناك إيمان ولا مسرة ولا حماسة وفي معاناة مشاتنا قد بلغ السيل الزبى. الضباط أصبحوا عديمي النفع والجنود يتوقون باستمرار إلى تعرضهم لإصابات جديدة، تحرقهم من الجحيم. لكنني أكره أيضاً جحيم المستشفيات العسكرية، وأكره جحيم البلدة العسكرية، البلدة العسكرية بالذات ...

ترجمة: علي أحمد محمود

المصدر: Heinrich Böll, "Briefe aus dem Krieg", © Verlag Kiepenheuer u. Witsch Köln 2002

Qantara.de

الحمد لله الذي

قنطرة

حولار مع العا

موقع إلكتروني يمد
جسراً إلى العالم الإسلامي



German Version: <http://www.qantara.de/de>

ما هو دور الأدب المترجم في التقارب
بين الحضارات؟ هل تتركب جزء من أوروبا؟
ما هي مخاوف الألبان والعرب من العولمة؟
هذه هي بعض الأسئلة التي يتناولها موقع غنطرة.



Arabic Version: <http://www.qantara.de/ar>

خطر حبال اللغة الألمانية والعربية والإنكليزية قضايًا
سياسية وثقافية واجتماعية ودينية تهم ألمانيا
والعالم الإسلامي على حد سواء. نقدم مبادرات
وشخصيات ومشاريع تسعى إلى التفاهم بين
الشرق والغرب ولا نرد عن فتح باب الجدل
حول مواضيع شائكة.



English Version: <http://www.gantara.de>

عنوان أسيرة التحرير:

Redaktion Qantara.de
c/o Deutsche Welle Online
Raderberggürtel 50
50968 Köln
Germany
E-Mail: kontakt@qantara.de



ويعمل على موقع قنطرة المركز الاتحادي للتعليم السياسي
درعيتة. أقاله. وسعيد توتة. إلتز تاتشيرين وسعيد الحلاقان. إلتز توتة.

تأملات ذاتية

ميكانيزمات للدفاع عن النفس

وكانهم يبحثون عن ضحايا. يقتربون مني وعلى الفور أشعر بالتهديد. يشتتون النظرة علي. أشعر وكأنهم على وشك مهاجمتي ثم يكملون سيرهم داخل العربة وتقع نظرتي على الركاب الآخرين. يبدو عليهم التبرم والحقن وقد تقلصت وجوههم سحرة عن قبح غريب. الكلمات التي أطلقوها أزعجها جيلاً، حتى الرجل المحجور صحا من غفوته وهمهم بشيء ما من قبيل الشقن والقنن رعباً بالرصااص. الآن لم يعد خوفي من الغرباء، بل من أهل بلدي.

وقال آخر: "فشلت الرحلة المدرسية التي كان علي ابنتي أن تشارك فيها" لأن فصلها ثلاث فتيات تركيات رفض أولياء أمورهن مشاركتهن في الرحلة لأن المخاطرة كبيرة. وهذا مؤشر يوضح أن هناك أماكن عامة تشكل حدوداً فاصلة، أي أنه لا يمكن ارتيادها بدون وجود بضاخر. هذا ليس جديداً فقبل سنوات عديدة قام متتا شخص بالسيطرة على حي برلين - كرويتسبيرغ وقد سمي هؤلاء الأشخاص أنفسهم: «فوضيون». وكلمة «فوضوي» تعني في هذا السياق أننا لا نعرف بوجود مجتمع إنساني. وكانت فبنتهم هي إسكات باقي سكان المنطقة وقد استطاعوا الوصول لهذه الغاية في الماضي. وصارت هناك مساحة لا سيادة للقاتون عليها، تسود فيها الرقابة والخوف والابتزاز. انسحبت المؤسسات، وتدرجياً تقلص وتراجع كل ما تبقى من العالم المدني.

مثل هذه الأجواء موجودة أيضاً في شرق أوروبا وفي ألمانيا الديمقراطية سابقاً. ولا يخلو الأمر من سخرية عندما تتحول هذه المنطقة السابقة على هذا النحو من جديد إلى منطقة يحكمها الفوضيون. في بعض أجزاء من المدينة يسود قانون الغلبة للأقوى. والشرطة، التي تشعر بالقهر، لا تجرؤ على الدخول إلى هناك وتصيب بذلك من ضمن المشاوطن الصامتين. يمكن هنا الحديث عن مناطق محررة، حيث تمكن الجناة من تحرير أنفسهم من الحاضرة وإثقالها.

في ظل هذه الظروف تحدث حجرة مزدوجة: هجرة عصابات الفتوات مرتدين الزي العيني المتطرف، وهروب من هم في خطر. يتسني أول ما يتسني الأجانب إلى الآخرين ومن يفكرون بشكل مغاير، وفي النهاية كل هؤلاء اللذين لا يريدون الخضوع للإرهاب. ويتبدى الأمل في انهيار تلك المنطقة والعامل الأساسي في عمليات الانهيار تلك يكمن في

البدابة غير دعوية، والمؤشرات غير ضارة. تبدأ الحرب الأهلية للجزيئات بصورة غير ملحوظة ودون تهيئة عامة. تدريجياً تزداد كميات القمامة على جانب الطريق. وفي الحديقة تتكوم الحقن وزجاجات البيرة. تنتشر رسوم الغرافيتي الرتيبة في كل مكان على الجدران. ولا تحمل سوى رسالة وحيدة عن الانطوائية والعزلة، إنها تستحضر «أنا» لم تعد موجودة بعد. يتحطم أثاث القصور المدرسية وتفوح في المناطق الصغيرة أمام البيوت رائحة البراز والبول. إنه إعلان حرب صامت وضئيل يستطيع ذوو الخبرة من سكان المدن أن يقدموا له تفسيراً. وفي الحال يتبدى الحنين إلى الغيتو وعرب من ذاته من خلال إشارات واضحة. تُمزق إطارات السيارات، تُقطع أسلاك هواتف الإضاءة، وتُحرق السيارات. تعدد هذه التصرفات التلقائية تعبيراً عن الغضب على أي شيء غير معطوب، كراهية أي شيء يعمل، وهذه الكراهية تخرج مع كراهية الذات لتشكل وحدة لا تنقسم. إن الشباب هم طليعة هذه الحرب الأهلية. ولا يرجع ذلك فقط إلى تكديس الطاقات الجسمانية والعاطفية المصاحبة بصورة طبيعية لفترة المراهقة، بل وأيضاً إلى هذا الموروث غير المفهوم والذي يجدونه في مشكلات الغنى الموحش التي لا حل لها. لكن كل ما يقومون بإعدامه موجود لدى آبائهم: إنه غيبس التدمير الذي يتم التعبير عنه إن لزم الأمر في صيغ يتقبلها المجتمع، كالولع بالسيارات، والهوس بالعمل، أو النهم، أو إدمان الكحول، أو الطمع، أو الرغبة الدائمة في التقاضي أوالعنصرية أوالعنف العائلي.

ووسط هذا المزيج العنيف يصعب تحليل المصدر الذي يأتي منه الخطر. يتهاوى الإدراك كما في حالات خلخاع البصر من لحظة إلى أخرى. يحكي أحد اللذين لا يقودون السيارات: "عندما أصعد الترام السريع في آخر المساء يحدث التالي: تكون العربة محملة بعدد قليل من الركاب وتكون إضاءتها سيئة. يتم رجل عجوز في ركنه. يتحدث بعض السكاري عند النهاية الأخرى للعربة. يجلس بجواري موظفان قاما بعمل ساعات إضافية. يتوقف القطار ويصعد أربعة شبان في العشرين. السترات الجلدية المعتادة والأحذية المعروفة. يتحدثون بصوت عال نسبياً ويلغة لا أعرفها، ربما العربية. يبدو على هيبتهم التحدي والاستفزاز. يتحركون داخل العربة

انهيار عملية التصنيع كما هو الحال في الولايات المتحدة، تنفك العلاقات الحياتية المتداة، تنشأ مناطق محمية لديها حراسها الخاصون بها في ناحية وعشش من الصفيح وغيتوهات على الناحية الأخرى. في تلك الأحياء التي تخلت عنها السلطات لم يعد للمصالح ولا للشرطة ولا للمحاكم أي سلطة. تصبح هذه المساكن غير قابلة للرقابة. تعد المناطق الحدودية بقواعدها المحددة وباضطراباتها حالة خاصة. غيرت نشاطات تهريب البضائع والجرائم معايير التعامل هناك بشكل جوهري. ويسمى في ذلك أيضاً هؤلاء المهاجرون غير الشرعيين والذين لديهم تكوين اجتماعي مختلف ولا يظهرون تهماً لأشكال الاتصال المتداة. لكن حتى سكان المنطقة يفقدون بسرعة معايير الحضارة. تحمل محلها القوانين البدائية للعنف. مثلما يهجر شخص كصدام حسين القانون الدولي، يتم هنا إلغاء كل القوانين والالتزامات المكتوبة وغير المكتوبة. ويحتل لا يُسمع إلا صوت المسلس. وتبقى للمتضررين المرعزين للخطر استراتيجيتان باقتان: الهرب أو الدفاع عن النفس. تتمكن الأقلية المتميزة من العثور على طرقها الخاصة للهروب، تهرب إلى أي من «جنان الإجازات» أو تحتسبي بالسكن الثاني أو المنزل للمخصص للشيفوخة، أو تؤسس جمعيات أهلية أو مراكز طائفية في مناطق بعيدة. أما هرب ملايين الموزين فيتخذ صورة اللجوء والهجرة البائسة.

من لا يهرب يحصن نفسه. وعلى المستوى الدولي توضع الحدود المانعة في كل مكان للحماية من البرابرة الهمج. لكن حتى داخل المدن الكبرى توجد أرعبيلات الأمان التي يجب الدود عنها. في المدن الأمريكية والأفريقية والأسيرية الكبرى هناك خنادق السعادة التي تحيطها أسوار عالية محصنة بالسلك الشافك. أحياناً هناك أحياء كاملة لا يمكن دخولها إلا ببطاقات شخصية مخصصة وتراقب مدخلها كاميرات إلكترونية وكلاب مدربة بشراسة. ويؤمن المنطقة قناصة يحملون بنادق آلية ويقفون في أبراج المراقبة. أوجه المقارنة مع معسكرات التعذيب ملحوظة، الفارق هنا أن سكان هذه الأحياء يرون في العالم الخارجي المنطقة التي يتوجب القضاء عليها. يدفع المنعمون ثمن الرقابة التي تؤدي لعزلهم الكامل. إنهم سجناء لأنهم الخاص.

وتنتهي دورة التسليح إلى ديناميكية الحرب. في المنطقة التي لا تقارن فيها الدولة احتكار السلطة، لا بد لكل شخص أن يدافع عن نفسه. حتى هوبز الذي منع الدولة كمالاً يكاد يكون لا محدوداً في ممارسة سلطتها، أشار إلى هذه النقطة قائلاً: "تدوم التزائم الرعية أمام صاحب السيادة فقط طالما أنه قادر على حمايتهم، لأن الحق الطبيعي للإنسان في أن يدافع عن نفسه حينما لا يكون هناك من باستطاعته أن يلدو عنه، لا يمكن إزالته أبداً من خلال أي عقد اجماعي."*

وأسياب تراجع الدولة متنوعة. وفي مقدمة هذه الأسباب الجين والحسابات التنكسية، كما هو الحال في جمهورية فايمار وكما هو الحال في ألمانيا الموحدة. عندما تطور الحرب الجزئية لن تكون للشرطة ولن يكون للقضاء أية سلطة. وكلما قبضت الشرطة على متهمين كلما تحولت السجون المعتاة إلى معسكرات تدريب للمقاتلين. في حالات أخرى كما في الاتحاد السوفيتي، فقدت سلطة الدولة أسامس شرعيتها. وخطة أخرى في هذا الاتجاه ويصبح الأمر كما في يوغسلافيا حيث يقوم النظام الحاكم نفسه بدعم تشكيل العصابات.

من يمتلك الوسائل الضرورية سيبحث في مرحلة مبكرة عن مرتزقة يحلون محل الشرطة. وأبرز دليل على ذلك هو ما يسمى بقطاع الأمن الخاص. أصبح امتلاك حراس شخصي يعد تعبيراً عن المكانة الاجتماعية. يشتد الحراس المحصونون من وظائفهم الحكومية ويعهد إليهم حماية البنية التحتية. وفي المساكن التي لا يكون للسكان فيها القدرة على تأجير حراس خصوصيين، يقومون بأنفسهم بتكوين مجموعات حراسة من بينهم. ومن كانت لديه القدرة المالية، سيمتلك أجلاً أو صاحباً سلاحاً نارياً. الولايات المتحدة تعد قوة في هذا المجال، حيث تعتبر الملكية الشخصية للسلاح جزءاً من الإيديولوجية الوطنية.

الحروب الأهلية، بدءاً من تلك الجزئية إلى الحرب الأهلية على نطاق واسع، مألوفة. بينما يتناقص عدد غير المشاركين لأنهم يموتون أو يهرون أو ينضمون إلى أحد الفصائل المتحاربة، يصبح المشاركون تدريجياً شديدي الشبه ببعضهم البعض. يتشابه سلوكهم وكذلك دستورهم الأخلاقي. في مناطق الحروب بالمدن تصصرف الشرطة وفرق الجيش وكأنها عصابة بين العصابات الأخرى. تمارس فرق مكافحة الإرهاب عقوبات الموت الوقائي، وتقدم دوريات الموت لمكافحة مدمني المخدرات والمجرمين الصغار الذين يحسون صورة العدو المتفرض. وفي مقابل حالة البروليتاريا هناك حالة البرجوازية التي تقلد عدوها في اختيار وسائلها. كذلك الأمر، عند حرق مساحات شاسعة من الأراضي في الحروب، تصبح التفرقة بين الهجوم والدفاع غير ممكنة. يشبه ذلك ميكائيزم النار، حيث يتزايد دائماً تورط أساس في خصم الحرف والكرهية حتى نصل إلى حالة فقدان التام للتواصل الاجتماعي.

"لا تعرف ما الذي جرى لنا"، هذه هي أكثر جملة التي يرددها الناجون من حروب سرايففو. وحين تعجز كل الإيضاحات، يعد فحص الذات ربما إحدى الإمكانيات الضئيلة لسبر غور الحقيقة. وقد قام كاتب أمريكي بخوض هذه التجربة. في تحقيقه الصحفي بعنوان: "بين المجرمين Among the Thugs" يصف بيل بفورد Bill Buford كيف أنه أصبح ضمن جماعة المتمردين. يتناول تقريره المرحلة الكامنة للحرب الأهلية. كان ملعب كرة القدم هو

الأخر من هذه العتبة كان هناك معنى لحدود ما هو مسموح به، إتفاق طبيعي، حتى وسط هذه التلة، على حدود ما يستطيعون فعله. لكننا عندئذ كنا في مكان ما، لم تعد فيه حدود كثيرة، حيث لم يعد هناك وجود للأشياء التي لا يمكننا القيام بها. . .

كان الهياج الذي يقف على عتبة شيء أكبر، على عتبة شعور يتسم بالتسامي. - على الأقل شعور بالسعادة، أو بالأحرى شيء من النشوة. طاقة تخترق النفس وتغلوها بشعور أنك قد حصلت شيئاً من المستحيل. بجاني قال أحدهم إنه سعيد، سعيد جداً. ولا يذكر أنه قد كان سعيداً لهذه الدرجة من قبل."

ولد هانس ماغنوس انتنسبيرغر عام ١٩٢٩، ويعد من أبرز الشعراء الألمان المعاصرين؛ واشتهر أيضاً بكتاباتهِ المتنوعة.

ترجمة: أحمد فاروق

المصدر: Hans Magnus Enzensberger: "Aussichten auf den Bürgerkrieg". Kap. 6. Suhrkamp Taschenbuch 2524, © Suhrkamp Verlag 1993

مسرح الأحداث: "رغم أنه لم يكن بإمكانني إدعاء أنني على علاقة بهم، لاحظت مع ذلك أنني قد بدأت أصعب بما يفعلونه. . . واليوم، بعد تفكير أكثر حول الموضوع، يبدو لي أن هناك شيئاً كبيراً بين ذلك وبين التعود على الكحول أو التبغ. في البدء يأتى اللزء، ثم يبعث الجهد يجد المرء منته، ثم مع الوقت يصبح إدماًناً. وفي النهاية يصبح فيها شيئاً من التدمير الذاتي."

في المشهد التالي يصل قبول العنف إلى ذروته: "كانوا ستة وبدأوا جميعاً يدهسون الصبي الذي كان راقداً على الأرض. غطى الصبي وجهه بيديه. وما أدهشني هو أنه كان باستطاعتي التمييز بين وقع الحذاء الذي أخطأ هدفه أو الذي أصاب الإصبع ولم يصب الجبهة أو الأنف. كنت كالمشلول.

وعندما أذكر الآن في هذه الواقعة أتخيل أنني كنت على وشك وضع نهاية لها. . . لكنني لم أفعل. أعتقد أنني لم أفكر في ذلك قط. كان الأمر وكان الوقت قد تباهطاً بصورة درامية، وأصبحت بداية ونهاية كل ثانية ملحوظة مثل تتابع الصور على بكرة فيلم. وكنت منوماً مغناطيسياً بفعل كل صورة من الصور. . . من خلال هذا التصادم الأولي تغطيت العتبة الأولى وهي خط وهمي فاصل. على الجانب

**funkhaus
europa**
103.3

Bremen 96.7
Bremerhaven 92.1

الموسيقى العربية الجديدة في فونك هاوس أوروبا
إلى الأذنين مساحة 22.40 ساعة 22.90
معلومات حول برمجتنا تحت رقم 9678 551
www.funkhaus.europa.de
يتم تمويله من البصيرة الثقافية للإذاعة

103.3
موسيقى
عالم

قصف مدينة فوبرتال

فصل من كتاب «الحريق»

أثار كتاب «الحريق» للمؤرخ والصحافي الألماني بورغ فريدرش ضجة عالية وتقاشات حادة في ألمانيا وإنجلترا في نهاية العام الماضي؛ فهو يصور في كتابه نظرة الضحايا المدنيين الألمان لقصف المدن الألمانية في الحرب العالمية الثانية. فريدرش يتسائل في كتابه فيما إذا كان قصف المدن الألمانية ضرورياً لإنهاء الحرب.

أن هذه المدينة «ملجأ منطقة الرور من الغارات الجوية». إضافة إلى أنها مدينة مشهورة بالبورع الديني. ضلت المجموعة الرئيسية من قاذفات القنابل طريقها، إما بسبب الريح أو نيران المدفعية المضادة للطيران أو خطأ ملاحي أدى بها إلى التسويع إلى الجنوب الشرقي، وطارت خطأ فوق فوبرتال عبر ريشايد.

لقد عثرت مجموعة طائرات الإرشاد رقم ١٠٩، من نقطة التجمع المسماة راينه، على فوبرتال في البدء من ناحية الشمال. لقد حددت الطائرات من على بعد ست دقائق

موقع مدينة بارمن أحد طرقي مدينة فوبرتال باستخدام قنابل ذات إضاءة حمراء. من على ارتفاع ١٠٠٠ متر من الهدف هبطت القنابل متفرقة وأطلق كل منها ٦٠ شحنة إضاءة هبطت كلها كثيفة على الأرض توهجت كل شحنة من هذه الشموع لمدة عشر دقائق، بعد ذلك جاءت طائرات أخرى وحددت

مدينة بارمن باللون الأخضر. بعد ذلك مباشرة جاءت خمس وخمسون من قاذفات الحمم النارية وألقت بموادها الحارقة ليدخل لونها في المزيج اللوني الكثيف وبذلك رالت العتمة. تم تحليد الإشارات بدقة على جانبي المدينة. وردت التعليمات لترسامة قاذفات القنابل الأساسية بأن تصوب على المنطقة المحددة بالأحمر، طالما أمكن رؤيتها، وفيما عدا ذلك تصوب على الأخضر. دوى هدير قاذفات

لا تبدو مدينة مثل فوبرتال واضحة كهدف لقاذفة قنابل ذات محركات أربع من طراز «لانكستر» تطير على ارتفاع ستة آلاف متر. أعظم السكان المدينة وخسرت غلالة من البخار من قاع الوادي. عبر الطيار المنطقة الواسعة الممتدة خلال دقيقة، لا تهتمه ضواحي المدينة. تحتاج المنطقة التي يستهدفها للتوقف عشر ثوانٍ من أجل إطلاق قذيفته. لولا طائرة الإرشاد التي تطير على انخفاض كيلو مترين تحته، لم يكن ليعرف بالتحديد متى تأتي هذه البقعة، ربما في أي وقت بعد مرور ساعتين على الإقلاع من الساحل الإنكليزي الجنوبي. إضافة إلى ذلك لا يمكن إلقاء قنبلة عندما تعبر قاذفة القنابل متقاطعة مع هدفها، حيث أن القنبلة حيثل لا تشكل مع الهدف زاوية قائمة بل قطعاً مكافئاً، ويؤثر فيها كل من الجاذبية وقصور الجسم بصورة مضادة وعندما تنفجر مصيبة هدفها، تكون الطائرة قد تحركت ثلاثة كيلومترات بعيداً عن الهدف.

وصلت مجموعات طائرات الإرشاد السريعة المسماة «موسكيتو» والتي تتمكن طائرات القصص الألمانية من إصابتها، متأخرة دقيقتين. رصدتها مواقع المراقبة قبل ذلك بخمس وأربعين دقيقة عند مصب نهر الشيلده وتابعت حركتها فوق ماستريخت ثم مونشغالدياخ وعندما عبرت الراين باتجاه الشرق مروراً بزولينغن بعد الساعة الثانية عشرة وأربعين دقيقة ليلاً، تم التنبه لفوبرتال كهدف للقصف. دوت صفارات الإنذار في منطقة الرور في الساعة الثانية عشرة وأربع عشرة دقيقة، دون أن يتسبب ذلك في حدوث أي انزعاج بمدينة فوبرتال في هذه الليلة من أيار/ مايو عام ١٩٤٣. حتى ذلك الوقت فشلت قاذفات القنابل البريطانية في العثور على وادي فوبر المنطى بالبخرة المصانع الكثيفة. من أعلى يمكن للمرء تصور هذه السحابة الضبابية من الأبخرة وكأنها بحيرة. وهكذا ظل عالقاً في مخيلة الناس



القنابل مقترية من على بعد يريو على ٢٤٠ كم يحرض عشرة كيلومترات وعش ثلاثة كيلومترات. أفرغت ٦٠٠ طائرة حملتها بمعدل ١٠ طائرات كل دقيقة تقريباً.

في موجة الهجوم الأولى لم تلق الطائرات الأربع والأربعون التي نقلت سوي ذخيرة حارقة. سقطت القنابل الحارقة بكثافة غير معهودة هادرة كشلال، في هذه الليلة ألقي ما يريو على ٣٠٠٠٠ قنبلة حارقة. من أعلى بدا للشهد وكأن القنابل تأخذ معها منحدرات الجبال إلى أسفل. في الساعة الواحدة وعشرين دقيقة ليلاً حاصرت النيران مدينة بارمن حصاراً محكمًا بدأ من السرح وحتى جسر أادر. وساعدت المنار الجبلية ذات الدعامات الخشبية والحواري الضيقة المتشوية والوادي الذي يشبه القرن، بالإضافة لهبوب ربح خفيفة، في تاجع الحريق وانتشاره. وسط الدخان الذي ملأ كل مكان، وسط الفرقعات التي هدمت البيوت، وسط الضجيج الناتج عن تلاوي أسطح البيوت والواجهات والسرعة الرهيبة لالسنة اللهب، لم يعد ممكناً تحديد ما الذي يمكن إنقاذه. هرب سكان البيوت إلى برودة القبر، فيما ظلت السنة اللهب حية لثلاث أو أربع ساعات متواصلة. استمرت النيران منتقلة من بيت إلى بيت. اشتعلت أسقف بعض البيوت واشتعل البعض الآخر حتى النور الأرضي. تلاحمت الحرائق مع بعضها البعض في الساعة الثانية ونصف صباحاً. بعد وقت قصير تحولت السنة الحريق المنفرقة إلى حريق يغطي المنطقة بأكملها، بحيث لم يعد هناك مفر منه. أثناء ذلك نشأت عاصفة غرق أي شيء يتحرك داخل هذا القرن.

كانت طائرات الإرشاد تتحرك بالهجمه فويرتال تبعاً للذليلبات رادر سموها "أوبوا" مثل الآلة الموسيقية. استخدمت فرق الفاذاشات البريطانية هذه الذليلبات منذ بدء العام. كانت الإرشادات تبث من إنكلترا وتكاد تغطي منطقة الرور، التي دارت فيها معركة الرور منذ شهر آذار/ مارس. حتى نهاية هذه المعركة في شهر تموز/ يوليو، قادت ذليلبات "أوبوا" ٣٤٠٠ طن من القنابل و ١٨٥٠٠ طائرة إلى أهدافها.

كان الطيار المسؤول عن تحديد المكان يسمع سلسلة من الإرشادات الصوتية تصله عبر سماعة الرأس وكانت الإشارات الصوتية تنظم عملية الإقلاع وإطلاق القاذف. وإذا ما اتخذت الطائرة مسارها في الجو، ترسل للمحطات الأرضية إشارات صوتية دائمة تشبه أصوات الأوبوا، وإذا حدث انحراف عن المسار تتحول هذه الأصوات إلى نوع من سفارات مورس. وإذا ما اقتربت الفرقة من الهدف، تُسمع إشارة ثابتة وسلسلة من الإشارات الصوتية السريعة الطويلة والقصيرة. وبعد ذلك سلسلة من الإشارات القصيرة. وعندما تتوقف هذه الإشارات، يضبط القناص في الطائرة على زر إطلاق القذيفة. في هذه الليلة، مطلع

الصيف خرج الكثير من الناس في فويرتال من بيوتهم. بقي فريق عمل محدود من رجال الحطاف في الخدمة، معظم زملائهم الآخرين أخذوا عطلة نهاية الأسبوع وجلسوا وسط الطبيعة الخضراء. في مطعم قصر الغابة الصغير بمنطقة هاردت كان هناك حفل رفاف. استمتع العروسان بالأغاني والكلمات التي ألقاها الأهل بمناسبة الحفل، وتبادل انتقال الحفل إلى ساحة فويرتال حوالي ساعة، وكان ذلك لحسن حظ هذا الرفاف. لم يسمع أحد صفارات الغارات الجوية. وحدثت بلبلة، طلب مدير المطعم من كل المدعوين الذهاب إلى المخاض. في بارمن استيقظت "لويزه روميف" على صوت الإنذار، ارتدت الملابس التي وجدتھا أمامها وحملت ابنتها "أولي" على ذراعها. هرع سكان المنزل وهم يكون ويصرخون إلى القبر، أبعدت المزاليج الخشبية. في نهاية الممر هناك فتحة في الحائط مخلفة بصورة غير محكمة وتفضي إلى قبو الجيران. "قبل أن نصل إلى القيو، شمسنا راحة النيران ورأينا من فتحة النوافذ على الدرج، الدرجات اللونية المختلفة للنار المستمرة." قبل أن تضرب القنابل مدوية فوق أسطح المنازل، يُسمع صوت أريز. يتحتم زوجان عجوزان التصاق ببعضهما متضرعين إلى العذراء، وتزعق امرأة عجوز مخمورة لا أطفال لها قاطلة: "اللعة". ألقى زوج لويزه نظرة إلى الخارج، ومع دخوله اقتحم الدخان المكان. "يجب أن نخرج من هنا".

في أحد الأبواب الأخرى اختبأت الإنكليزية "سيسيل بانيسر"، وقالت مطمئة إلى القيو الألماني "إنه آمن مثل سرداب كنيسة". أحضرت صديقته بسرعة جاكيتاً من أصله اللور الأرضي، بينما التهمت النيران الدرج من أعلاه لأسفله. "لم نتخيل أن بإمكان النار أن تنتشر بهذه السرعة في المنزل ذي الطوابق الأربع، حتى لو اقتحمت مائة قنبلة المنزل عبر السطح." يقول المسؤول عن مخاض الغارات الجوية، لو انهيار الدرج، لسقط الحطام المشتعل على درجات سلم القيو ولما كل السكان مختنقين بفعل الحرارة والدخان. ساق النساء إلى الفتحة الصغيرة في الجدار والتي تفضي إلى قبو الجيران. "كان الغلام داساً والفتحة صغيرة جداً، تلبسني الغرز من مجرد التفكير في أنني يمكن أن أبقى محبوساً داخل هذا الممر الضيق المروع."

تجرأت فستانان واتخذتا الطريق عبر الحديقة باتجاه السور، لكنه لم يعد هناك سور. وحيث أن النيران قد آتت من كل النواحي، ركضتا إلى مبنى المسبح على الجهة المقابلة، خرجت منه النيران، لكنه كان الطريق الوحيد المتاح. هناك انتظر ٢٠ شخصاً حاصرتهم النيران

مدينة كولونيا

Walter Dick: Destroyed Cologne.
April 1946. Reproduction from:
Walter Dick, Dieter Wellershoff:
Köln. Stadt im Aufbruch.
© Verlag Kiepenheuer & Witsch
2002



ولم يعودوا قادرين على الخروج من المكان، وليستجيبوا للحرارة، كانوا يعاودون القفز في المسح ويلفون رؤوسهم وأجسادهم بالملابس البلية. وحولهم اشتعلت النيران في القاعة وصار بلاطها ساخناً مثل قرن.

محاصرين بالنيران، بحث الكثيرون عن ملجأ عند نهر القوبر، لكنهم لم يقدروا فيه، بل انزلوا أسفل سور النهر. نادى رجال الإنقاذ على الطيبة إيزابيث شتارك التي كانت تعمل في خدمة الإسعاف وقاموا بإنزالها من المبنى بواسطة سلم المظافى لكي تتعالج من أصيبوا بحروق. "نصف أجسامهم كانت عبارة عن جرح كبير ملتصق بجزء ملبسهم." احتنت الطيبة شتارك بالخروج وحقتهم بالمورفين لتسكين الألم.

رحقت لويزه روسيف مع عائلتها إلى قبو الجيران حتى وصلوا إلى غرفة الغسيل. "في غرفة الغسيل ساد خليط من أصوات الولولة والنهاع والسباب. وضعت أم فوطة مبلولة أمام وجه رضيعتها التي لم يتعد عمرها بضعة أشهر، وذلك كي تنفّس جيداً. وقمت بعمل الشيء نفسه مع أولي أيضاً، حيث إزدادت صموية التنفس مع كثافة الدخان."

في مخبأ الغازات الجبوية العموي تحت المصنع المشتعل في شارع أدولف هتلر، ساور القلق آدمسن بسبب التنفس رغم أن تجويف المخبأ لم يتأثر بالقصف. "لم أعد أشعر بالآمان لأننت أمني وخالتي بالهرب. لحسن الحظ كان الشارع واسعاً جداً." كان الرماد والشرر الساخن يلاحقانهما. استعرت النيران في فتحات النوافذ ثم التحمت السنة اللهب ببعضها البعض "كما في كاتدرائية عالية. أمسكت روت البالغة من العمر أربعة وعشرين عاماً خالتها لينة من ذراعيها وأمها تدير بجانبها وقد أهملت عينها. "عند شارع أريش سمعنا صرخات مفرجة وسط النار، "الحقوني، إني أحترق" بعد ذلك عرفت أنه السيد دورينغ الذي كنت أشتري منه كرامات المدرسة دائماً في الماضي."

كان الدخان الذي تسلل إلى غرفة الغسيل إشارة إلى آل روسيف بمغادرة المكان. قُتعت كوة في القبو الثالث، سيضيق المكان يسكان ثلاث بنايات. "صمت الجميع أنصتوا لما يحدث بالخارج. الآن ساد الصمت في السماء. لم تعد نسمع سوى فوران وأزيز أعمدة السهب والدخان للحديقة بنا والتي وصلت إلى السماء، حيث تكونت هناك سحب صفراء وحمراء ورمادية. "أطفال تائهون يقفون بحفاظ صغيرة، ويرى بعض الناس مهرولين "بنظرة متقبضة أو خالية من التعبير، وبعضهم بوجوه غابسة."

هرعت أيضاً عائلات حفل الزفاف الإحدى عشرة خارجة من للمخبأ. وقف "سبعة" أمام اللاشيء. راقت ابنة خالتي التي كانت تبكي بصوت خفيض إلى منطقة روت Rott

حيث تركت أطفالها الثلاثة في رعاية جاريتها. جرت متدقعة للأمام دون توقف ولم تدع رجال المظافى الذين أشاروا إلى خطر انهيار المبنى، يوقفونها. وعندما نظرت إلى المنزل الذي سكنت فيه خارت قواها، إذ رأت البيت يشتعل. لكننا وجدنا الأطفال سالمين في قبو المنزل المجاور."

وتبيت السيدة بانيستر، التي خرجت أيضاً إلى الحلاء بعد نهاية القصف، أن الطائرات قد انصرفت لكن الهجوم بدأ لتوه. "وعلى مد أبصارنا تحول كل بيت إلى شعلة، حاولت أن أسير وسط الشارع، لأن السنة اللهب خرجت من كل النوافذ، والأشجار على طرفي الرصيف اشتعلت أيضاً وصارت تلقى بأغصان مشوهة. وأعاق إسفلت الشوارع الساخن المنصهر خطانا." وكثيراً ما تعثر الهاربون من القبر أثناء جريهم في الإسفلت المنصهر، لم يستطيعوا حراكاً واحترقوا بالأشياء الملتصقة التي تسقط من أعلى.

الآن تنهار منازل قديمة مبنية من الخشب. يتكاثف الدخان ويضيق الطريق. "الآن لم يعد بإمكانني الرجوع وحاصرتي النيران. اخسرت الموضع الذي لم تكن فيه السنة اللهب عالية جداً، أي لحد الركبة تقريباً." لا تذكر السيدة بانيستر شيئاً من حروق ساقيها ولا عن الدخان الذي ألهب العينين ودخل القم والحلق ويدأ يخنقها. "مع الوقت خارت قواي وهذني تعب فظيع." يفقد المخ إلى الأوكسجين. إنها تعرف حتماً أن هذه قد تكون نهايتها ونهاية حياة طفلها ماني الذي تحمله فوق ذراعيها.

"وعندما انهارت ركبتي لم أعد قادرة على حمل ماني وتخرج من بين ذراعي. كان لا يزال ملفوفاً في غطاءه، ساقاه فقط خرجتا من الغطاء. ويجعد أن لامتسهما النيران صرخ من الألم وتلحرج أمامي على الأرض." وصل صراخهما إلى ما لا أذن له. التفطنتهما دورية إسعاف مارة وأوصلتهما إلى رئاسة الشرطة حيث تتم معالجة الجرحى الذين غطت جلودهم طبقة من الهباب الأسود. "على مايلسو أن عمليات الإسعاف كانت منظمة بصورة جيدة جداً." أصيبت سمانتا السيلة بانيستر ببعض الحروق. "ضمدوا لها موضع الحروق بضمادة مبللة بسائل يمنع المواد الكيميائية المحارقة من الاستمرار في كي لحماها."

في الطريق تبدت لها الحدود الفاصلة المستقيمة للتدمير الذي لحق بالمدينة. "ففي ناحية كان الجميع وعلى الجانب الآخر مدينة عادية، صحيح أن هوائها كان مدخناً وكانت بها حركة غير عادية في أثناء الليل، لكن مبانيها ظلت على الأقل واقفة على قوائمها. عمل دقيق فعلاً." وعندما عادت قاذفات القنابل مرة أخرى بعد أربعة أسابيع، كانت تحدد أهدافها من



طرف المدينة المنمر فويرتال - بارمن وتقصف فويرتال - إلفريد.

غمرت المدينة والحة غار عفة وشياط وطن. حجب الدخان الشمس، علقت فوق الوادي سماء برتقالية اللون. على بعد ثلاثمائة متر من خدمة الإسعاف التي تعمل بها الطيبة شتارك كان هناك عيادة فيشرتال. هنا احترقت ثلاثون أما مع أطفالهن حديشي الولادة. خرج الدخان من بيوت فيشرتال وماديا داتكا عندما عبرت لويزه ورومف فوق المرج. "كانت صيادة النساء هي أكثر مبنى يميز وسط هذه البيوت حيث بُنت فوقه صليب أحمر كبير." بعض الريفيات استطعن الهرب من العيادة.

'راينهن راقدات في أنحاء المرج، نسوة مريضات أو حوامل أو على وشك الوضع.' جرت الممرضات هنا وهناك وفردن أغطينهن وتخلل صراخ ونحيب الحوامل أثناء الولادة الصوت اللطيف للأطفال حديشي الولادة.

شاهد الصبي فيفريد بيكار من سكان جنوب مدينة البرفيلد والبالغ من العمر ٩ سنوات الهجوم من شبك السطح 'وفي اليوم التالي في بارمن رايت الموت لأول مرة في حياتي.' حسب ما يروون، اتكملت الجثث المحترقة لتصبح في حجم الدمى وقد تعجب بيكار من رؤيته 'جسم امرأة بالحجم الطبيعي، كانت قريبة من الرصيف ووجهها مكفء على البلاط، عارية وبشرتها سوداء تماماً.'

أما المتدرب هاينريش بيرغان البالغ من العمر ١٦ عاماً والذي عنده رخصة سائق نقل من خلال تدريبه لدى شركة قطارات الرايخ، فقد أكلت إليه مهمة انتشال الجثث: 'قالوا: ستة موتى هنا وعشرون هناك إلخ... أحياناً كانت الجثث مسجاة في هدوء وسلام كما لو كانت نائمة. كان طول الأجساد المتفحمة حوالي ٥٠ سنتيمتراً. كنا ننشل الجثث ونضعها في أحواض من الزنك أو في مرجل فسيل، ومارجل الفسيل تسع ثلاثة أجسام وأحواض الزنك سبعة أو ثمانية أجسام.' ما كان بيرغان يتأذى لرؤيته هو منظر الحروق الجزئية، كان يكون الذراع مثلاً تحت الأقباض ولا يكون متفحماً. 'فالجثث المتفحمة العادية، لم يعد لها أي صلة بالبشر، كانت مثل طرود سوداء صغيرة، لكن حينما يملق بهذه الجثث المتفحمة عضو سليم من أعضاء الجسم، يدرك المرء على الفور ما الذي يراه أمام عينيه. ولكي نتحمل هذا المشهد الصعب، كان علينا أن نشرب دائماً جرعة من مشروب كحولي قوي.'

لحقت أكثر الخسائر بجاني حي فيشرتال المتصقة ببعضها بعضاً. وفي شارع تسويغهناوس انمحت من فوق الأرض بناءة بها ٣٢ شخصاً. ولأن العائلات كلها سحقت، صعب تحديد هوية الجثث. وقد كُتب في قائمة القتلى بإدارة الدفن

ما يلي: "أثنى، فستان كاروه أبيض في أزرق، خاتم زواج، طقم الأسنان مفقود، حذاء أسود برباط." أو "أثنى، متفحمة (نصف الجسم) لباس داخلي، سن ذهبية." أو "ولد، حوالي ١٣ عام، بنطلون أسود مانشرت، جاكيت بني، فتاة متفحمة، ملابس بنقوش شوك السمك، جميعتان لباليقن وجميعتا أطفال."

اعتبرت عملية فويرتال في إنكلترا أكثر الهجمات نجاحاً في وقتها. وكتبت جريدة التايز آنذاك تقول: "لم يتم من قبل معو مدينة صناعية اللاتية تماماً من على الخريطة" أكثر من ١٠٪ من الطائرات أخطأت المدينة ودمرت المناطق الواقعة جنوب ريشايد ورولينغن. لكن باقي الطائرات الخمسمائة وصل مدى تدميرها إلى خمسة كيلومترات حول هدفها. استغرقت عملية انتشال الضحايا أسبوعين. تم تدمير ٨٠٪ من المساكن، قُتل ٣٤٠٠ شخص. وبذلك فاق عدد قتلى فويرتال من جراء القصف الجوي خمسة أضعاف قتلى مدينة دورموند التي تعرضت لقصف مشابه، حيث قُتل في دورموند ٦٩٣. وفي نفس العام راح ضحية للقصف في أربع مدن أخرى أكثر من ٢٠٠٠ قتل بين المدنيين. فقدت ميونخ في ليلة العاشر من آذار/ مارس ٢٠٨ أشخاص ودويسبورغ في الثالث عشر من أيار/ مايو ٢٧٢ شخصاً واسن في ٢ آذار/ مارس ٤٦١ شخصاً وشتوتغارت في السادس عشر من نيسان/ أبريل ٦١٩ شخصاً.

شاع الحديث بين الناس عن المصيبة التي نزلت بمدينة فويرتال. تراوح عدد الضحايا في أحاديثهم ما بين أربعة آلاف وأربعين ألفاً، ولم توجد صحافة ذات مصداقية آنذاك. لكن الناس قد أحسوا من خلال قصف فويرتال أن الحرب الجوية قد اتخذت شكلاً آخر وأرجعوا ذلك إلى طريقة استخدام النيران.

ترجمة: أحمد فاروق

Jörg Friedrich: "Der Brand, Deutschland im Bombenkrieg 1940-1945". S. 13-S.20.

© 2002 Propyläen Verlag,

Ullstein Heyne List GmbH&Co. KG München.

* نشأت مدينة فويرتال عام ١٩٢٩ حيث جمعت تحت مظلتها عدداً من المدن أكبرها بارمن وإلفريد وكانت تسمى قبل ذلك إلفريد - بارمن. (الترجمة)

نهاية الحروب التقليدية

أمراء الحرب وشبكات الإرهاب ومستقبل العنف الحربي

الحروب على الأقل بوصفها فكرة تنظيمية وصارت أحياناً طابعاً مميزاً لها، من لائحة المبادئ المنظمة للعنف الحربي.

المرتزقة، القدامى والجند

كيف وبأي وسيلة صارت الحرب من جديده عملاً مربحاً؟ لم يكن شن الحرب دائماً عملية معجزة، لكن عملية إعداد قوى عاملة للحرب على مستوى القطاع الخاص قد جلبت في ظروف معينة من التناحر الأوروبي أرباحاً. وألا لما كان ممكناً تفسير ظهور المرتزقة الإيطاليين Condottieri أو السويسريين أو الألمان. وهذا يعني أن الحرب تعيش من الحرب.

كانت الظروف في إيطاليا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر مواتية جداً لذلك، حيث تجمع لدى مدن التجارة كميات كبيرة من رأس المال، وأصبحت بذلك هدفاً جيداً للعنف المسلح المربح وفي نفس الوقت لم يكن لدى الطبقات العليا في المدن رغبة في أداء الخدمة العسكرية. ونظراً إلى وجود عمالة كافية للجيش في الريف وكذلك بين النازحين من الريف إلى المدينة، لم يكن هناك حل أقرب من وضع الأساس لعلاقات تشغيل محددة المدة، وهي ما يسمى Condotta. جعلت الطبقات العليا المدنية الطبقات الدنيا الريفية تحارب لحسابها. وقد أدرك هؤلاء المحاربون القوة التي في أيديهم وأدركوا أيضاً ما يمكنهم أن يحققوه من دخل مادي من خلال ذلك. وهكذا أصبحت الحرب عملاً مدبراً للربح، هناك بعض من المحاربين بدأ فقيراً معدماً واستطاع أن يحقق من خلال ذلك ثروة كبيرة وبعض من هؤلاء الريفيين استطاع أن يتحول من مرتزقة إلى أمير أو دوق.

لقد كان الغلاء المتزايد في تكلفة الجيوش العسكري أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر وراء انخفاض وكلاء الحرب المخصوصين وأمرالها في بدايات التناحر الحديث. كان ألبرت فون فالنشتاين هو أكثرهم وكلاء الحرب لكنه فشل سياسياً بعد أن حقق في البداية نجاحات لا يستهان بها. هناك ثلاثة أسباب للغلاء المستمر في تكلفة الحرب وهي تطوير المدفعية والتي كان لاستخدامها دور حاسم في الحروب. والزيادة المستمرة في حجم الجيوش والحاجة إلى الجميع والتوفيق بين قوات المشاة والمدفعية والفرسان في الحرب، وأخيراً إعادة تنظيم وحدات المشاة بطريقة منظمة

إن «الحروب الجديدة» التي يلعب فيها أمراء الحرب وعصابات الإرهاب دوراً فاعلاً ليست بجديدة. كان العنف الحربي «للخاص» موجوداً على نطاق واسع قبل عصر نشأة الدول الحديثة - لكن كيف سيتطور الموقف الحالي الذي بدأت فيه الحروب بين الدول تصير أمراً استثنائياً؟

بعد عام 1945 كانت الحروب بين الدول نادرة، من حيث النشأ، ثلث الحروب الدائرة في العالم، أما الثلاثان الآخران، فكانا مملكتين داخلياً أو خارجية، قاتلت فيها ميليشيات محلية وجماعات من المرتزقة من كل أنحاء العالم وشبكات إرهاب تحصل على نطاق دولي وكذلك أمراء الحرب الإقليميون لم يعد هناك مجال للحديث عن احتكار الدول القانوني والفعلية للحرب، كما كان عليه الحال في أوروبا منذ منتصف القرن السابع عشر وحتى القرن العشرين. لقد تخلصت الحرب من القيود التي ربطتها بكيان الدولة، تلك القيود التي وضعتها اتفاقيات سلام ومستغاليا 1864 لإنهاء حروب الثلاثين عاماً، لقد تخلصت الحرب من سيطرة الدول والفاعلين الذين يعملون لحسابهم الخاص، ومن أمراء الحرب والمرتزقة وشبكات الجماعات الإرهابية، لكنها تحارب دولاً أيضاً.

لا تتميز الحروب الجديدة بالتكافؤ، أي أنها حروب لا تميل بشكل عام إلى تكافؤ نسب القتلى والمقتولين فيها. وهذا بالضبط كان جوهر المبارزة أو تركيبات المباريات القتالية التي تأسس من خلالها التصور الأوروبي من الجندي وأخلاقه ذات الطابع الخاص. لقد استبدل شكل المبارزة الكلاسيكي أو تركيبة المبارزة القتالية بمجموعة كبيرة من أشكال استخدام القوة من جانب واحد. ويتبين جلياً مثلاً في الانحسار الجماعي المنظم بوصفه جزءاً من الحرب، أو في تحول الطائرات المدنية إلى صواريخ وتحمل المياني العالية إلى مجازر. في المكان الذي كان يحمي فيه وطيس القتال في المعارك الكلاسيكية، حلت الملائم، أي تحولت إلى مكان يقوم فيه طرف بالقتل والطرف الآخر يقتل، دون أن تكون له أية فرصة للدفاع عن نفسه بصورة فعالة. بنهاية الحروب بين الدول انخفضت الفروسة التي كانت تمد خلقاً معتاداً في الحروب التكافؤ، والتي صاحبت تاريخ

المسلحين. وهكذا يتعمق العنف الممارس من قبل وكلاء الحرب الخصوصيين في المجتمع، بحيث لا يوجد سبيل للخلاص إلا بالاستعانة بقوى خارجية. ويبقى السؤال مفتوحاً، بشأن تمكن هذه القوات من إقرار السلام في البلاد أو تحويلها إلى أحد أطراف الحرب التي مستطور على أثر هذا التدخل وقد يتبع هذا التدخل تدخلاً مضاداً . . . أنغولا والكونغو والصومال وأفغانستان والقوغاز، كل هذه المناطق تعد علامات تعجب خلف هذا السؤال المفتوح.

وطبعاً ليس انهيار الدولة وحده هو الذي يدعو إلى جعل شن الحرب للحساب الخاص وتكلفة خاصة جذاباً، هناك أيضاً سهولة في ربط اقتصاديات الحروب الأهلية بدورة رأس المال والبضائع في السوق العالمية. إلى جانب احتياطي النفط والمواد الخام الاستراتيجية والمعادن والذهب والماس، هناك بضائع غير مشروعة أو تعتبر غير مشروعة، يقوم أمراء الحرب بتمويل أنفسهم من خلال التجارة بها وكثيراً ما يستطيعون تحقيق ثروات من خلالها. وقد أثبتت التجارة المخدرات بخاصة أنها مربحة لأن هناك طلباً قوياً عليها في الدول الغنية. ولا يمكن القول بأنه لا ذنب للمسؤولين الاقتصاديين في المنظمة الدولية للتعاون الاقتصادي والتنمية OECD-Welt في أن الحرب قد أصبحت مرة أخرى عملاً مربحاً.

الإرهاب

كانت الحروب التي استعد لها المسكران الشرقي والغربي لمدة أربعين عاماً - من أجل منع قيامها - نوعاً من المواجهة المتكافئة وقد تسببت في تكاليف باهظة. وباختصار يمكن القول إن أحد الطرفين وهو الاتحاد السوفيتي قد فشل في مواصلة سباق التسلح غير المنقطع، نتيجة للتكلفة الباهظة. وأثناء انشغال مؤسسات أبحاث السلام والنزاعات بتحليل سباق التسلح في النزاع بين العسكريين الشرقي والغربي ومحارلتها لقياس

وتكتيكية على أسس عسكرية أكاديمية، حيث أنها بدأت تذهب إلى المارك في صفوف طويلة وازداد استخدامها للسلاح الناري.

كل ذلك كلف نفوذاً ومع الوقت لم يكن هناك من باستطاعته تحصيل هذه الأموال سوى الدولة. كان إعداد ترسانة كبيرة من المدافع أمراً يكاد يكون مستحيلًا على وكلاء الحرب. لقد أدى كبر حجم الجيوش وضرورة التدريب على عمل أسلحة الجيش الثلاثة معاً، إضافة إلى الوقت الطويل الذي محتاجه تدريبات المشاة، إلى الزيادة المستمرة لتكلفة الحرب وبذا صارت الحرب عملاً غير جذاب لوكلاء الحرب الخصوصيين. تم استبدال المرتزقة الذين كان يحتمن استجارهم قبل الحرب مباشرة بالجيوش المستديرة. وهكذا تم فصل الحرب وإعدادها عن منطق الاستهلاك الرأسمالي.

على النقيض من ذلك يشير التطور التقني للأسلحة في العقود الماضية إلى اتجاه معكوس. في كثير من الحروب الجديدة، لا تلعب الجيوش ذات العتاد الكبير دوراً حاسماً، بل تقوم بذلك ميليشيات، قام أمراء القبائل أو رؤساء العشائر بتجنيدتها على عجل، إضافة إلى جماعة تابعة من أمراء الحرب المسلحين. وأسلحة الحروب الجديدة رخيصة، حيث تعتمد هذه الحروب على الأسلحة الخفيفة، كالبنادق الآلية والأغام والبنادق الآلية المبيتة على عربات نصف نقل. نادراً ما تستخدم الأسلحة الثقيلة، وإذا ما تم استخدامها، فسيعلق الأمر باستخدام أسلحة قديمة من مخلفات الحرب الباردة. وفي حين أن تكلفة الإعداد للحرب وحدها في ظل الشروط الخاصة بصراع متكافئ، ناهيك عن شن الحرب، تزداد باستمرار، تمكن استراتيجيو الحروب الجديدة من جعل تكلفة الحروب رخيصة إلى الحد الذي جعلها من جديد عملاً يدر بريح كبير.

لكن هذا لا يعني طبعاً أن جملة التكلفة الاجتماعية للحرب أصبحت منخفضة. على العكس من ذلك: إن الآثار طويلة المدى للحروب الأهلية وتدمير البنية التحتية للبلاد وتخريبها وتلغيم الشوارع والحقول ونمو جيل من الأطفال لا يعرفون شيئاً سوى الحرب والعنف تعني تكلفة ضخمة. لكن هذه التكاليف لا يدفعها الفاعلون الرئيسيون في هذه الحرب. يجدر بنا هنا أن نذكر مقولة قديمة تفيد بأن أمراء الحرب ورؤساء الميليشيات قد تمكنوا بلا حياء من تخصيص مكاسبهم من الحرب التي أداروها وتعميم تكلفتها على المجتمع. وترتبط إمكانية تحقيق ذلك بالفشل في تأسيس الدولة في أجزاء كثيرة من العالم الثالث.

في تلك البلدان التي يطلق عليها دول فاشلة failed states لا توجد أية مؤسسات لها صلاحية منع تعميم تكلفة الحروب على المجتمع أو أن تضع لذلك حدوداً. يصبح للمليشيين والمناطق التي يعيشون فيها، بخاصة لو كان بها ثروات طبيعية، غنيمة لمن يفرض رقابته على المنطقة بمساعدة أتباعه



ما بالحالة النفسية والتوقعات والأحاسيس، وهذا يجعل تلك المجتمعات من هذا الظهور الأكثر ضرراً. والخلاصة هي أن استراتيجي الإرهاب قد اكتشفوا أن للمجتمعات الحديثة هي أسهل للمجتمعات التي يمكن مهاجمتها وهي أكثر المجتمعات التي يمكنها أن تتضرر وتعاثر من الهجمات الإرهابية.

إن إلحاق أضرار جسيمة بالمدن الذي لا يمكنك مضاهاته في قوته العسكرية، ليس بالضرورة اكتشافاً جديداً. ويمكننا تلخيص هذا الكلام قائلين إن حروب الفدائيين عبارة عن صيغة دفاعية من الحروب غير المتكافئة. والصيغة الهجومية لها تمثل في الإرهاب الدولي. تتبع مصداقية الفدائيين من التأيد الشعبي لهم من قبل المدنيين، ويعتبر المدنيين المعود الفقري لؤن وعتاد جماعات الفدائيين وهم الذين يرفقون لهم نسبة محقولة من المجندين ومن الذين يمكن تجنيدهم في المستقبل. إضافة إلى أن المدنيين يقومون بتغطية الفدائيين والتضحية على نشاطاتهم. وبمساعدهتهم يقوم الفدائيون بتضليل الجيوش النظامية أو يستطيعون اظهار الظلم الذي تمارسه هذه الجيوش أمام الرأي العام العالمي.

والدور الذي يلعبه المدنيون في حروب الفدائيين، تقوم به البنية التحتية للبلد العدو الذي يريد الإرهابيون الدوليون مهاجمته. إنهم لا يستخدمون هذه البنية التحتية فقط بوصفها

مدى الشكاف في هذا النزاع، تمكن مخطوط واستراتيجيو الحرب الجديدة من أن يخرجوا ليس فقط من دائرة سباق التسليح، بل وعن كل قواعد الحرب المتكافئة وقواعد الإعداد لها. وهذا التصرف، الذي لم يلق اهتماماً كبيراً حتى الآن، والذي يعكس إلى حد ما الظروف الملهمة لخصخصة الحرب، أثبت أنه يمكن أن تكون له على المدى البعيد تبعات وعواقب أوعم من تلك التي للنزاع بين العسكريين الشرقي والغربي. ولا تعد الحرب غير المتكافئة قاصرة فقط على المناطق التي يسيطر عليها ما يسمى بالدولة الفاشلة، إذ استطاعت من خلال الإرهاب الدولي وتحديداً من خلال الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر أن تصل إلى مناطق الشمال الغنية.

تعد الهجمات الإرهابية جزءاً من الحرب غير المتكافئة، حيث يتم فيها تكبيد الخصم أكبر خسائر ممكنة بأقل مجهود شخصي. ولا تقتصر هذه الخسائر فقط على التدمير المادي المباشر، بل تمتد ذلك إلى الآثار النفسية لتلك الهجمات. تدبر الهجمات بأسلوب يجعل موجة الذعر التي تنجم عنها أكبر بكثير من انفجار العبوة الناسفة، وهم لا يستهدفون شخصاً بعينه أو مبنى بعينه، على النقيض من عمليات الاغتيال المعتادة، بل يصوبون نحو بنية المجتمعات الحديثة التي تتميز بالهشاشة الشديدة والتي يرتبط سير الحياة فيها نوعاً

Emile-Jean-Horace Vermet, "The Battle of Valmy", 1792 © National Gallery, London



الدولة التي إنهارت خلال الحروب الأهلية والحروب بين الشعوب، والعمل بصورة منتظمة على تضيق الخناق على الشبكات الإرهابية لكي لا تتمكن من غرس جذورها في هذه الدول، من أجل تهجير وجود الإرهاب والظروف المهيئة لنشأته. أما الأمريكيون الذين لم يشاركوا أيضاً بصورة جدية في إعادة إعمار أفغانستان، فيريدون على النقيض من الأوروبيين حرباً طويلة ومستمرة، والأفضل لو كانت دائمة على المنظمات الإرهابية والتي يستطيعون مهاجمتها دائماً، وفقاً لمبدأ الضرب والاختفاء، وذلك لتجسيم القدرة الهجومية لهذه المنظمات. يساورنا الشك في إمكان كسب هذه الحرب، وإنهائها بنجاح. سنشبه مثل هذه الحرب، الحرب على جبهة جديدة «للبرابرة» وسنشأ دائماً من جديد جبهة جديدة.

يتجلى عدم اقتناع الأمريكيين بحجوى الطريق الأوروبي في شل حركة الإرهاب الدولي من خلال استخدامهم لتعبير «الدول المارقة». وهم يتون بذلك الدول التي يتهمونها بتفعية أو تأييد الإرهاب الدولي، لتحقيق إراداتها السياسية من خلال العنف، إذ إنها غير قادرة على شن حرب متكافئة أو إنها ستخسر كما في حالة العراق. إذا تناولنا مصطلح الدول المارقة بجديّة، فيسعي ذلك الدول التي تستخدم أساليب الحرب غير المتكافئة من الباطن في تعاملاتها. وتحصل هذه الدول مكاسبها مرتين، مرة على المستوى المتكافئ، ومرة على المستوى غير المتكافئ.

ستضمي الولايات المتحدة قديماً في الطريق الذي اختارته، وستقوم على هذا النحو غالباً بمهاجمة العراق، الذي لم تقوض دعائم وجوده كدولة في عام ١٩٩١، نظراً لاعتبارات تتعلق باستقرار المنطقة. ستكون مهاجمة العراق بمثابة توجيه الضربة القاضية للقانون الدولي الحالي. وغالباً ما سيحل محله قانون دولي جديد. ولن يكون قانوناً يفصل من ناحية المبدأ بين طرفين متكافئين، بل سيكون قانوناً ضارفاً في عدم التكافؤ، حسبما يبين الرجوع إلى تصور الحرب العادلة ذلك. وحتى تصور الجهاد والحرب المقدسة يعد تصوراً غير متكافئ. إنه يمثل إيديولوجية محاصرة الدولة. ولو فشل فك هذا الحصار فسيتصحب الكيانات غير المتسقة هي الصبغة السياسية المميزة لهذا العالم.

البروفيسور هيرفريد مونكر، المولود عام ١٩٥١، أستاذ مادة السياسة في جامعة هومبولدت في برلين، ويُعد من رواد النظير للحروب الجديدة.

ترجمة: أحمد فاروق

المصدر: Neue Zürcher Zeitung, 14.9.2002

قاعدة لعملياتهم، بل ويقومون كذلك بتدليل وظائف هذه البنية التحتية لتصبح صالحة كسلاح. فبدلاً من خطف الطائرات، ومروراً بالخطابات المتفجرة، ووصولاً إلى فيروسات الكمبيوتر هناك مجموعة كبيرة من إمكانيات الهجوم التي تعد رخيصة نسبياً وسهلة الاستعمال ويمكن من خلالها تحقيق أقصى ضرر ممكن. رغم ذلك لا تهدف الهجمات إلى إصابة الجهاز العسكري للخصم أو على الأقل توجّه له ضربات سطحية. الضربات الإرهابية موجهة إلى الاقتصاد. ولكي نسير عن ذلك بشكل مجازي، نقول لا يهاجم استراتيجيو الحرب الإرهابية القبضة المصفاة للعدو المهاجم، بل يضربون الأعصاب والأوردة الدموية التي يمكن لها أن تشل حركة الجسم كله وليس القبضة وحدها.

القانون الدولي

إذن فالعرب بين الدول صارت نموذجاً عفا عليه الزمن وأغلب الظن أن معايير القانون الدولي الخاصة بهذا النوع من الحروب، نظراً لأنها موجهة إلى الدول، صارت متقادمة أيضاً. وفي حين يحاول الأوروبيون في الوقت الراهن تطوير القانون الدولي الحالي، ويسعون إلى تكييفه مع أوضاع السياسة الدولية المتغيرة، بدأ الأمريكيون تدريجياً في التخلص منه. والمؤشر الأول على ذلك هو انسحابهم من عضوية هيئة قضائية دولية تقصص لجرائم الحرب، والثاني هو دعاية المتفقين الأمريكيين على مختلف مشاربهم لتصورات عن الحروب العادلة ويعد تخطيطهم لضربة عسكرية مفردة ضد العراق هو المؤشر الثالث.

إن الطريق الأوروبي هو محاولة لوضع الحد الأدنى من الشروط اللازمة للحرب المتكافئة، في الوقت الذي يتراجع فيه الأمريكيون على طريق الحرب غير المتكافئة. يحاول الأوروبيون المحافظة على استقرار بنیان القانون الدولي، الذي نشأ في أوروبا وصار الآن هشاً، من خلال القيام ببعض عمليات الإصلاح. أما الأمريكيون فيميلون أكثر إلى عدم الاهتمام بإنفاذ هذا البنیان. أي الطريقين أصعب؟ سيرتبط ذلك بشكل جوهري بمدى النجاح في تصدير الاستقرار إلى المناطق المعنية، سواء أكان ذلك من خلال التدخل العسكري أم من خلال المساعدة الاقتصادية، وتحقيق الحد الأدنى من شروط التكافؤ هناك. إن وجود الدول ذات الحدود، مهما كانت ضعيفة، له تأثير هام، يمثل في إمكانية معاقبة هذه الدول عند انتهاكها للقانون الدولي والتشريعات المنظمة للعلاقات بين الدول. أما الشبكات الإرهابية كالقاعدة فلا يمكنه توقيع العقوبات المعتادة عليها، وحتى الهجمات العسكرية المعتادة التي وجهت للشبكة في أفغانستان قد أظهرت أنها مزقت الشبكة فقط بصورة جزئية وآثرت في فاعليتها بعمق. يقوم الأوروبيون بمكافحة الإرهاب الدولي من خلال إعادة إنتاج

«أدق» حروب التاريخ

ضحايا القنابل الذكية في أفغانستان

كابول - خوست

في أفغانستان مقابر عديدة تقع وسط الأحياء السكنية في كابول، لا تبعد سوى أمتار قليلة عن المارة وسائقي الدراجات وأطفال الشوارع والباعة في الأسواق، عن الجزائين والخيارين، إنها تمثل مفارقة عنيدة إزاء آلاف البشر الذين تكثف بهم المدينة. تسترعي المقابر انتباه المسافر على الطرق الزراعية، فهي تتناثر على ضفاف النهر وفي الحقول وعلى سفوح الجبال. طوال ثلاثين عاماً من الحروب والمقابر تنمو وتتضخم وكأنها تريد كل يوم البرهنة على وجود لعنة مريعة فوق سماء أفغانستان. أينما يولي المرء وجهه: مقابر، مقابر، مقابر.

كم عدد الذين لقوا حتفهم منذ السابع من أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠١، أي منذ بداية التدخل العسكري للحلف ضد الإرهاب في أفغانستان؟ كم عدد الجثث التي واروها التراب واعتبروها 'ضحايا مدنيين'؟ إن هذا السؤال يمثل قضية مهمة بالنسبة إلى الغرب: إذ أن طريقة خوض حرب وما تسفر عنه من ضحايا قد تؤدي إلى أن يفقد المرء حقه في الدفاع عن النفس، بل إن هذا الحق يصبح في نهاية الأمر مجرد كلمات جوفاء. نعود إلى السؤال: كم عدد الضحايا؟

قبل أن نتحدث عن الأرقام، لابد أن نتكلم عن 'نارثة'. كانت تبلغ من العمر خمسة أعوام. وفي السابع عشر من أكتوبر/ تشرين الأول كانت تلعب مع أربابها في فناء منزلها في حي ميكرويون في كابول، بناتة رقم ٣٣، فجأة انفجرت قنبلة في إحدى التكنات العسكرية التي تبعد عن منزلها عدة مئات من الأمتار. بهلع بحثت نارثة مع الأطفال الآخرين عن ملجأ آمن داخل المنزل. ثم سقطت قنبلة ثانية حفرت لنفسها طريقاً في الأرض بعمق متر أمام مدخل البيت الذي أرادت نارثة الهروب إليه. لم تصبها شظايا القنبلة، لكنها تسببت في انهيار جزء من السور الذي دفن الطفلة تحت أنقاضه.

'كانت رائعة الجمال'، تقول الأم شكيلا نوري. ماتت نارثة مخلقة وراها فراغاً يكاد يتلع العائلة بأكملها. الأب عبدول أضفى منذ وفاة الطفلة 'مريضاً في رأسه'، على حد تعبير الأم. الابنة الثانية صوفيتا البالغة من العمر أربع

سنوات لا تكاد تتوقف عن البكاء، وإذا توقفت تساءلت عن أختها نارثة، ثم تنخرط في البكاء ثانية. الابن البالغ من العمر ستة أعوام، زهراب، تنتزعه من نومه الكوابيس التي يرى خلالها طائرات وقنابل وصواريخ، فيقوم وهو يتنفض انتفاضاً. الأم أيضاً تواجه 'مشاكل مع أعصابها ورأسها'، على حد قولها. رداً على سؤال إذا كانت تذهب إلى طبيب، تنسج الأم إلى الدولاب وتخرج رجاجة: شراب نفرودين، وخليط من غلبسوفوسفات وفيتامين 'ب'. هذا هو كل العلاج.

لا بد أن نذكر هنا أن عائلة شكيلا نوري وجدت من يلتفت إليها في محنتها. بعد أن استسلم أتباع طالبان وفروا من كابول، زارهم في المنزل وفد أمريكي من عائلات ضحايا اعتداءات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر الإرهابية، وعقدوا لبعض الوقت مع شكيلا نوري. 'لقاء النصائح'، هكذا أسموه. وقبل أن يغادر الضيوف المنزل تركوا هدايا للأطفال الناجين من القصف: كرة قدم، وعجلة أقلام فلوماستر، وحيواناً من قماش.

كان يوماً طيباً لشكيلا، مليئاً بكلمات التعزية والأمل والوعد بتقديم يد العون، شعرت خلالها أنها لم تكن، وأن هناك من يقاسمها همومها. ولكن شكيلا نوري لم تسمع كلمة عن ضيوفها بعد هذه الزيارة. والآن، فقد جفت الأقلام الفلوماستر كلها ما عدا اثنين، والحيوان القماشي احترق وولي، ولم تبق إلا الكرة.

هذه باختصار حكاية عائلة نوري من كابول. والآن يمكننا أن نتحدث عن الأرقام.

قد تبدو هذه الحقيقة عادية ولا تثير الدهشة. حتى تتوافر لدينا الأرقام، لابد أن يكون هناك من يقوم بالإحصاء. ولكن أحداً لم يتول في كابول حتى الآن مهمة إحصاء عدد ضحايا العملية العسكرية، لا الحكومة ولا الجيش ولا منظمات الإغاثة.

"لن نعرف ذلك أبداً"

والسؤال هو: لماذا؟ وزيرة شؤون المرأة في أفغانستان سيما ثمار نجيب قاللة: "نحن مشغولون تماماً بأشياننا الصغيرة، بينما الوزارات مثلاً. ليس لدينا الوقت الكافي للقيام بمهمة

مستشفى متراد. أتي أقارب الضحايا بالجثث لرغبتهم في أن يقوموا بعملية الدفن خلال يوم وفقاً للتقاليد الإسلامية. لكنهم كانوا مقلبين، ولذلك أملوا أن يقدم متراد لهم المساعدة. وبالفعل منحهم الطبيب بعض النقود، وعلى الفور اختفت العائلات مع موتاهم، دون أن يتركوا اسماً أو عنواناً. ابتلتهم أنقاض كابول.

خلال الحرب في أفغانستان ظل الضحايا في الأغلب بلا هوية. كل ضحايا حروب السنوات الثلاثين الأخيرة بقوا مجرد تقديرات. ما بين مليون ومليون ونصف أفغاني لقوا حتفهم خلال الغزو السوفيتي الذي دام عشرة أعوام. ما بين ١٠٠ ألف و١٥٠ ألف لفظوا أنفاسهم الأخيرة في كابول وحدها خلال الحرب الأهلية التي استمرت بين ١٩٩٢ و١٩٩٦، ولكن في مدن الأقاليم والقرى والجبال النائية أيضاً قضى العنف على حياة عدد لا يحصى من البشر. لا أرقام موثوق بها حول هؤلاء الضحايا، بل ليس بوسعتنا حتى أن نحدد عدد سكان أفغانستان اليوم. آخر إحصاء للسكان يرجع إلى سنوات السبعينات. ملايين من البشر قضوا في السنوات التي تفصل بين الإحصاء واليوم، وملايين من البشر الذين فروا من ديارهم، ثم عادوا إليها؟ كتل بشرية دائمة الحركة. كيف يمكن إحصاؤها؟ ويظل السؤال حائراً: كم عدد الضحايا الذين قُتلوا خلال عملية التدخل العسكري في أفغانستان؟

إحصاء عدد الضحايا. " نظرة واحدة على مكتب ثمار تكفي لتنتهم ما تقوله. حتى الآن تخلو حجرات الوزارة من قطع الأثاث، ماعدا غرفتها التي تحتوي على بعض الكراسي والمكاتب، هبة من الأمم المتحدة. خزنة الوزارة خاوية. والوضع في معظم الوزارات الاقصادية الأخرى لا يكاد يختلف عن ذلك. في مثل هذه الظروف لا يتنظر الضحايا الشيء الكثير، ولا حتى أن يقوم أحد بإحصاء عددهم.

بغض النظر عن هذه الأسباب الوجيهة تبقى مشكلة أخرى أساسية: ما المصلحة التي تجنيها حكومة جاءت إلى السلطة بقتال الولايات المتحدة في لم شمل الحكايات التي قد تسبب الحرج للإدارة الأمريكية؟ بل حتى المنظمات غير الحكومية لم تقم بإجراء إحصاء شامل، لماذا؟ جينو سترادا، رئيس المنظمة الإيطالية «إمرجنسي» Emergency، يجيب: "في أيامنا هذه يكسب المرء الحرب بالسيطرة على قطاعين: وسائل الإعلام ومنظمات الإغاثة الإنسانية، وكلا الأمرين تحقق في هذه الحرب."

سترادا جراح يدير مستشفى بكابول تخصصت في علاج ضحايا الحرب. خلال القصف الجوي كان متواجداً هناك. آنذاك شعر بنفسه صعوبة إحصاء الضحايا في أفغانستان؛ بغض النظر تماماً عن وجود شخص ينوي القيام بهذه المهمة. ذات يوم خرفني، وبينما الطائرات الأمريكية تواصل قصفها، كانت ثلاث عشرة جثة تغطي مدخل

Stanley Green: "Death in Grozny. Grozny, Chechnya, January 1995. Outline of a body in the snow"
Reproduction from the catalogue: M_Ars. Kunst und Krieg. Verlag Hatje Cantz 2003
Exhibition at the Neue Galerie am Landesmuseum Joanneum, Graz



الباحث الاقتصادي في جامعة نيوهامبشاير مارك هيرولد قام بإحصاء عدد الضحايا استناداً إلى الأخبار المنشورة عن الحرب، وتوصل إلى حد أدنى يبلغ ٣٧٦٧ قتيلاً بين المدنيين، وذلك في الفترة من ٧ تشرين الأول/ أكتوبر وحتى ٦ كانون الأول/ ديسمبر. ومن الممكن استكمال الإحصاء منذ السادس من ديسمبر/ كانون الأول يسمير. ٢٠ كانون الأول/ ديسمبر: هجوم على قافلة في إقليم بكتيا، ما بين ٥٠ إلى ٦٠ قتيلاً وفق بيانات حلفاء الولايات المتحدة. ٢٩ كانون الأول/ ديسمبر: قصف جوي على قرية نيبازي قالا، ١٠٠ قتيل حسب تقارير شهود العيان. على هذا النحو يمكن استكمال الإحصاء حتى اليوم، فمازالت الحرب مستمرة. في الإحصاء الذي قام به هيرولد، يقول جينو سترادا: "لم يأخذ في الحسبان القصف الجوي على قنصلها الذي استمر عدة أسابيع". العدد الإجمالي لضحايا هذا القصف يقدرهم سترادا 'بخمسة آلاف على أقل تقدير. 'إلا أنه يضيف على الفور: *ولكننا لن نعرف ذلك أبداً.*

الموت أثناء صلاة العشاء

ويبقى سؤال آخر يبحث عن جواب: ما تعريف «الضحية المدنية» في بلد كآفغانستان يحمل كل رجل فيه سلاحاً؟ كيف يمكن أن نحدد من منهم خصم للولايات المتحدة في حربها؟ بالنسبة إلى رجال الجيش المقتنعين بجبري حمل سلاحهم فإن القاعدة التي ربما ارتضوها هي: كل من لقي حتفه تحت القصف الجوي فهو على الأرجح واحد من أعدائنا. "كانت هذه أدق الحروب في تاريخ الأمة"، يقول الجنرال تومي فسرانكس قائد العمليات العسكرية في أفغانستان.

إن عملية مطاردة جلال الدين حقاني، أحد أبرز الشخصيات في نظام طالبان، تبين بكل وضوح مدى دقة القاذفات الأمريكية وحشيتها. كان حقاني واحداً من زعماء الحرب المعروفين تحت الاحتلال السوفيتي، وكان حتى أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ وزيراً للدفاع تحت إمرة زعيم طالبان للملا عمر. بكلمات أخرى كان حقاني صيداً ثميناً، وهدفًا عظيمًا للقنابل الأمريكية. في مساء الثاني عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر أصابت قنابل المقاتلات الأمريكية منزل حقاني ثلاث مرات، النتيجة مقتل امرأة في الثلاثين من عمرها كانت تملاً جزارها بالماء في الحديقة. في اليوم التالي قصفت الطائرات الأمريكية منزلاً في مدينة غارديز لاعتقادها أن حقاني متواجد هناك. في هذه الغارة قُتل أحد خدم المنزل وأحد أقارب حقاني. في ليلة السادس عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر كان أحد المساجد وأحد الكتائب على أطراف مدينة خوست هدفًا للقنابل الأمريكية لاعتقاد

رجال الجيش الأمريكي أن حقاني مختبئ هناك. إلا أن الزعيم الطالباني لم يُصب بسوء، في حين قُتل ١٥ تلميذاً وعشرة أشخاص بالغين كانوا يؤدون صلاة العشاء في المسجد، وكان من بينهم أعضاء في تنظيم القاعدة. في الثامن عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر أغلرت المقاتلات الأمريكية على منزل في قرية طوشا يسكن فيه مولاي سراج الدين. كان حقاني متواجداً بالفعل هناك، لكنه تمكن من الهرب في الوقت المناسب. سراج الدين وعائلته المكونة من أحد عشر شخصاً لقوا جميعاً حتفهم. وفي نهاية المطاف سقطت القنابل في التاسع عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر على مبنى مترامي الأطراف في زينكيل بالقرب من خوست في شرق أفغانستان. زير أمان لن ينسى هذه الليلة طوال حياته. "ها"، يقول وهو يخبط بقدميه على الأرض، "هنا قُتل أربعة من أبنائي. وهناك"، ويشير يده إلى سور متهدم، "هناك ماتت أمي مع زوجات أخوتي وستة من أطفالهن. على أطراف الشارع على بعدة أمتار قليلة من البيت المدمر واري زير أمان ١٢ فرداً من عائلته التراب. إنه يعترف دون لف أو دوران أن حقاني المطارِد كان ضيفاً في بيته. "لكننا لم نعرف أنه هو، ولم تكن لدينا أي صلة بطالبان. نحن سعداء بزوال هذا النظام. ولكننا لم نلجئ من الأمريكيين حتى الآن سوى الموت!"

حتى اليوم ليس هناك أثر يقود إلى جلال الدين حقاني. ملاحظته بأحد الأسلحة حصلت ثلاثة وأربعين مذنباً، ومع ذلك لم يتوقف الأمريكيون عن ملاحقته. بعد مرور شهر على قصف منزل زير أمان حطت ثلاث مروحيات في زينكيل، ثم داهمت القوات الأمريكية عدة منازل. ظل الجنود في القرية حتى الخامسة صباحاً، وعندما ألقوا بالمرحيات كانوا قد ألقوا القبض على أربعة من أقارب زير أمان. ومنذ ذلك الحين لم يثر لهم على أثر.

رحل زير أمان إلى خوست، وذهب إلى المطار حيث أسس الجيش الأمريكي قاعدة عسكرية. هناك حاول أن يسلم الأمريكيين رسالة كتب فيها بخط اليد هذه السطور: "نؤكد لكم أن أخوتي وأقاربي أبرياء. لهذا نرجو منكم أن تطلقوا سراحهم، أو أن تقولوا لنا على الأقل أين هم." لم يجد زير أمان أحداً يقبل استلام الرسالة منه. أما أسماء المخطوفين فهي: خان زير أمان، وغول زير أمان، ومحمد غول، وسراج الدين غول.

ترجمة: سمير جريس

المصدر: "Die Zeit", 12/2002

الحرب على العراق

الرؤية الإيرانية للأحداث

المستوى الدبلوماسي إمكانية الإطاحة بالنظام بمساعدة البلدان المجاورة وبمساعدة سرية من الولايات المتحدة الأمريكية، لكن كل مشروع كانت تقف وراءه الجمهورية الإسلامية كان بالنسبة إلى الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها بالمنطقة باعثاً على الريبة والحذر. والآن، ما هم الأمريكيان يعملون على قدم وساق من أجل تحقيق هذا المشروع من جانب واحد، ولكن هذا أيضاً لا يتوافق مع ما كان يريده الإيرانيون.

"السور العالي للشك"

هذه العبارة التي أطلقها خاتمي في حديث له مع CNN، حول علاقة الجمهورية الإسلامية مع الولايات المتحدة الأمريكية، لم تفقد صلاحيته حتى يومنا هذا، حتى فيما يتعلق بالنوايا الحرةية الأمريكية. فالنوايا والحجج التي أعلنت عنها الولايات المتحدة الأمريكية خلال استعداداتها للحرب، لم تنقن طبعاً لا الحكومة الإيرانية ولا نسبة كبيرة من الشعب الإيراني. فالأهداف المتغيرة للولايات المتحدة الأمريكية تزيد من فقدان الثقة بسياساتها وتجعل من بعض نظريات المؤامرة تبدو كما لو أنها واقعية. لكن ما هي الحجج التي يسوقها الإيرانيون في رفضهم للحرب؟

صدام حسين يمتلك أسلحة الدمار الشامل

سيكون الإيرانيون آخر من يرفض هذه التهمة، فخلال الحرب الإيرانية - العراقية لقي مئات من الجنود الإيرانيين مصرعهم بسبب استعمال العراق لأسلحة كيميائية، ومازال الكثيرون منهم يعانون

من تشوهات وصعاعات بسبب تلك الأسلحة. ما يثير غضب الإيرانيين هو أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تحرك ساكناً عندما استعمل صدام حسين تلك الأسلحة ضدهم. بل خلاف ذلك، عرض عليه دونالد رامسفيلد شخصياً

يكتسب الأسلوب، الذي تعاملت به الجمهورية الإيرانية مع الحرب في العراق، أهمية خاصة بالنسبة إلى التطور المستقبلي للمنطقة. فإيران من البلدان الكبرى في الشرق الأوسط، ذات الكثافة السكانية العالية، وتجمعيها حدود طويلة مع العراق، تعيش على جانبيها قبائل تتحدر من نفس الإثنيات. وتأوي، إضافة إلى ذلك، أكبر معارضة شعبية مسلحة لنظام بغداد، وقد اضطرت في التسعينيات من القرن الماضي للدخول في حرب طويلة وخاسرة ضد الجار العراقي، انتهت بإعلان لوقف إطلاق النار. ويختلف موقف إيران لهذه الأسباب من الحرب عن موقف البلدان العربية والإسلامية الأخرى بالمنطقة. وفي الوقت الذي تساند فيه حكومات البلدان العربية بالمنطقة طوعاً أو كرهاً الحكومة الأمريكية في حربها ضد العراق، وفي الوقت الذي تتظاهر فيه شعوب هذه البلدان ضدها، فإن إيران، حكومة وشعباً، تقف موقف الرفض للحرب الأمريكية ضد العراق. لكن هذا الرفض ليس نهائياً، فالوقف يشير إذا ما تلقى الأمر بالإطاحة بصدام حسين ونظامه. وهذا أيضاً يجعل الجمهورية الإسلامية تختلف - لرأيا باستثناء السعودية والكويت - عن البلدان العربية. ففي اللحظة التي يتم فيها الاحتفاء بصدام حسين من طرف شعوب بعض البلدان العربية كبطل للجماهير العربية، وكمنوال للصمود ضد المستعمرين الجدد، فإن المرء في إيران يعتبره مجرم حرب، لم يتورع عن استعمال أسلحة الدمار الشامل ضد أبناء شعبه، دون الحديث عن البلدان التي هاجمها. إنه نفس رأي الحكومات العربية، ولكنه رأي لا يتم التعبير عنه صراحة، بسبب الشعبية الكبيرة التي يتمتع بها صدام خارج العراق لدى الجماهير العربية.

يرجع موقف الجمهورية الإسلامية المتناقض من الحرب في العراق إلى علاقتها بالولايات المتحدة الأمريكية وبالعراق معاً. ولو أن جهة أخرى غير الأمريكيان هي التي تخوض الحرب ضد العراق، لوقتت إيران بصفتها ولو بشكل غير مباشر. ليس من الطبيعي أن يقف المرء في إيران موقفاً إيجابياً من كل عملية تستهدف الإطاحة بنظام خاض ثماني سنوات من الحرب الدعوية ضد الجمهورية الإسلامية الناشئة؟ ومع نهاية الحرب بحثت حكومة رفسنجاني على

هذا المشروع ليس موجهاً ضد الإسلام ولا ضد الغرب. إنه محاولة قبول التثليل النفسي لمعالجة الرهاب (التوريب) في المجتمع الغربي والشرقي، عبر كشفه وتفكيكه. إننا نحاول في المشروع الإسلامي (AES «شاهد على المستقبل») أن نسلط الضوء على الأخلاقيات والجماليات المتناقضة في عصرنا. فنحن نؤمن بأن الفنون المعاصرة لا تنجح حولاً لاختلال عصرنا، لكن بتقدمها طرح أهم الأسئلة.»



AES (Tatiana Aramasova, Lev Erzovich, Evgeny Soyatsky), "New Freedom, 2006" (1997).
 From: Islamic Project, Nova Jet Print/Lwd., 138 x 95 cm. Courtesy Galerie Sollertis, Toulouse.
 © VG Bild-Kunst, Bonn 2003

الامن الدولي نفسه، الذي تدهي العمل على تحقيق قرواته، بتجريد من كل أهمية إذا لم يعمل على المصادقة على ما تريده. إنها فعلاً حرب عدوانية في حطام الدبلوماسية. فبعد نهاية الحرب الباردة تبعت الآن الحرب الحقيقية، كاستمرار للدبلوماسية بوسائل أخرى، وعلى منطقة بكاملها أن تتحمل، جراء ذلك، حالة من عدم الاستقرار. الحلفاء يلقون بقنابلهم وعليناً نحن البلدان المجاورة أن نتحمل العواقب (معارك على الحدود وتدفق للاجئين).

لا بد من الحرب الوقائية

لماذا تشعر الولايات المتحدة الأمريكية بأن العراق يهددها ولا تشعر بذلك، الدول المجاورة التي سبق للعراق أن هاجمها مثلاً؟ إن الأمر يتعلق بالمستقبل وليس بتهديد مباشر. القائد السابق للقوات الأمريكية بأوروبا، ويزلي كلارك، لا يرى أن العراق يمثل أي تهديد. مستشار كلينتون السابق لشؤون الأمن القومي يرى أن الهجوم على العراق لن يستفيد منه سوى الإرهاب. حرب وقائية باسم هذه الحجة الراحة هي بمثابة خرق للقانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة. فما هو مسموح به هو الحرب الدفاعية، وإضافة إلى ذلك، يتوجب على القوة العظمى أن تنظر إلى الحرب الوقائية من زاوية أخرى، فمثل هذا الأمر يدعو للتخوف من أن تصبح هذه الحرب منهجاً يحتذى، وأن يشجع ذلك بلداناً مثل الهند وباكستان وإسرائيل على القيام بضمرة نووية وقائية.

الحلفاء يريدون ديمقراطية العراق

إن هذا الهدف الجديد المعلن للحلفاء، الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، يدور بالنسبة إلى الإيرانيين غير جدير بالتصديق. فلا أحد من هذين البلدين قد ساهم في خلق علاقات ديمقراطية بالمنطقة. العكس هو الصحيح، فالبريطانيون أوصلوا عن طريق انقلاب سنة ١٩٢١ قائد القوزاق رضا خان إلى سدة الحكم، وبعدة التنتين وثلاثين سنة بعد ذلك، دبر جهاز المخابرات المركزية الأمريكية انقلاباً ضد رئيس الوزراء المنتخب ديمقراطياً "مصدق" وأعاد الشاه مرة أخرى إلى السلطة، ليحكم إيران لوحده حكماً مطلقاً حتى سنة ١٩٧٩. وحلفاء الولايات المتحدة الأمريكية بالمنطقة هم أبعد ما يكونون عن السلوك الديمقراطي. وإضافة إلى ذلك، فإن المرء يعتقد في إيران أن واشنطن، ونسجراً إلى المعطيات الديمغرافية في العراق (٦٥ في المائة شيعة، ٢٠ في المائة سنة، والبقية أكراد وتركمان) لن تحترم إرادة الشعب التي من شأن انتخابات ديمقراطية أن تقررها. فسيب تخوفها من قيام دولة شيعية ثالثة في المنطقة إلى جانب إيران، عمدت إلى وقف رشح الجنرال شوارتزكوف على بغداد

يد المساعدة. ولم يتذكر المرء ذلك إلا حين تحول حليف أمريكا بالأمس إلى عدو. لماذا تكيل الولايات المتحدة الأمريكية بمكيالين؟ لماذا لا تعمل على نزع أسلحة الدمار الشامل من كل بلدان الشرق الأوسط؟ إذن، الأمر لا يتعلق بأسلحة الدمار الشامل. إن هناك أهدافاً أخرى تحت السطح.

صدام مجرم حرب

حقاً! ولكنه مجرم حرب منذ ٢٥ سنة! ف نظامه هو الأول في العالم الذي استعمل أسلحة كيميائية. وبسبب حروبه العدوانية، دفع مليون شخص حياتهم. ولكنه لما كان حليفاً لأمريكا، تم تسويق نظامه كحصن حصين للغرب. ففي المرحلة التي عُدل فيها مصالح القوة العظمى، تمت مساعدته بكل الوسائل. لقد خلق المرء من صدام حسين فراكتشيان الرقيب، الذي يتوجب اليوم التخلص منه. لماذا لم يتم إعلانه مثل ميلوروفيتش مجرم حرب ولم يتم العمل على تقديمه للمحاكمة؟ إذن، إن الأمر لا يتعلق بالتخلص من مجرم، ولكنها سياسة السيطرة.

إن جهاز المخابرات المركزية الأمريكية نفسه لا يتفق مع فكرة أن صدام حسين له علاقة مع ما حدث في الحادي عشر، من أيلول/سبتمبر؛ بل خلافاً لذلك، يرى رئيس هذا الجهاز أن الحرب ضد العراق سوف تدمر الإرهاب. إن أسامة بن لادن يعتبر صدام حسين كاسراً شأته في ذلك شأن كل حكام المنطقة الذين يتوجب إعلان الجهاد عليهم. الحقيقة إن صدام حسين يدعم بطريقة غير مباشرة نوعاً آخر من «الإرهاب» في الوقت الذي يدمم فيه مادياً أمر الانتحاريين الفلسطينيين في إسرائيل. هذه التهمة الحقيقية تأتي من إسرائيل ويتم استعمالها في سياق خاطئ من طرف الولايات المتحدة الأمريكية. وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية جادة في محاربتها للإرهاب، فعليها أن تساعد في القضاء على الأسباب التي تكمن خلفه. وهذه الأسباب توجد في فلسطين. إنه لمن المؤسف أن الإرهاب أصبح أداة الحرب الوحيدة للقراء، وأن الحرب على الإرهاب هي حرب الأغبيا.

صدام حسين لا يحترم قرارات مجلس الأمن

تبدو هذه الحجة، من وجهة نظر إسرائيلية، غير جديرة بالتصديق. فالولايات المتحدة الأمريكية وقفت لسنوات طويلة ضد إدانة مجرم صدام حسين على إيران وضد اتخاذ عقوبات بحق من طرف مجلس الأمن الدولي. وهي لم تستنكر تجاهل إسرائيل سنوات طويلة لقرارات الأمم المتحدة، وهي نفسها أعلنت الحرب على بلد دون الحصول على موافقة الأمم المتحدة. الولايات المتحدة تهدد مجلس

وهاجم أحد أعضاء هذا الحور رغم المعارضة العالمية، من أجل إعادة ترتيب الأمور هناك من جديد، وليس فقط هناك، فإنه لا يسهل على العجب إذا ما اعتبر حكام طهران أنفسهم الهدف القادم إذا ما كللت الحرب الأمريكية في العراق بالنجاح، سيكون ذلك أيضاً مناسبة لتسديد ديون قديمة على الجمهورية. فليران تسعى إلى إنتاج أسلحة نووية، وتدعم الإرهاب، وتعرقل عملية السلام بالشرق الأوسط وتنتهك حقوق الإنسان. التهمة الرابعة هي فقط للترتين، لذلك يمكن التخلي عنها. كما هو الحال بالنسبة إلى العديد من بلدان المنطقة - إذا ما توقفت إيران عن سلوكها العدواني الذي لم يتغير منذ ٢٤ سنة. ولكن تهمة واحدة من التهم الأخرى كافية لدفع الولايات المتحدة الأمريكية للانتقام من عدونها للدولة إيران التي تعرضت بسببها للإهانة والإذلال خلال وبعد الثورة الإسلامية.

أولريش لادورنر يعمل صحافياً في إسبوعية "دي تسايت"، الألمانية.

ترجمة: رشيد بر طيب

المصدر: Die Zeit, 12/2002

سنة ١٩٩١، فالقضاء النهائي على نظام الحكم في بغداد يعني وضع حد لحكم الأقلية السنّة للبلد وتولي الأغلبية الشيعية حكم البلاد. وسيكون من سخرية التاريخ أن تشارك الكويت والسعودية بالذات، كحلفاء سابقين في حرب الخليج الأولى، في بناء نظام ديمقراطي في العراق بقيادة شيعية. لكن المعطى الديمغرافي لم يتغير، إلا إذا كان الأمريكيان يريدون تحويل العراق فعلاً إلى محمية لهم، يتولى الحكم فيها جنرال أمريكي، ويتم إعادة تنظيم المنطقة بأكملها على هذا النموذج. ما هو الجديد الذي سيبتج عن ذلك، سيظل هذا سراً خاصاً بهم.

الحجج ليست دائماً أسباباً

الذي يعرف الحقد الإيراني على صدام حسين، سيمتجب من الحساس الكبير الذي أدانت به الجمهورية الإسلامية الهجوم الأمريكي على العراق. إن الولايات المتحدة الأمريكية تحارب ضد عدوين لدودين لإيران، هما طالبان والعراق، ونهايتهما لن تحزن أحداً في إيران، ولكن الأمور مع ذلك معقدة جداً. فالجمهورية الإسلامية تشعر بالتهديد بسبب التواجد العسكري الأمريكي بالمنطقة، وأنها محاصرة من أربع جهات بسبب هذا التواجد الأمريكي في أفغانستان، وسط آسيا، الخليج الفارسي والآن بالعراق. ولأن الرئيس بوش قد حسب إيران أيضاً على محور الشر،

Anja Niedringhaus: "Albanian tank, Kukes, Albania, 3.6.1999". Museum für Moderne Kunst, Frankfurt a.M.
Reproduction from the catalogue: M.Ars. Kunst und Krieg, Verlag Hatje Cantz 2003.
Exhibition at the Neue Galerie am Landesmuseum Joanneum, Graz.



حين أصبح الإغريق وقحين

أوروبا والولايات المتحدة

كيف تنصرف الدول الصغيرة إزاء قوة عظمى؟ ما أن يهزمها الغازي، حتى تعقب ذلك الوقائع القديسة من مقاومة وتحسّر أو إستسلام وخضوع. وحين تكون تلك القوة العظمى دولة صديقة ومُحررة، فإن ذلك يفضي إلى مشاعر متباينة. كتب ألفريد غروسر قائلا: "كل رجل دولة أوروبية غربية أسير شعورين متناقضين: فهو من ناحية يشعر بالارتياح، لأن الولايات المتحدة الأمريكية موجودة، ومن ناحية أخرى يشعر بالتنبّط، لأن حياة ورفاهية مواطنيه مرهونة إلى حد كبير بقرارات يتخذها رئيس دولة أجنبية بعيدة."

وهذه مشكلة أولية. في إطلالة صيف عام ١٩٦ قبل الميلاد، وفد كل وجهاء وأعيان البلاد إلى كورينث، ليمسّموا ما قرّره روما بشأن اليونان. إن أهل اليونان طيلة قرن ونصف القرن عرضة لإضطهاد ملوك مقدونيا، والآن حارب الرومان الطاغية فيليب الخامس وأجبروه على التنازل عن كل ممتلكاته في اليونان. لقد خاضوا هذه الحرب من أجل حرية اليونان، لكن كل التجارب تشير إلى أنه يتم فقط استبدال سيد بآخر.

مع صوت البوق أمر المناادي المجتمعين بالصمت وتلا رسالة مجلس الشيوخ: "إننا نمنح الحرية والإدارة الذاتية، من غير أن نسمع بالاحتلال ومن دون المطالبة بدفع جزية"، ثم تبع ذلك أسماء المدن والشعوب التي كان يحكمها حتى ذلك الوقت المقدونيون. كثيرون لم يصدقوا ما سمعوه، فكان على المناادي أن يتلو رسالته مرة أخرى، ثم تفجّر، حسب ما رواه المؤرخ بوليبيوس، صخب يصم الأذان بطريقة تجعل من المستحيل، إعطاء تصور للقارئ المعاصر.

وفي الرومان بوعدهم: قاموا بحل القضايا الملتبسة في بلاد اليونان وسحبوا فيالهم بعد سنتين من ذلك. صنعوا السلام، بيد أنهم وحدثهم من استطاع أن يحافظ على هذا النظام. كان عليهم أن يلعبوا دور الحامي والوسيط والحكم وسرعان ما أبقوا على دورهم الأخير. فللحرر أضحي سيلا، والمتحررون انتابهم مشاعر متناقضة، على حد وصف غروسر.

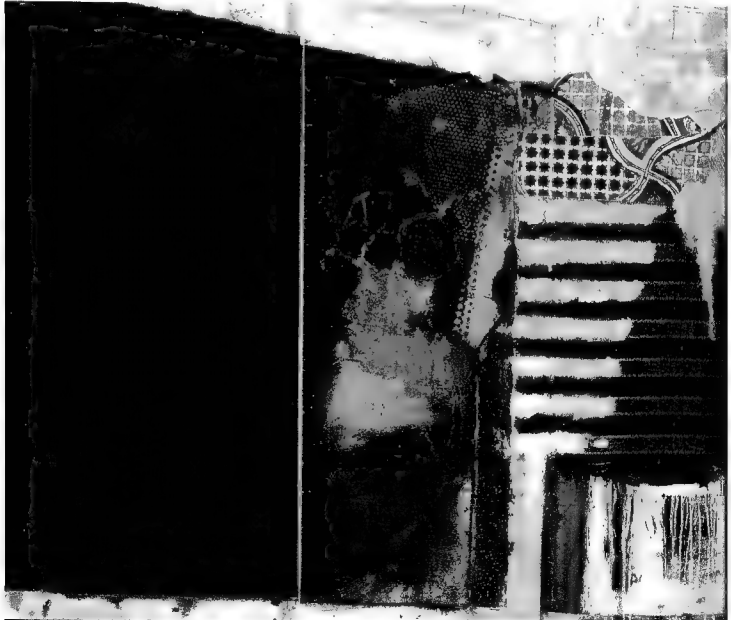


ألم أنه، على العكس من ذلك، من مصلحتنا، أن نقاومهم، طالما كنا نستطيع فعل ذلك؟ نحن نستطيع ذلك، لأننا قد برهنا بشكل ساطع، أننا حلفاء للرومان يعتمد عليهم!" حين نضع هنا بدل كلمة «الرومان» كلمة «الأمريكان»، يصبح هذا نقاشاً راهناً لسانة أوروبا في علاقتهم بأمريكا. الظروف والصعوبات تبدو متقاربة. فما أشبه اليوم بالبارحة: كلا الطرفين يتحدثان كثيراً عن الصداقة والتضامن الثابت ضد عدو قوي، الرومان والإغريق ضد القوى العظمى المتتلة في المحدثين والسوريين، أمريكا وأوروبا الغربية ضد الاتحاد السوفيتي. بيد أنه منذ تم التغلب على الأعداء، أخذ الحلفاء الصغار يحسون باضطراب بتبعيتهم. فلا الرومان ولا الأمريكيون جحدوا استقلالية الإغريق والأوروبيين. فالرومان لم يكن لديهم حتى جيش في بلاد اليونان، أما الأمريكيون فإن لديهم وحدات عسكرية في أوروبا، وهي موجودة بناء على رغبة الأوروبيين أنفسهم. في الواقع هناك من يناصب روما العداء، خاصة في أوساط الشارع الاجتماعية الفقيرة،

إلى ذلك عبر مياميسان من اتحاد المدن الإغريقية القديمة في بلوبونس عن مشاعرهم. قال أحدهم: "هناك مالتان مهمتان في السياسة، وهما: الكرامة والمفعة. من يقوى على حفظ كرامته، عليه أن يفعل ذلك. ومن لا يستطيع ذلك، عليه أن يكتفي بمراعاة مصالحه. لكن أن نخطئ في هذه المسألة وتلك، فهذه سياسة خاطئة. ويقع في إثم إزاء هذه السياسة، من يلي كل أمر بلا قيد ولا شرط، بينما يقوم بتفصيله كارهاً ومتسرعاً. لذلك فإن أمامنا خيارين لا ثالث لهما: إما أن نثبت، أننا قادرون على أن نقول لا، أو أن لا يتجرأ أحد منا، على ادعاء ذلك. حينذاك علينا أن نلبي كل رغبات الرومان عن طيب خاطر."

أما قائد الحزب الآخر فقد استخلص نتائج عكسية: "أنا لست غريباً عن هذا العالم إلى هذا الحد، بحيث لا أميز بين قوة الرومان وقوتنا. لكن لكل قوة عظمى ميول طبيعية لاضطهاد المخلولين بشدة وباستمرار. فما هي مصلحتنا هنا يا ترى؟ أهليتنا ألا نقاوم تلك الميول، وإنما أن ندعمها، بحيث نصبح في القرب العاجل مجرد العوبة بيد الرومان؟

Mohammed Omar Khalil: "Under the Sun, 2000". Reproduction from the catalogue Broker Letter Contemporary Art from Arab Countries. Exhibition at the Kunsthalle Darmstadt 11.3.-21.5.2003



وكذلك هناك نزعة عداء لأمريكا، بيد أن كل المسؤولين السياسيين مقتنعون بضرورة التحالف مع روما وأمريكا. كان على كلا الطرفين، بالطبع، أن يتساعلا في الماضي والحاضر: ماذا يمكننا أن نفعل، من دون الرجوع إلى روما أو واشنطن في هذه المسألة أو تلك؟ على نطاق السياسة الداخلية في كل شيء تقريباً، ولكن في عمل القليل على صعيد السياسة الخارجية. اتخذ الاتحاد اللد الإغريقية القديمة يتورط في نزاع مستمر مع روما، كلما حاول أن يضم بقية المدن الإغريقية إلى الاتحاد.

كان مجلس الشيوخ في روما يتدخل باستمرار في نزاعه الدائم مع اسباطرة، سيمارس الآورويون ويدخلون في نزاع مع واشنطن، أن هم أتبعوا مع إيران سياسة مغايرة، لما تستحقه «دولة الأراغاد».

متى وإلى أي مدى يمكن قول لا، حين ترغب القوة العظمى بشيء ما؟ لا ريب من ذلك في المسائل الاقتصادية، في القضايا الثانوية أحياناً، في القضايا الجوهرية أبداً، وما هو جوهرى، تقررته روما وواشنطن. يوصي بعض الإغريق بعدم انتظار تلقي أوامر الرومان باستمرار، إنما أن يسيقوهم بماديين بين الحين والآخر، هذا يعني في جمهورية ألمانيا الاتحادية "التصليح في إعلان الطاعة". فريق آخر من الإغريق يرى، إذا لم تنفع كل المفاوضات والالتزمات للوصول إلى تفاهم، علينا أن نذهن، شريطة أن يكون ذلك مشفوفاً باحتجاج.

ما العمل، حين تتعارض رغبات الرومان مع الدستور؟ يقول ليكورتاس قائد الحرب، أهلى منصب يطرح على الآخرين، إن أوفسحنا للرومان، أن على الإغريق أن يقرقوا دستورهم، كي يلبوا أوامر مجلس الشيوخ، فإنهم سيفهمون ذلك. بيد أن الرأي المضاد يرى، أن لا القسم ولا القانون ولا الميثاق المحفور في الحجر سيكون له مفعول أكبر من إرادة الرومان. الدستور الألماني يحرم عقوبة الإعدام. لهذا يطرح هذا السؤال: إلى أي مدى يمكن وحقق لآلمانيا أن تقدم مساعدة رسمية للولايات المتحدة الأمريكية في قضية حول الإرهاب، يكون المتهم فيها مهندداً بعقوبة الإعدام؟

ماذا يحدث، عندما تخوض القوة العظمى حرباً، لا تروق للحليف الصغير؟ حين خاضت روما حرباً ضد بربوسيس، ملك مقدونيا عام ١٧١، نادى حزب روما المتطرف في اتحاد المدن الإغريقية القديمة بدعم بلا حدود، بينما كانت الأكثورية ترى، على عكس ذلك، أنه لا ينبغي تقديم مساعدة عسكرية إلا بناء على طلب صريح.

ماذا ميصنع الآورويون، إذا هاجم الرئيس بوش العراق؟ أيرسلون جنوداً بمحض إرادتهم أم لا يكون ذلك إلا بناءاً على طلب؟ جنود للمشاركة في الحرب أم لمجرد حفظ

النظام بعد الحرب؟ هل يتحملون تكاليف الحرب ويقومون، فيما بعد، بإزالة حطام القنابل الأمريكية؟ الرفض قد يؤدي إلى العزلة، وقد تفضي الحماسة إلى الإحراج. مثلما قامت روما بإعادة الجنود الإغريق الخمسمائة، التي سبق لها أن طلبتهم، إلى بلدهم، كذلك تجاهلت أمريكا تجاهلاً تاماً المساعدة التي تقدم بها أعضاء حلف الناتو الآورويين.

كان الإغريق، آنذاك، كآأورويين اليوم، يرون أنفسهم واقعين في نفس مواطن الضعف، كان إنعدام وجود وحدة إغريقية شاملة أكبر بكثير من إنعدام وجود سياسة خارجية موحدة للإتحاد الآورويي. مما سهل كثيراً على الرومان والأمريكان، أن يوقعوا بين حليف وآخر، فيكافون المتحمسين ويحاقبون من يصعب قياده، لينتهي رعا إلى عزلة حتى في معسكره بالذات.

كثيراً ما كان وما يزال يتم تحاشي نشر التباين في وجهات النظر التي لا تتسجم مع مواقف القوة العظمى في البلد المعني، إنما يجري إبلاغها مباشرة إلى القوة العظمى. طالب المصماري الإغريقي كاليكراتس روما بكل صراحة بالتدخل في بلاد اليونان: "إذا ما اكتفى مجلس الشيوخ بمجرد إعطاء إشارة استنكار، فإن متقلدي روما سيفيرون رأيهم على الفور، وينضمون إلى حزب روما، وستلحق بهم الجموع من خوف، لا عن قناعة". بيد أن آدموند شتوير لن يصل إلى هذا المدى، حين يزور أمريكا، ليعلم هناك بوضوح: "أن تعكير صفو العلاقات مع أمريكا لا يمثل المجتمع الألماني بمرته"، لكنه سيعلم كذلك الشقاق القائم على الصعيد الداخلي في ألمانيا أمام القوة العظمى، التي يجري النزاع حولها. ستصبح روما وأمريكا أكثر قوة والحلفاء الصغار التابعون أكثر تبعية.

من ناحية أخرى يعدد الرد المحدث على صعيد السياسة الخارجية "لدى الشعب موقفاً مشرفاً وسليماً"، وهذا ما يستتله السياسة الإغريق. كان غيرهارد شرودر هو الآخر يعترف، أن الرفض الحاسم لحرب أمريكية على العراق ستجلب له أصواتاً. في كلا الحالتين تتداخل، وفقاً للمفهوم المعاصر، الاعتبارات الاجتماعية والوطنية مع بعضها البعض. مع تنامي اليأس في بلاد اليونان، اقتصر تشجيع الرومان على المؤسسات فقط. النقد الآوروي الموجه إلى أمريكا لا يستهدف القوة العظمى فحسب، وإنما السيطرة الرأسمالية أيضاً.

بيتر بندر مؤرخ ألماني ولد عام ١٩٢٣.

ترجمة: علي أحمد محمود

المصدر: Kafka, Nr. 8, 2002

سوء تفاهم ذو جذور

الفروق في الثقافة السياسية بين ألمانيا وأمريكا

وحدوث فرضى سياسية واجتماعية غير عادية. وتبين أن الدولة هي المؤسسة الوحيدة التي لديها السلطة الكافية للحفاظ على وحدة المجتمع. وعلى هذا الأساس لما الاعتقاد بأنها ملزمة بممارسة دور نشط. وكانت إجراءات الحماية والرعاية المتوقعة تجاه شعب مظلوم ولديه الاستعداد الكامن للتمرد، تعد في القرن التاسع عشر إجراءات معقولة وضرورية على الصعيد السياسي. لا بد للدولة أن تكون هي القوة المحركة وراء مطالب «المسؤولية الاجتماعية» و «العدالة الاجتماعية»، ولا بد أن تلعب دوراً نشطاً في توجيه الاقتصاد، لمجابهة عدم الاستقرار الاقتصادي بصورة فعالة. تُلقِي هذه الفروقات النموذجية بظلالها الطويلة لتصل إلى الوقت الحاضر. لقوانين الحرية الشخصية وحرية التعبير عن الآراء السياسية وحماية الفرد من الدولة ثاني في ألمانيا، مقارنة بالولايات المتحدة، في مرتبة أدنى، بعد مطالبة الدولة بتحقيق العدالة الاجتماعية وتوفير الحد الأدنى من التضامن الاجتماعي، وضمان أساس المعيشة للأفراد وتوزيع ثروات المجتمع بالتساوي. وبينما تدور المناقشات السياسية في ألمانيا، في أحيان كثيرة، حول أفضل طريقة لتخفيف المظالم الموهومة للنظام الرأسمالي، تركز المناقشات في الولايات المتحدة أكثر على تأثير الدولة في الحريات الفردية وفي المسؤولية الشخصية للفرد عن ذاته. وفي الواقع هناك فرضية منتشرة في الولايات المتحدة ترى أن البشر قادرين على التعامل مع تحديات الرأسمالية. هذه الفرضية تعوق تطوير أخلاق خاصة بالمسؤولية الاجتماعية والعدالة الاجتماعية.

ويشكل تراث الكاثكس والطوائف البروتستانتية الزاهدة (اليوونانية)، ومنها المعمدانيون والمصلطون والبريستريون والميثوديون والكويكرز، ليومنا هذا، مركز الثقل في الحياة السياسية بالولايات المتحدة. وقد شعر المؤمنون في هذه الجماعات الدينية بالانتماء عميق في كل مجالات الحياة اليومية واتبعوا بهزم تعليمات الرب حيث اعتبروا أنفسهم مكلفين بمهمة نبيلة وهي تمجيد الرب على الأرض وتأسيس مملكة السماء. وحيث إن المؤمنين كانوا أيضاً هم الذين يقررون لأنفسهم إن كانوا قد بلغوا «خلاصهم» أم لا، أصبح الاعتماد على الذات أمراً مرغوباً. لم يبق أي قس بالتوسط بين المؤمنين وروهم، لأن الاعتراف قد انفي

هناك اعتقاد سائد في الولايات المتحدة بأن المجتمعات الديمقراطية التي تعتمد على اقتصاد السوق تشبه إلى حد كبير النموذج الأمريكي أو أنها مستصير في القريب العاجل شبيهة به. إنهم يعتقدون أن «الضرورات الموضوعية» التي تفرضها كل من الرأسمالية والديمقراطية، تؤدي إلى تلاشي كل الفوارق التاريخية والثقافية. ويمكننا، على المستوى العالمي الحديث فعلاً عن «التطابق». لكن إذا دققنا النظر في الفجوة بين الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من الدول الديمقراطية التي تعتمد على اقتصاد السوق، فسنتكشف على الفور فروقاً واضحة، وستبين أن جوانب «الاختلاف» أكبر. ما هي الفوارق ذات الخصوصية في الثقافة السياسية لألمانيا والولايات المتحدة؟ وكيف ينشأ، بناء على تلك الفوارق، هذا النوع من «سوء الفهم المتجذر» بين ألمانيا وأمريكا؟ يركز هذا التحليل على محورين أساسيين: مفهوم الدولة وتصنيف السلوك «السياسي - الأخلاقي».

في الولايات المتحدة تم تحديد مفهوم الدولة منذ البداية بطريقة فريدة. فميشاق الحقوق Bill of Right وقوانين الحريات السياسية يشكلان جوهر وجود هذه الأمة الحديثة. وقد اهتم الآباء المؤسسون للدولة الأمريكية اهتماماً كبيراً بمنع تدخل الدولة في عمليات التطور الاجتماعي. فمهمة الدولة هي ضمان أن يتم هذا التطور في هدوء من خلال حمايتها للنقاش الحر وتبادل الآراء علنياً. وقد كان الأمريكيون في بداية تأسيس الدولة على قناعة بأن تطور المجتمع العادل الخير، سيتم من خلال تخلي الدولة عن أية محاولة للتأثير في التحولات الاجتماعية والاقتصادية. كان التقدير الكبير لقيم تحمل المسؤولية والاعتماد على الذات والإيمان القوي بقدرة الإنسان الفرد في التغلب على الصعوبات، من الأفكار السائدة في ذلك الوقت. ورغم توسع الرأسمالية السريع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وما تبع ذلك من مليارات، فإن هذا لم يدفع بالأمريكيين إلى التراجع عن مفهومهم الخاص عن تدخل محدود للدولة واعتماد كبير على الذات.

وذاك التعريف للدولة يتناقض بشكل صارخ مع المفهوم الألماني للدولة. فوفقاً للاعتقاد الألماني، أدى كل من الرأسمالية والتمدن والمعلمة إلى زعزعة المجتمع القديم،

مع تطور المدن وتراجع البروتستانتية الزاهدة فقدت هذه المعايير قيمتها. رغم ذلك لا تزال تنعم بالحسوبة والاستمرارية في الأوساط العائلية وبين الجيران والجمعيات الأهلية. وبهذه الطريقة استمر وجود قيم التضامن الاجتماعي في صورة مثل علمانية كمبدأ العدالة العامة، والإنصاف، والطمانينة الاجتماعية، وتكافؤ الفرص وأصبحت مثلاً عامة civic ideals وخلقاً عاماً civic ethics. بعبارة أخرى، رغم أنه كثيراً ما يساء استخدام هذه المثل وكثيراً ما تنتهك، فقد غدت معياراً للسلوك، وغدت الأمل في إمكانية وجود تعامل على أساس أخلاقي في مجالي السياسة والاقتصاد. وبهذه الطريقة تصبح للمواطن القدرة على المساهمة في تطبيق هذه المثل، من وقت لآخر وأحياناً في مواقف حاسمة. لا تزال هذه القيم التكاملية للمجتمع المدني فعالة ويمكن التعرف عليها بوضوح ليومنا هذا. ولهذا التأكيد على تلك القيم العامة تأثير محدد، فنظراً إلى الثقافة السياسية الأمريكية تعول بدرجة كبيرة على الحرية

وبذلك صار سلوك المؤمنين مراقباً في تفصيلاته من قبل كل أعضاء الكنيسة أو الطائفة. وبناء على ذلك كان عليهم أن يتجنبوا كل السلوكيات المردولة. وبذلك نما الدافع إلى التحلي بالخلق الحسن، أو على الأقل إعطاء الانطباع بذلك. وإلى جانب المسؤولية الشخصية كانت هناك ملامح أخرى تميز بها الاعتقاد الديني الحقيقي وهي التعامل بانفتاح شديد وعدل وثقة بالآخر - فنحن جميعاً أبناء الله ولذلك يجب أن تتم معاملتنا بسرية نقية واحترام. أصبحت البروتستانتية الزاهدة من دعاة هذه القيم الأخلاقية وتخللت هذه القيم، طمعاً في مملكة السماء، العلاقات الفعسية المميزة للسياسة والاقتصاد وقد أدت إلى تفسير هذه العلاقات. وهكذا صار للاعتقاد الديني بهذه الطريقة توجه للمجتمع المدني، بل وللإقتصاد. في الأماكن التي هيمنت فيها هذه الكنائس والطوائف، صارت القيم المبينة على التضامن والتكافل، كالاتفتاح والعدل والثقة، هي المعيار للسلوك الأخلاقي.

Edward Hopper "Gas", © Photo SCALA Florence, The Museum of Modern Art, New York, 2002 . "مزين"



المستوى الشخصي، بأنهم هم وحدهم مسؤولون مسؤولية كاملة عن حياتهم، ومن ناحية أخرى تؤثر قيم الانفتاح والإنصاف والطعنانية الاجتماعية، بسبب الاتجاه الجواني للزهد، بدرجة كبيرة ومكثفة على مستوى التعامل اليومي للمؤمن، وتصبح ثقلاً مضاداً للعلاقات النفعية. بدلاً من ذلك جاءت في ألمانيا مع العمران والعلمنة وتطور الرأسمالية الحديثة في القرن التاسع عشر، عادات شبه إقطاعية تتميز بالخصوصية والهيراركية على المستويين الشخصي والإجتماعي. وهذه التوجهات السلوكية لم تقص إلى وجود ثقل مضاد تتناسب مع حسابات المنفعة الخاصة للعلاقات بينها، يمكن تطويعه مع انتشار الرأسمالية الحديثة. وهكذا ساد الاعتقاد بضرورة تنشيط جهاز الدولة القوي بأكمله لخلق هذا الثقل المضاد، وعلى وجه الخصوص بسبب العلمنة المتنامية في المجتمع. تبعاً لذلك ظهرت الدولة والقوانين كمرجعية أساسية للأمان الاجتماعي والإنصاف ولعلاقات عامة، على عكس ما هو الحال في الولايات المتحدة حيث شكلت الكنائس والطوائف هبة للمرجعية. ومن ضمن الالتزامات الأخلاقية للدولة الألمانية تنفيذ مجمل القوانين والتشريعات، وضمان تساوي الجميع أمام القانون، والتحكم في السياسة الاقتصادية الرأسمالية وتوجيهها، ودعم المساواة الاجتماعية والرفاهية والتضامن الاجتماعي من خلال مجموعة من الإجراءات.

وهكذا صارت الدولة في ألمانيا من أهم مرجعيات السلوك السياسي الأخلاقي. ولربط وبلمرة ما هو «أخلاقي» بكيان الدولة أثران مهمسان، يبرزان أكثر الفوارق بين ألمانيا والولايات المتحدة. صار السلوك السياسي، الأخلاقي أكثر تركيزاً، وارتبطت شرعية المجال السياسي ارتباطاً وثيقاً بنجاح الدولة في التخفيف من حدة السلبات والمظالم الناتجة عن الرأسمالية والعلمنة والعمران. وفي حين تضم «الساحة السياسية» في الولايات المتحدة مجموعة كبيرة ومتنوعة من الجمعيات الأهلية تمر عن مثلها الأخلاقية المتصارعة مع السلوك النفعي والعلاقات النفعية المضفة، تقوم الدولة والأحزاب السياسية في ألمانيا بهذا الدور.

ما هي المشكلات، ونقاط الضعف والقوة في الثقافة السياسية الأمريكية المعاصرة؟ نظراً إلى أن السلوك السياسي الأخلاقي المتغلغل في المجتمع الأمريكي يتمثل في الصراع الدائم بين المثل الحلقية العامة وحسابات المنفعة الأنانية، ونظراً إلى أنه لم يرتبط لذلك أبداً بصورة وثيقة بالدولة وإجراءاتها، لم يكن ممكناً لدولة الرعاية الاجتماعية الشاملة أو الدولة التي تعتمد نظاماً اقتصادياً مختلطاً أن تحصل على شرعيتها. لم يمكن للتركيبة المكونة من الدولة الضعيفة والاعتماد الكبير على الذات، أن تحمي المواطنين من الاكسارات العديدة التي لا مفر منها في المجتمعات

الشخصية وعدم تدخل الدولة، تمكن السلوك الأخلاقي من أن ينتقل بصورة غير معتادة إلى مجالات أخرى، بعيداً عن نطاق العلاقات الشخصية، واستطاع أيضاً أن يتجلى من السلطة السياسية الدنيوية ومن الدولة. انتشر السلوك الأخلاقي في المجال السياسي والاقتصادي الأمريكي من خلال عدد لا حصر له من الجمعيات الأهلية، وكان لذلك أثر لا يستهان به في الحياة السياسية. تتنافس المثل السياسية الأخلاقية مع السلوك النفعي وهو السلوك المعتاد في مجال السياسة والاقتصاد. من آن لآخر تخلت القيم العامة طرق التعامل في هذين المجالين وأحدثت تفسيرات بهما، وأسست بذلك الصيغة الأمريكية الخاصة للتضامن الاجتماعي. كانت الدولة وقوانينها مؤسسات بعيدة وكان دورها في الاندماج الاجتماعي ثانوياً.

لكن السلوك السياسي الأخلاقي في ألمانيا له وضع مختلف. فالكنيسة اللوثرية والكاثوليكية كانتا تفتقدان إلى العناصر المكونة للزهد البيوريتاني، الذي يُشعر الأفراد على



أخلاقي. في هذا السياق يجدر بنا تأمل عنصر مهم آخر، إذ تستطيع الثقافة السياسية الأمريكية أن تعلي من شأن المثل العامة وتغلا المواطنين بالآمل، والحماس الحقيقي لبلوغ هذه المثل. ويرجع ذلك إلى اعتقاد الأسس الراسخة الأخرى للتماسك الاجتماعي أي الانتماء العرقي المشترك واللغة المشتركة والدين والتاريخ. وعلى النقيض من الوضع في ألمانيا، يتعاطف في أمريكا هذا المظهر بسبب عدم السماح للدولة بممارسة دور أكبر في عملية الاندماج داخل المجتمع. وهنا يكمن المأزق الرئيسي للموقف الأمريكي، وهنا أيضاً يكمن تفرد. بانتظام تعصب الحملات الأخلاقية المتكررة صلب النشاط السياسي وتثبت من خلال ذلك أنها ضرورية للتضامن الاجتماعي الذي يحد من سطوة الحسابات الأثنية والمصلحة الذاتية التي تفتت وحدة المجتمع، والتي لا يمكن للأحزاب السياسية ولا للدولة تمتع بنظام اجتماعي قوي أن تحد من هذه السطوة. وتحمل مثل هذه الحملات الصليبية في طياتها أحياناً شيئاً من عدم التماص وتهدد بشكل أساسي الحريات الفردية التي تحظى بتقدير كبير في الولايات المتحدة. تكرر الحملات الأخلاقية بانتظام وعادة ما تنخد صهيئاً غير مضرة، مثلاً من أجل حقوق الإنسان، وضد الظلم والتمييز والجريمة وتعاطي الكحول والمخدرات والفساد الإداري والتدخين والإباحية والدعارة وتدخل الدولة وما إلى ذلك.

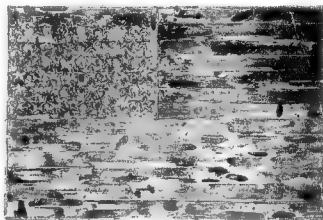
لكنه أحياناً تكون هناك حملات صليبية ضد «الشر»، المكارثية مثلاً. وأحياناً تهدف هذه الحملات إلى إرغام الشعوب الأخرى على تبني القيم والمثل الأمريكية، وهنا تذكر حرب فيتنام والسياسة الخارجية التبشيرية.

إن الإبقاء على التوازن الصعب بين التوجه السياسي الأخلاقي والحريات الشخصية يمثل دائماً تحدياً للثقافة السياسية الأمريكية، ويزداد مقدار الفوضى الاجتماعية داخل هذا التضامن المهلهل القائم على أسس قيمية. مع ذلك فأي تخفيف لحدة الصراع والتوتر التابع لهذا التوازن سيؤدي في النهاية إلى حدوث انقسام، حيث سيتعرض مصدر مهم للرغبة الأمريكية الشديدة في الإنجاز والحياة والانفتاح للخطر. وبإذات هذه الرغبة في الإنجاز، يتيح المجال للابتكارات العلمية والثقافية والاقتصادية متبوعة بإصلاح تدريجي للوضع القائم، وأخيراً وليس آخراً دمج الأقليات المختلفة داخل المجتمع.

إن تصور الدولة وتصنيف السلوك الأخلاقي في الثقافة السياسية لجمهورية ألمانيا الاتحادية يتضمن نقاط قوة ونقاط

الصناعية المتقدمة. وهكذا تتفاقم المشكلات الاجتماعية في أمريكا بصورة لا يمكن تخيلها إذا ما قورنت بالدول الصناعية الأخرى. جرائم العنف والفقر المنتشر والتشرد، الانخفاض الرهيب في معدل المداخيل والثروات يهدد في الوقت الحالي التماسك الاجتماعي.

من ناحية أخرى تمتع الثقافة السياسية الأمريكية ببعض جوانب القوة. إن التأكيد غير العادي على حقوق الأفراد، والاستقلالية، والدور المحدود للدولة في سياق السلوك السياسي الأخلاقي المبني على أساس المثل العامة المكونة من العدل والإنصاف، وتكافؤ الفرص، والطمأنينة



Jasper Johns: "Flag, 1972/94". © VG Bildkunst, Bonn 2003

الاجتماعية، يشكل تركيبة خاصة بالولايات المتحدة وهذه التركيبة تدهم وجود مشاركة قوية ومستمرة للمواطنين وتدعم النشاطات التطوعية. ومن بين خصائص الثقافة «السياسية» الأمريكية أيضاً أنه يتم إدراك تلك الهوية بين الواقع «غير العادل» والمثل والمبادئ العامة ويتم مواجهة ذلك من خلال الجمعيات الأهلية، بدلاً من انتظار أن تقوم الدولة والأحزاب بدور فاعل في هذا المجال. ففي كثير من الحالات أدت الهوية الشاسعة بين مبدأ للمساواة والخبرة الواقعية لعدم المساواة والتمييز إلى دفع المواطنين للحركة فالصراعات من أجل تحرير العبيد ومن أجل حق الانتخاب وحركة الحقوق المدنية والحركات النسائية وحركات المثليين، لا تعدو أن تكون بضعة أمثلة من بين نماذج أخرى كثيرة.

لكن هناك خطر كامن في هذا العنصر الرئيسي المكون للثقافة السياسية الأمريكية: يكمن في تأثير وإلزام المثل العامة والذي قد يكون كبيراً أحياناً، خطر إمكان تحول الالتزام بشيء ما إلى حملة أخلاقية. ويرتبط ذلك باستمرارية الإرث البروتستانتية الزاهد، الذي يهدف دائماً إلى إنتاج عالم

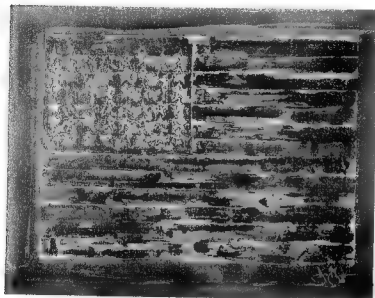
المتحدة، وهي تعد لذلك قوة مضادة لحسابات المنفعة الأثنية الخاصة في مجالي السياسة والاقتصاد. لقد أظهرت تأملاتي للمحورين الرئيسيين، بشأن تصور الدولة وتصنيف السلوك السياسي، تأكيداً على اختلافات بين كلا التقانين السياميتين. ومن خلال هذه الفروقات، ينشأ «سوء التفاهم المتجسّر»، لكن هذا لا يخفي أن التقانين السياميتين يتقربان من بعضهما على نحو خاص. قبل نشأة جمهورية ألمانيا الاتحادية، كان السبب في الإحباط الكبير الذي عمّ ألمانيا عادة يعود إلى أن الدولة لم تحقق الآمال الكبيرة المتوقعة منها. وعواقب ذلك كانت إما

ضعف ومشكلات لها خصوصيتها أيضاً. تتمتع الدولة بشرعية أكبر بكثير من تلك الممنوحة لها في الولايات المتحدة فيما يتعلق بالتصدي لمشكلات المجتمعات الصناعية المتقدمة، إذ ثمة إجماع داخل للحيط السياسي على أنه من واجب الدولة تحقيق العدالة والتوازن الاجتماعي. لذلك تعنى الدولة بإعادة توزيع الدخل والممتلكات من خلال قوانين الضرائب، وترعى الفقراء والمشردين الذين لا سكن لهم وتعيد تدريب وتكوين العاطلين عن العمل، وتقدم العون للمعاقلات وتتيح الدراسة المجانية بالتعليم العالي وتدعم الفنون بسخاء وتقدم بشكل عام مجموعة كبيرة من سبل الدعم والعون. وبخلاف ما هو عليه الحال في الولايات المتحدة تحصل الدولة والأحزاب السياسية مباشرة على أكايليل الغار لتحقيق النمو الاقتصادي والسلام الاجتماعي.

من ناحية أخرى يحمل هذا الاتجاه الملامم للثقافة السياسية، أي اللجوء للدولة في القضايا الاجتماعية، خطرين كبيرين. أولاً أن تتخذ الدولة موقفاً مغروراً و صلفاً وتعمل على إخافة مواطنيها. ثانياً توجّه إلى الدولة انتقادات حادة عندما تكون الخدمات التي تقدمها غير كافية، وهناك خطر أن يُعرض الناس بحسن الدولة وأن يصابوا بـ «الإحباط السياسي». اتضح هذا العيب بصورة كبيرة مثلاً في السمانيات عندما استمر عجز الميزانية وارتفعت نسبة

العاطلين عن العمل وقامت حكومة المستشار هلموت كول بتخفيض بعض المزايا الاجتماعية. وهناك عامل آخر عصب هذا الإحباط الناتج عن هذه السياسة، أي «الإحباط من الدولة ومن السياسة»، فنظراً إلى الدولة قد تولت مهمة معالجة كل السلبات الاجتماعية الناتجة عن الرأسمالية المتقدمة، فقد تامت البيروقراطية بشكل رهيب. صحيح أن الأجهزة البيروقراطية كانت قادرة على المساعدة بصورة فعالة في المشكلات الاجتماعية، لكنها اودادت اعتماداً عن المواطنين وتوقعاتهم. وعندما استمرت المشكلات الاجتماعية ومعدلات البطالة في الازدياد، وجه المواطنون نفعتهم إلى الدولة والأحزاب الكبيرة.

وهنا يكمن المأزق الكبير للتركيبية الألمانية وهنا يكمن فردها. ورغم «الإحباط» الذي يظهر في فترات معينة، لا يوجد شك في المكانة المركزية للدولة ولا في الثقافة السياسية للأحزاب. لأن الدولة والأحزاب تمارس أهم دور في تأمين السلوك السياسي الأخلاقي والتضام الاجتماعي، وبدرجة أقوى بكثير عنها في الولايات

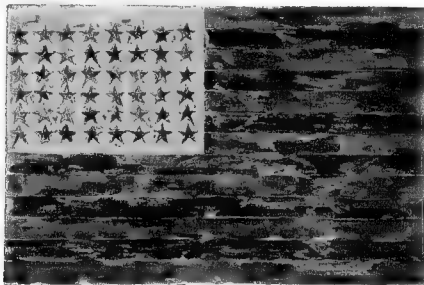


Jasper Johns: "Flag, 1972/94" © VG Bildkunst, Bonn 2003

الاستحاب إلى الحياة الخاصة أو الاتجاه إلى اليمين أو اليسار المتطرف. في الستينيات والسبعينيات، حال الاستقرار الاقتصادي والسياسي من جهة، وتطور ثقافة سياسية ديمقراطية من جهة أخرى دون حدوث أية تطورات من هذا القبيل. ويتفق علماء الاجتماع الألمان والأمريكيون على أنه قد نشأ في ألمانيا عدد كبير من الجمعيات أو الاتحادات الوسيطة التي تشغل المساحة بين الدولة والأفراد المنزليين وهو الأمر الذي يعتبره توكفيل Tocqueville ملمحاً رئيسياً للمجتمع الأمريكي ويرى أنه لا غنى عنه للديمقراطية مستقرة. ويقال للتطور من حدة الميل لـ «الإحباط السياسي». عندما يتم إدراك أن الأحزاب السياسية والأجهزة البيروقراطية والتمنية السياسية، بعيدة عن المواطن ومترفة عنه، يزداد الاستعداد للمشاركة السياسية قوة ويصب ذلك في الحركات والاتحادات السياسية المحلية والإقليمية أكثر مما يصب في اتجاهات اليمين أو اليسار المتطرف. ورغم أن الدافع للحرك لذلك في ألمانيا هو التحول الاقتصادي والهيكلي للمجتمع، بدلاً من التأثيرات الدينية في الولايات المتحدة، تقترب نسب

جمعيات أو اتحادات أهلية تعنى بالقيم والمثل العامة. وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم الجماعات على المستوى العام، بالمتنا داخل نطاق واسع. هناك بعض الجماعات تتميز في الظاهر بمشاركة اجتماعية قوية وتوجه ذي أساس قيمي، وهناك جماعات أخرى تبين بوضوح أنها تقوم بتمثيل مصالحها، وهناك جماعات تخلط بين القيم والمصالح. من الواضح أن النظام العقيدى، أي البروتستانتية الزاهدة، الذي وهب الجماعات الوسيطة في الولايات المتحدة قيمها ومثلها، ليس هو القوة الوحيدة التي تؤثر في مثل هذا النوع من التطور.

المشاركة السياسية في المنظمات المحلية والإقليمية من نسب المشاركة في نفس المنظمات بالولايات المتحدة. إذا تأملنا هذا التحول على أساس الخلفية التي قدمنا لها أعلاه وفي ضوء خبرة ماكس فيسر بأن الموروثات الثقافية تظل باقية بشكل مؤثر رغم التغيير الهيكلي، فسنجد أنفسنا أمام مجموعة من الأسئلة. ما هي توجهات السلوك السائدة في هذه الاتحادات السياسية الجديدة؟ هل تطور مجال للمجتمع المدني تتغلغل فيه المثل والمعايير، وتصبح لذلك أساساً ملزماً للسلوك، على الأقل لحد معين، يشكل ثقافة سياسية، كانت ترى أن الدور الأكبر في الفعل السياسي الأخلاقي يقع على



Jasper Johns: "Flag, 1972/94". © VG Bildkunst, Bonn 2003

ورغم أن «أمركة» الثقافة السياسية الألمانية تزيد تدريجياً من تقارب الثقافتين، ما تزال هناك فروق مهمة. ويشهد بذلك سوء التفاهم المتكرر الملحوظ على هذا الجانب من الأطلنطي أو على الجانب الآخر. وهنا لا يسعنا إلا أن نورد بعض الأمثلة للتوضيح. غالباً ما لا يتبين مثلاً للأمريكيين والألمان أن فهمهم لدور الدولة والمسؤولية الشخصية مختلف. ويؤدي ذلك إلى تصورات لا تراعي سياق الحديث إلا قليلاً. فمثلاً هناك تصور منتشر في ألمانيا بأن الضمان الاجتماعي في الولايات المتحدة يعد مجرد صيغة مختلفة من فكرة دولة الرعاية الاجتماعية في ألمانيا، ولا ينظر إلى هذا النظام على أنه تركيبة مستقلة ومستجدرة ترفض النظام الألماني رفضاً قاطعاً. وعلى النقيض من ذلك تعكس رؤية الأمريكيين لدولة الرعاية الاجتماعية الألمانية تركيبة خاصة ذات عوامل تاريخية وثقافة، تبلو

عائق الدولة؟ هل جلبت التغييرات الهيكلية والمؤسسية والسكانية والاقتصادية والجيلية وبعض الأحداث التاريخية في ألمانيا قيماً عامة تتيح وجود صيغة مشابهة لصيغة التضامن الاجتماعي في الولايات المتحدة؟

يعلمنا ماكس فيسر أن المعايير والمثل العامة لم تنشأ في الماضي فقط من خلال مثل هذا التحول. تحت أية ظروف انتقل السلوك النفعي للمض المميز للمجتمع الصناعي الحديث ومجاليه السياسي والاقتصادي، إلى النطاق الاجتماعي وتشرب قيم العدالة الاجتماعية والإنصاف والطمأنينة الاجتماعية وتكافؤ الفرص، بحيث أصبح من الممكن تشكيل مجتمع مدني قوي على هذا الأساس؟ إن الجماعات السياسية والاقتصادية التي تتصرف على أساس من التفكير النفعي والحسابات الموضوعية، تعد أقرب ما تكون إلى جماعات للمصالح الفردية أكثر من كونها

لسنأجته. وطبعاً لأن الصحف الألمانية على علم بأن الأحزاب في الولايات المتحدة لها دور محدود لا يقارن بدور الأحزاب في ألمانيا، تركز هذه الصحافة في الانتخابات الأمريكية، وبشكل منظم، فقط على الاهتمامات الاقتصادية للمرشحين وخططهم الاستراتيجية وتهمل تماماً الدور الذي تلعبه مثل العامة. ومن ناحية أخرى لا تبدي الصحافة الأمريكية تفهماً للدور المهم الذي تلعبه الأحزاب السياسية أثناء الانتخابات في ألمانيا.

إن استخدام نماذج التصورات النابعة من الثقافة السياسية الوطنية، على بلد آخر، حتى في موضوعات السياسة الخارجية، يؤدي من جديد إلى سوء تفاهم بين الألمان والأمريكيين. أحياناً يصل الأمر إلى الانقراض على التكهّن بالدوافع. في ألمانيا تقابل تلك المثالية الأمريكية التي ينشرها الأمريكيون بوعي والمتغلغلة في التصور الأمريكي عن مثل العامة والتي لا تفصل عن السياسة الخارجية الأمريكية، حتى لو كانت عادة مغطاة بأهداف أخرى، والتي تعلن عن نفسها في حملات حقوق الإنسان، بعدم ثقة. عادة ما يرى الألمان هذه المثالية على أنها عرض مرآي لا يمكن من خلاله إظهار أحد سوى الجمهور الأمريكي. ومن ناحية أخرى ونظراً إلى تشديد الألمان على المصالح القومية والسياسية، هناك انطباع لدى الأمريكيين بأن السياسة الخارجية الألمانية تنفرد إلى البعد الأخلاقي، وأنها تقوم بدلاً من ذلك باتباع إرث قديم لم يعد صالحاً في الوقت الحالي، أي سياسة الأمر الواقع. وسرعان ما نسقط من جديد في الكليشيهات المستهلكة. الأمريكيون أرباب وسذج مثل الأطفال والألمان ساعرون وأوروبيون منهكون، فقدوا طقاتهم ومثلهم الفتية.

أقل الأمثلة تبرز ظهور سوء التفاهم بانتظام رغم أن السياسة الأمريكية والألمانية قد تقاربتا. الشيء الوحيد الأكيد هو أن أهم الفوارق في الثقافة السياسية للدولتين، لن تتلاشى نظراً إلى ارتباطها بتاريخ وثقافة كل دولة منهما، وحتى لو استمرت «مركبة» ألمانيا.

البروفيسور ستيفن كليرغ أستاذ مادة علم الاجتماع في جامعة بوسطن في الولايات المتحدة الأمريكية.

ترجمة: أحمد فاروق

المصدر: Merkur 617/618, Sept./Okt. 2000.

الدولة الألمانية القوية بصلاحياتها المتنوعة مهددة حرية الفرد. وفي حين يرى الأمريكيون أن «الدولة القوية» غير ضرورية ومهددة، يعتقد الألمان أن الأمريكيين يبالغون بسذاجة في الإعلاء من قيمة المسؤولية الذاتية ويقللون من شأن الفوضى الاجتماعية التي يمكن أن تحدثها الرأسمالية. هذه الرؤية تغفل مع ذلك التراث الديني الأمريكي الذي يُلبي من شأن المسؤولية الذاتية ويقلل من التشكك في الرأسمالية.

إن التشكك الألماني تجاه الثقافة السياسية الأمريكية، يزداد قوة من خلال القناعة بأن المجتمع الأمريكي «مجتمع جماهيري» يعد فيه الأفراد ذرات لها عوالمها الخاصة المستقلة، حيث يتخذ كل فرد طريقه بمجزل عن الآخرين ولا يوجد به تضامن اجتماعي. لكن هذا الاستنتاج يرجع إلى أن الرؤية الألمانية التي تستند إلى الدولة والأحزاب السياسية كمرجعية للسلوك السياسي، تحبب هذه على الواقع الأمريكي وتجاهل بذلك خصوصية التضامن الاجتماعي الأمريكي. فالأمريكيون يرون أن السلوك السياسي الأخلاقي يجب أن يكون داخل مجال اجتماعي مدني غير واضح ومحدد المعالم وتتزامن فيه الجمعيات الأهلية. إضافة إلى أن هذا الحكم لا يراعي الصيغة الأمريكية للاندماج الاجتماعي والتي أضغمت من المسؤولية الذاتية «البطولة الفردية». في الواقع أدت الأهمية للحرية للمجال الاجتماعي المدني، من جواب شئ، إلى إحداث نوع من الضغط القوي من أجل التوافق. إن التصنيف المتعدد للسلوك الأخلاقي والصيغ الفاضلية للختلفة عن دور الدولة أدت إلى المزيد من سوء الفهم. حيث يرى الألمان في استناد الأمريكيين دائماً إلى القيم والمثل العامة في تبريرهم لسلوكياتهم نوعاً من السرياء والخلع، ويتهمونهم دائماً بالقول إن الدوافع الحقيقية وراء ذلك مجرد دوافع ذات طبيعة سياسية أو اقتصادية. وعلى العكس يرى الناس في الولايات المتحدة ميل الألمان إلى جعل المصالح السياسية والاقتصادية دافعاً أساسياً للمشاركة السياسية خارج الإطار الحزبي السياسي، على أنه شيء محسوب وساخر، حيث يرون أن الألمان يميلون، أغلب الظن، إلى المثل العامة. وأثناء ذلك يتناقض الأمريكيون عن حجم السلوك السياسي وحجم التضامن الاجتماعي عموماً من خلال اقتصاد السوق الاجتماعي والتشريعات العديدة التي وضعت الدولة الاجتماعية أسسها.

ويتضح أيضاً نقل التصورات المعهودة من بلدك إلى أي بلد آخر أيضاً من خلال نقطة جديدة، فبينما يفسر الأمريكيون فضيحتي «ووترغيت» و«مونيكيا غيت» على أنها فقدان كبير لثقة الجمهور، يفسر الألمان هذه الفضائح في ضوء المصالح السياسية للأحزاب السياسية ويتقنون التفسير الأمريكي

كيف تسوق حرباً؟

غضبنا غير المحدود: من تهمة معاداة أمريكا كإيديولوجية

تعتبر أرونداتي روي من أهم الأصوات الأدبية في شبه القارة الهندية. ولدت عام ١٩٦٠، ونالت روايتها «إله الأشياء الصغيرة» شهرة كبيرة في كل أرجاء العالم. روي اشتهرت أيضاً بمقالاتها السياسية التي تعبر عن غضب الأغلبية في منطقة الحزام النووي الهندي - الباكستاني تجاه سياسة الولايات المتحدة. وهي لا تني تهاجم العملة وعوائلها في بلادها، ما جعلها صوتاً سوسولوجياً معبراً عن قطاعات عريضة في العالم الثالث.

إذا مساوى أحد بينهم وبين السياسة الفاشية للحكومة الحالية). إن اتهام أحدهم بأنه معاد للولايات المتحدة إنما هو تعبير عن نقص في الخيال وعدم القدرة على رؤية العالم بطريقة مخايرة لما تنادي به الطغمة الحاكمة: من ليس طلياً فهو شرير. من ليس معنا فهو مع الإرهابيين.

لقد أخطأت أنا أيضاً في العام الماضي بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر وانزلت إلى السفينة على بلاغة الخطاب الأمريكي، معتبرة إياه أحق ومتصجراً. إلا أنه اتضح لي فيما بعد أن الصواب جانبي، وأن الأمر في حقيقته حملة بارعة للدعاية لحرب خطيرة وخاطئة.

كم من مرة سمعت وجهة النظر الشائعة التي تقول إنه لا يجوز توجيه النقد إلى هذه الحرب، لأن ذلك يعني مساندة الإرهاب. فجاء، وبعد أن فشل الأمريكيان في تحقيق الهدف الأصلي للحرب، أي القبض على بن لادن، فلنا نسمعهم يتحدثون عن أهداف أخرى. الآن يقولون لنا إنهم شنوا الحرب لإسقاط نظام طالبان ولتحرير المرأة الأفغانية من البرقع. علينا أن نصدق إذن أن الجنود الأمريكيين منتشرون في أفغانستان لتنفيذ مهمة بأمر من الحركة النسوية. (هل تقودهم المهمة القادمة إلى السعودية، الحليف العسكري للولايات المتحدة؟ ثمة أنماط سلوكية اجتماعية سيئة إلى حد ما في الهند ضد المثوزين وضد المسيحيين والمسلمين والنساء. أيضاً كما تلقى النساء والأقليات أسوأ معاملة في باكستان وبنغلاديش. فهل يبرر ذلك إلقاء القنابل على هذه البلدان؟

مازال إرهاب الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر يلاحق الناس أينما ذهبوا، لاسيما في الولايات المتحدة بطبيعة الحال. مازال الألم والغضب يحرقان القلوب. ومع ذلك يعلم جميع الذين فقدوا أقاربهم أن أي عمل انتقامي لن يخفف

وجهت، في الأسابيع الماضية إلى الذين انتقدوا الحكومة الأمريكية، تهمة معاداة أمريكا. ويبدو أن هذا المصطلح بدأ يكتسي في الوقت الحاضر إيحاءاً إيديولوجية. إن المؤسسة الأمريكية الحاكمة تستخدم عادة هذه التسمية للحط من قيمة منتقديها ووضع لافتة تصنيفية، ليست بالضرورة خاطئة، إنما هي غير دقيقة، على جباههم. على الشخص الذي يوصم بمعاداة أمريكا أن يتوقع الإذانة الفورية وضياح الحجج التي يوقها بين صرخات الكرياء الوطني الجريح. ماذا تعني معاداة أمريكا؟ ألا تحب الاستماع إلى موسيقى الجاز؟ أن تعادي حرية التعبير عن الرأي؟ ألا تكون مهووساً بثوني موريسون وجون أبلدك؟ هل تعني ألا تُكُنْ إعجاباً بمئات الآلاف من الأمريكيين الذين تظاهروا ضد الأسلحة النووية، أو الآلاف من الممتنعين عن أداء الخدمة العسكرية الذين أجبروا حكومتهم على الانسحاب من فيتنام؟ أم كراهية كل الأمريكيين؟

إن هذا الخلط البارع بين الموسيقى الأمريكية والأدب الأمريكي، بين الطبيعة الساحرة للبلاد والمتع البسيطة للناس البسطاء من ناحية، وبين نقد السياسة الخارجية التي تنتهجها الحكومة الأمريكية من ناحية أخرى، لهو خلط منهجي مقصود وبالع التثاثير. إنه يذكّر بفرقة من جيش متقهتر تبحث عن ملجأ لها في مدينة مكتظة بالسكان، أملاً في أن يتراجع العدو عن قصف المدينة خوفاً من وقوع ضحايا من المدنيين.

سينضب كثير من الأمريكيين إذا غضبناهم في سلة واحدة مع سياسة حكومتهم، لاسيما وأنه من بين المقالات، التي تناولت نفاق السياسة الأمريكية وتناقضاتها، كان ما كتبه الأمريكيون أنفسهم أكثرها تأملاً وسخريّةً وعمقاً. (في الهند أيضاً يشعر ملايين من الهند بالخيال والإهانة

في وزارة الدفاع وريتشارد بيرل، «بالمواظ الأخلاقية الجوفاء» التي يلوكلها معسكر السلام، ويضيف بيرل أنه في حالة الضرورة ستخوض الولايات المتحدة حرباً وقائية. لا شك أن الضارب هو سمة تقارير مفتشي الأسلحة حول الوضع في العراق. كثيرون أعلنوا أن أسلحة الدمار الشامل تم تدميرها، وأن العراق لا يستطيع تصنيع أسلحة جديدة. ولكن ما العمل إذا كان العراق يملك بالفعل قبلة ذرية؟ هل يبر ذلك حرباً وقائية؟ ولكن الولايات المتحدة تمتلك أكبر ترسانة نووية في العالم، وهي البلد الوحيد على ظهر هذا الكوكب الذي سبق له استخدام أسلحة نووية ضد شعب

آلامهم أو يعيد موتاهم إلى الحياة. لا تستطيع الحروب النار للموتى، لأن الحرب هي دوماً تدين وحشي جرمة التذكر. إن شئ حرب جديدة (على العراق)، عبر تريف مشاعر الحزن وتهيئتها للاستهلاك التلفزيوني في برامج تمولها وترعاها شركات مساحيق التنظيف والأحذية الرياضية، يعني إفساد الحزن. إنه يبين أن أعظم مشاعر البشر خصوصية يمكن أن تهب دوماً اكترت لتحقيق أغراض سياسية آتية.

تقول الحكومة الأمريكية إن صدام حسين مجرم حرب وطاغية لا يرحم. إنها بالفعل أوصاف صالحة للرجل الذي أمر بإلقاء القبائل على مئات من القرى في شمال العراق عام ١٩٨٨، وبيع آلاف الأكراد هناك. إلا أننا نعلم أيضاً أن الحكومة الأمريكية قدمت لصدام منحة قدرها ٥٠٠ مليون دولار لشراء متجات زراعية أمريكية. وفي العام التالي، وبعد إتمام عملية الإبادة الجماعية بنجاح، رفعت واشنطن معونتها إلى مليار دولار. بالإضافة إلى ذلك وردت الإذاعة الأمريكية ليشداد كميات من بكتيريا الجمرية الخبيثة «انشراس» ومروحيات ومواد يمكن استخدامها في تصنيع أسلحة كيميائية وبيولوجية. هذا يعني أن الحكومتين الأمريكية والبريطانية كانتا قبل سنوات من أقرب الخلفاء إلى نظام الرئيس صدام حسين. ماذا تغير منذئذ؟



Roy Lichtenstein: "Blang, 1962". © VG Bildkunst, Bonn 2003

مدني أعزل. فإذا كانت واشنطن تدعي لنفسها الحق في شن حرب وقائية على العراق، فإن من حق كل قوة نووية خوض حرب وقائية ضد قوة أخرى. عندئذ يمكن للهند أن تهاجم باكستان أو العكس.

منذ سنوات طويلة والولايات المتحدة تساهم بنجاح في الحيلولة دون نشوب حرب بين الهند وباكستان. هل يصعب على الأمريكي أن يتبعوا النصيحة التي يسدونها للآخرين؟ ومن يلقي هنا المواظ الأخلاقية؟ من ينادي بالسلام وشن الحروب في آن واحد؟ لقد خاضت الولايات المتحدة، وهي «أكثر الأمم مسلة في العالم» على حد تمييز رئيسها بوش، خلال الخمسين عاماً الأخيرة عدة حروب ضد عدد من الدول، والحروب لا تُخاض أبداً بدافع من الإيثار ومحبة الغير، بل في الغالب من أجل السيطرة وتحقيق المصالح التجارية. في كتابه *The Lexus and the Olive Tree* كتب توم فريدمان يقول: "لن تعمل يد السوق الخفية دون قبضة خفية. بدون ماكندونالد دوجلاس لن تتجمع سلسلة ماكندونالدز. إن القبضة الخفية التي تتيح لشركات التقنية

في آب/ أغسطس ١٩٩٠ اجتاحت القوات العراقية الكويت. ولم تكن خبيثة صدام العمل الحربي في حد ذاته، بل إنه تصرف دون الرجوع إلى أحد. وحده هذا الاستعراض للقوة أدخل بتوازن القوى في منطقة الخليج. وهكذا قرروا إزاحة صدام، كما يقرر المرء التخلص من حيوان اليف لم يعد يتال عطف أصحاب البيت. ومع ذلك فمزال صدام ممسكاً بزمام السلطة. والآن، وبعد مرور اثني عشر عاماً، يكشف بوش الابن الحطاب العسكري الذي كان يزار به أبوه، ويطلب بشن حرب هدفها تغيير النظام في العراق. ذات مرة وصف أندرو ه. كارد الابن، رئيس الأركان في البيت الأبيض، الكيفية التي تمز بها الحكومة الأمريكية في الحريف خططها لشن الحرب القادمة بهذه الكلمات: "أسباب تسويقية لا يطرر متج جديد في الأسواق خلال شهر آب/ أغسطس." كلمة "متج جديد" التي تستخدمها واشنطن لا تعني هذه المرة حالة الناس في الكويت، بل الأعداء بأن العراق يمتلك أسلحة الدمار الشامل. ولكن على المرء ألا يتخلى، هكذا كتب المستشار

الدولة: الشرطة والقضاء، بل وحتى الجيش. تحتاج العولة في البلدان الفقيرة إلى اتحاد دولي من الحكومات الفاسدة، ومن الأفضل أن تكون استبدادية حتى تستطيع تمرير الإصلاحات التي لا يستسيغها الشعب. تحتاج العولة إلى صحافة تدعي أنها حرة ونزيهة، وإلى قضاء يبدو في الظاهر أنه يحكم بالعدل والقانون. إنها بحاجة إلى قتال ذرية وجيوش، وقوانين هجرة صارمة، وشرطة حدود لا تسمح بالعولة سوى لرووس الأموال والبضائع والخدمات وبراءات الاختراع، لكنها لا تسمح بحرية تنقل الناس، أو باحترام حقوق الإنسان، أو باتفاقيات منع الممارسات العنصرية، أو بحظر الأسلحة الكيميائية والنووية، أو بحماية المناخ، أو، والعياذ بالله، بحكمة الجزاء الدولية.

بعد مرور حوالي عام على الإعلان رسمي من نهاية الحرب على الإرهاب في أفغانستان المدمرة يتزايد عدد الدول التي تقلص الحريات أو تلغيها كلية باسم الدفاع عنها. كل ثورة أو احتجاج يتم إخماده على الفور بتهمة «الإرهاب». الحرب تُخاض، وكما أشار وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد، من أجل أن يحافظ الأمريكيون على طريقة الحياة الأمريكية. وإذا خُبط الملك بقميصه غاضباً على الأرض فلا بد أن ترتعد فرائص العبيد.

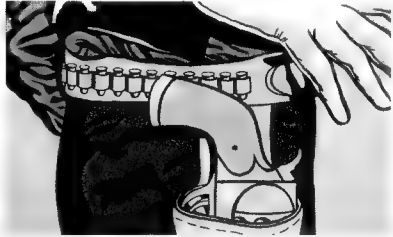
يصعب عليّ أن أقول هذه الكلمات، ولكن طريقة الحياة الأمريكية لا يمكن الحفاظ عليها، لأن هذا النمط من الحياة لا يتقبل أخطاءً أخرى بجانبه. لحسن الحظ لا يمكن الاحتفاظ بالقوة إلى الأبد. في وقت ما ستكلف هذه الإمبراطورية نفسها، كما فعلت إمبراطوريات سابقة، ما لا طاقة لها به، وستنهار. بل إن الصبوع الأولى بدأت بالفعل في الظهور. قلب الشركات الأمريكية العملاقة يتزف يوماً بعد يوم، بينما تُلقى الحرب على الإرهاب شبهاً إلى محيط أوسع وأوسع، والعالم الذي يحكمه حقنة من مديري البنوك ورؤساء مجالس اللؤسسات، الذين لم يخترعوا أحداً، لا يمكن أن يستمر. إن الشيوعية السوفيتية لم تقبل لأنها نظام سيء في حد ذاته، بل لأنها ارتكبت خطأً قاتلاً عندما انتزعت عدد قليل من الناس قلباً هائلاً من السلطة. وللسبب ذاته سوف تقشّر الرأسمالية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين.

ترجمة: سمير جريس

المصدر: "Frankfurter Allgemeine", 2.10.2002

التقدمة في سيليكون فالي الازدهار في العالم كله دون عوائق تُدعي الجيش الأمريكي والقوات الجوية والبحرية. ربما تُسببت هذه الكلمات في لحظة شعور هائل بعدم الأمان، لكنها أدق وأوجز وصف قرائه عن طريقة عمل العولة.

بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر والحرب على الإرهاب لم تعد اليد الخفية مخفية. إننا نرى الآن بوضوح كيف يتجاذب أمريكا العالم الثالث وعلى وجهها ابتسامة شماتة. "المهمة التي لا تنتهي"، تحت هذا المسمى تخوض الولايات المتحدة حرباً بارعة هي المعجزة الدافعة في عربة الإمبريالية الأمريكية التي لا تتوقف عن التوسع.



Roy Lichtenstein. "Fastest Gun, 1963" © VG Bildkunst, Bonn 2003

في اللغة الأردية تعني كلمة «فائدة» الربيع، أما «القاعدة» فإنها تعني كلمة الله أو القانون. بعض الهنود يمتدحون الحرب الدائرة على الإرهاب الآن حرباً بين القاصدة والفائدة. الكلمة ضد الربيع. ويبدو في اللحظة الراهنة أن الفائدة هي المنتصرة.

لقد ارتفع إجمالي الدخل في العالم خلال السنوات العشر الأخيرة بنسبة ٢,٥ في المئة سنوياً، بينما ارتفع عدد الفقراء بنحو ١٠٠ مليون نسمة. من بين أكبر مائة مؤسسة اقتصادية في العالم هناك ٥١ شركة مملوكة من قبل أفراد لا دول. الطبقة العليا من سكان العالم لا يزيد عددها عن ١٪، لكن دخلها السنوي يوازي دخل ٥٧٪ من سكان العالم. وتحت مظلة الحرب على الإرهاب تزداد هذه الهوة اتساعاً وفي الوقت الذي تسقط فيه القنابل على المدن يتم توقيع العقود التجارية، وبناء خطوط أنابيب البترول، ونهب الثروات المعدنية، وخصخصة قطاع المياه، وإضعاف الديمقراطية. وبينما تتسع الهوة بين الأغنياء والفقراء تزايد المشاغل أمام القبضة الخفية للسوق الحرة. في البلدان النامية يتوقف نشاط الشركات المتعددة الجنسيات، الباحثة دوماً عن الربيع، على تعاون أجهزة

عناوين معهد غوته في البلاد العربية

العنوان الرئيسي

• **Rabat**
7, rue Sana a
P.O.B. 1796
10000 Rabat
Tel: (0021 2) 37706544

• **Casablanca**
11, Place du 16 Novembre
Casablanca 01
Tel: (0021 2) 222200445

• **Tunis**
Place of Afrique
6, rue du Sénégal
1002 Tunis - Belvédère
Tel: (00216 71) 848266

• **Alexandria**
10, Rue des Ptolémés
Tel: (0020 3) 4879870

• **Beirut**
11, Rue Bliss, Manara
P.O.B. 1135159
Tel: (00961 1) 740524

• **Amman**
7, Abdel Munim Rifa'i Street
Jabal Amman
P.O.B. 1676
11118 Amman
Tel: (00962 6) 6461993

العنوان الرئيسي

• **Damaskus**
Malki Street 8
P.O.B. 6100
Tel: (00963 11) 3336673

• **Kairo**
5, Sharia Abdel Salam Aref
P.O.B. 7/ Mohd. Farid
11518 Kairo
Tel: (0020 2) 5759877

قسمة إشتراك

يسر مجلة الفكر وإنه أن توسع دائرة قرائها، ولذا لم تكونوا في قائمة المشتركين لدينا، وتودون الحصول على المجلة مجاناً، يرجى إملأ قسمة الاشتراك هذه وإرسالها إلينا الرجاء كتابة الاسم والعنوان بالكامل وبالحروف اللاتينية.

1. الاسم
2. اللقب
3. صندوق البريد
- الشارع
- رقم الدار
- الطابق
- المدينة
- رقم المدينة البريدي
- الدولة

- بيانات عن المشترك: 1. المهنة
2. السن
3. إجادة اللغات (من فضلك ضع إشارة ×) العربية ○ الفرنسية ○ الألمانية ○ الإنكليزية ○ الفارسية ○ لغات أخرى (ماهي؟) ○

Goethe-Institut Inter Nationes
Bereich Logistik
Kennedyallee 91 - 103

D-53175 Bonn
Germany

وظيفة الكاتب

3.

الكاتب، البلغاري المولد، إلياس كانيتي (١٩٠٥ - ١٩٩٤) كتب باللغة الألمانية. درس الكيمياء في الثلاثينات في جامعة فيينا. هاجر إلى لندن في عام ١٩٣٨. من أشهر أعماله «السيرة الذاتية»، التي تتألف من ثلاثة أجزاء. في عام ١٩٨١ حاز على جائزة نوبل للأدب.

تتميز مفردة الكاتب إلى الكلمات الحاضرة العزيم، الكاسدة منذ زمن، التي كان المرء يتجنبها وينتشر عليها، معرضاً نفسه للسخرية إذا ما استخدمها، فبات يفرقها حتى انكششت ولم تعد تصلح للإندثار بفعل قبورها. ومع ذلك فكل من يقدم على هذا النشاط، الذي ما زال قائماً، يسمي نفسه: شخص ما يكتب.

كان على المرء أن يفكر في أن هذا مرتبط بالتخلي عن مطلب مزيف، وإيجاد مقاييس جديدة للتعامل بصراحة مع الذات، وتجنب كل ما هو خاص يؤدي إلى النجاح غير الشريف. في الحقيقة حدث عكس ذلك من قبل أولئك الذين يهجمون على مفردة «كاتب» بلا رحمة ويطورون أساليب الإثارة بوعي ويصعدونها. فالرأي الثاقب الفاضل بأن الأدب برمته أصبح ميتاً قد سطر بعبارة جنائزية مثيرة للشفقة ومثابة بيان طبع على ورق نفيس ونقش باحتفاء وجذبة كما لو أن الأمر متعلق بصرح فكري مرتكب، بالغ الصعوبة. بالتأكيد إن هذه الحالة الغريبة سرعان ما غرقت في نفاستها نفسها، لكن الآخرين أيضاً الذين لم يكونوا مجديدين على نحو كاف إلى درجة الإسفاف في بيان ما والذين يولفون كتباً لأذعة شديدة الألمعية سامحوا بدورهم وعلى عجل في إعلاء شأن صيغة «شخص ما يكتب» فأخذوا يفعلون ما كان يفعله الكاتب من قبل: أي بدلاً من الصمت صاروا يمدون تأليف الكتاب ذاته من جديد. ومهما بدت لهم البشرية غير قابلة للإصلاح وتستحق الموت فإن ثمة وظيفة لها لم تزل باقية: وهي أن تصفق لهم. فمن لم يعد يشعر بالرغبة في ذلك ومن سئم من بنات أفكاره المجتررة كان يلعن مرتين: مرة بصفته إنساناً، وهذا بعد ذاته لا يعني الكثير، ومرة أخرى لأنه يرفض الاعتراف بالإيمان اللائها في على الاحتضار الذي يمارسه ذلك الذي يكتب باعتباره ذا قيمة.

إنكم ستفهمون باني، وبناءً على هذه الظواهر، لا أظهر إزاء من يطلقون على أنفسهم لقب كاتب بكل خطورة شكاً أقل من شكّي بأولئك الذين يمارسون الكتابة وحدها. إنني لا أرى فرقاً بينهم، فهم يشبهون بعضهم مثلما تشبه البيضة بيضة أخرى، والاعتراف الذي اكتسبه ذات مرة يبدو لهم حقاً قانونياً مدوناً. إذ إن في الحقيقة ليس هناك من لا يشك اليوم في حقه بوصفه كاتباً شكاً جدياً. ومن لا يرى حالة العالم الذي نحيا فيه يتعلم عليه أن يقول شيئاً عنه. فالخطر الذي يتهدده كان في السابق الشغل الشاغل للديانات ثم انتقل إلى المجال الديوي. ورواه أمر قد جرب أكثر من مرة، وثمة البعض، من غير الكاتب، يرصد هذا الزوال ببرود، وهناك من يحصي فرصه المتاحة، جاعلاً منها مهنة تدر عليه ربحاً ضخماً على الدوام. منذ أن أوكلتنا تنبؤاتنا إلى الآلات فقدت التنبؤات نفسها كل قيمة، وكلما اتقسما على أنفسنا، مغوضين أمرنا إلى جهات خالية من الحياة، ضعفت سيطرتنا على ما يحدث. لقد استحال سيطرتنا المتنامية على كل شيء،

سواءً كان جامداً أم حياً، لاسيما على شاكلتنا، إلى سلطة مضادة، نتحكم بها نحن تحكماً ظاهرياً فحسب. هناك المئات والآلاف من الأشياء التي يمكن أن تقال حول هذا الموضوع، لكن كل شيء معروف، والأشد غرابة في ذلك هو أنه أصبح، وعلى نحو تفصيلي، خبراً صحفياً يومية عاجلاً، أي أصبح مبتذلاً تماماً. فلا نتظروا مني أن أعيد كل شيء من جديد، بل سأعرض اليوم إلى موضوع أكثر، ينطوي على بعض التواضع.

الكاتب الحقيقي

لعلّ من المفيد أن نمجّد أنفسنا ونعمل الفكر فيما إذا كان ثمة شيء ضمن الوضع الراهن للكرة الأرضية يستطيع من خلاله الكاتب، أو من يحسب نفسه كاتباً حتى الآن، أن يجعل نفسه نافماً. على أية حال، وعلى الرغم من نواجب الدهر التي عانت الكلمة تحت وطأتها فإنها بقيت تحفظ بنوع من الأهمية. وليكن الأدب مثلما يشاء، إلا أنه، شأنه شأن البشرية التي لم تزل متمسكة به، ليس ميتاً. فأين تكمن حياة ذلك الذي يمثل الأدب اليوم، وما الذي باستطاعته أن يقدمه؟

كنت عثرت عن طريق الصدفة على ملاحظة كاتب مجهول، ولهذا السبب لا أود أن أذكر اسمه، إذ لا أحد يعرفه. كانت تحمل تاريخ ٢٣ آب/ أغسطس ١٩٣٩، أي أسبوع واحد قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، ورد فيها: "لقد انتهى كل شيء، ولو أنني كنت كاتباً حقاً لتمكنت من منع وقوع الحرب." واليوم يقول المرء أي عبث هذا، إذ إنه يعرف ما الذي حدث منذ ذلك التاريخ، أي تناولوا ما هذا الذي كان يقدر فرد واحد أن يمنعه، ولماذا الكاتب بالذات؟ وهل يمكن التفكير في حقّ يمدد عن الواقع؟ وما

الذي يميّز هذه العبارة عن الالفاظ الطنانة لأولئك الذين قاموا بالحرب بوعي من خلال عباراتهم؟ لقد قرأت هذه الجملة بحيرة، ثم دونتها باضطراب متزايد. هنا فكرت في أنني وجدت كلمة "كاتب" أشدّ ما يشير إلى الامتناع في نفسي، فهذا مطلب يسبق على التقيّض التام لما يمكن أن يفعله الكاتب في أفضل الأحوال، ومثل على الادعاء الفارغ الذي يشوّه هذه المفردة ويحمّلها قدرأ من الرية حالما يضرب أحد من اصحاب الحرفة على صدره، مفصّحاً عن غاياته الكبرى.

لكن فيما بعد، خلال الأيام التي أعقبت ذلك، شعرت، متعجباً، بأن هذه العبارة لا تريد الفكك عني، وبانت تخطر في ذهني باستمرار، فصرّت استحضرها، وأفككها، فأنبذها، ثم استعديتها ثانية؛ إن الأمر متروك لي وحدي في أن أجعل لها معنى. فبدا غريباً في مطلع جملة: "لقد انتهى كل شيء." وهو تعبير عن هزيمة شاملة نكراه في زمن كان يأذن ببداية الانتصارات. ولأن كل شيء كان موقوفاً على هذه الانتصارات جهوت سلفاً بالنهاية اليائسة، وعلى نحو كما لو أنها واقعة لا محالة. بيد أن الجملة الحقيقية الفارقة: "لو أنني كنت كاتباً حقاً لتمكنت من منع وقوع الحرب" تتضمن بعد فمّن دقيق عكس الادعاء الفارغ، وهو الاعتراف الذاتي بالعجز المطلق. لكنها تميّز ويشكل أكثر من الاعتراف بالمسؤولية، وبالتحديد هناك، وهذا ما يدعو إلى الدهشة، حين يكون من النادر أن يتكلم المرء عن المسؤولية بالمفهوم الشائع للمفردة.

هنا تحدّث شخص ما كان يدرك، مثلما بدا، ما عناه بقوله، لأنه قاله في صمت، مرجعاً الكلام إلى نفسه. إنه لم يثبت مطلبه، إنما تخلى عنه، وقام باتهام نفسه بفعل يأسه بما سيأتي، بدلاً من للسببين الحقيقيين الذين يعرفهم بدقة معرفة أكيدة، فلو أنه لم يكن يعرفهم لفكر فيما هو قادم بطريقة مختلفة. وهكذا لم يبق ما يشكل مصدراً للحرية التي شعر بها المرء في البدء إلا أمراً واحداً: هو التصوّر الذي كان يحمله عمّا يجب أن يكون عليه الكاتب، وأنه كان يحسب نفسه كاتباً إلى لحظة نشوب الحرب عندما انهيار أمامه كل شيء.

نعم إنه هذا الادعاء غير الصقلاني بالمسؤولية هو الذي أغرائني وجعلني أؤمن في التفكير. هنا يمكن القول أيضاً بأنه من خلال الكلمات المستخلصة دائماً بصورة واعية، الكلمات المُساءة استخدامهما، وصل الوضع إلى الحدّ الذي باتت فيه الحرب واقعة بشكل محتمّ. وإذا كانت الكلمات قادرة على خلق هذه الأشياء كلها، فلماذا لا تستطيع منع وقوع الحرب؟ إذ ليس من العجب أن يتوقع أحد ما يجيد التعامل مع الكلمات أكثر من غيره أن تترك تأثيراً أكثر مما تتركه كلمات الآخر.

بهذا المعنى فإن الكاتب، وربما تسرعنا في العثور عليه هنا، هو من يتنظر الكثير من الكلمات التي يتعامل معها عن طيب خاطر، ربما أكثر من تعامله من الناس، مستسلماً لهما معاً، لكن بشفة أكبر إزاء الكلمات التي يستلها من مواقعها لكي يعيدها إلى أماكنها من جديد بقوة وفعالية كبيرتين، بعد أن يكون قد

استنطقها وتلمسها ومسحها وخدشها ونقشها، بل إنه يكون أكثر استعداداً أن يزحف أمامها بشخوع بعد كل وقاحتها الحميمة الطابع. حتى لو بدنا مذنباً في كلماته فهو مع ذلك مذنب بفعل الحب. ثمة أمر يختفي وراء هذه الأفعال جميعها، لا يدركه الكاتب دائماً، شيء غالباً ما يبدو ضعيفاً، غير أنه ينطوي أحياناً على نوع من العنف عزفه غزيفاً، ألا وهو الإرادة، أي إرادته في تحمّل مسؤوليته عن كلّ ما هو مصاغ بصياغة مفهومة في مفردات، وتحمل نتائج فشله.

فأي قيمة ينطوي عليها الأخذ بهذه المسؤولية الافتراضية من قبل الآخرين؟ ألا يسقدها طابعها اللاعقلاني أي قدرة على التأنيّر؟ أعتقد أن ما يفرضه الإنسان على نفسه يتم التعامل معه بأهمية، حتى من قبل الأشخاص المحدودي المعرفة، أكبر من التعامل مع الشيء الذي يفرض عليه قسراً وإكراهاً. ثم إنه ليس هناك من هو أشدّ قرباً من الأحداث وأعمق علاقة متشابكة معها أكثر من يشعر بالتقصير إزاءها. وإذا كانت كلمة كاتب تبدو منحورة بالنسبة إلى الكثيرين فإن ذلك يعود إلى أنهم يقرنون بها تصوراً عن الشكل الظاهري وانعدام الجدية، شيئاً ما ينسحب لكي لا يجعل الأمر بالنسبة إليه ثقيلًا. إن ربط السلوك المرتفع بما هو جمالي، على اختلاف أطرافه ومشابهه، قبل الدخول مباشرة في حقبة مظلمة من تاريخ البشرية، قد لا يدركها هؤلاء بأنفسهم، إنما تحسّ عليهم، جعل من غير السلائق إيداء الاحترام؛ إن فتحهم المزيفة وتحاولهم للحقيقة التي يتفادونها بفعل الاحتقار ليس إلا، وإنكارهم لكلّ صلة بها، وابتعادهم النفسي عن كل ما يقع عملياً، إذ أن هذه الأمور لم يطمعوا عليها في لغتهم التي يستخدمونها، ويفهم من ذلك بأن العيون التي كانت ترى بغناز وصلابة تعرض برعب من هذا الكمّ الهائل من العمى.

ومقابل ذلك هناك صبرات مثل تلك التي استهلكت بها رؤيتي هذه. طالما هناك من يتحمل مسؤولية الكلمات، يوجد بالطبع أكثر من واحد، مدرّكاً الإخفاق التام بحساسية عالية؛ فإن لنا الحقّ في التمسك بكلمة استخدمها دائماً مؤلفو الأعمال الرئيسية لبشرية، تلك الأعمال التي بدونها لا يمكن أن نمتلك الوعي بما تعنيه البشرية أصلاً. إزاء هذه الأعمال التي نحتاجها ليس أقلّ من حاجتنا لحبّزنا اليومي، وإن بطريقة أخرى، والتي تسندنا، حتى لو لم يبق لنا غيرها، وحتى لو نكون نعلم كيف أنها تسندنا، باحثين سدى في الوقت نفسه عمّا يضاهيها في عصرنا، لم يبق أماناً سوى موقف واحد: وهو أن نقصدونها، إذا ما أبدأنا تشدداً أمام الزمن، وأمام أنفسنا بصورة خاصة، الوصول إلى نتيجة مفادها أن ليس هناك كتاب اليوم، بيد أننا نتمنى بماطفة صادقة أن نحظى ببعض منهم. لعلّ هذا القول يوحي بالإيجاز ولا يتضمن أي قيمة إذا لم نحاول توضيح ما الذي يجب أن يتمتع به الكاتب لكي يستحق هذا الأدهاء.

أودّ أن أقول هنا أول الأشياء وأهمها هو أن الكاتب حامي التحولات، حامياً بعينين مزدوجين، أولهما هو أنه يجعل الإرث الأدبي للإنسانية الغنيّ بالتحولات ملكاً له. وكم يبدو هذا الإرث غنياً، فذلك أمر نعرفه الآن فقط، لأن كتابات الثقافات القديمة فكّت رموزها كلّها تقريباً اليوم. إلى حدّ القرن التاسع عشر كان يمكن لأي شخص معنىً بجوانب الإنسان الشديدة الأصالة والغموض، أي موهبة التحوّل، الاستناد إلى كتابين أساسيين من الكتب القديمة، أحدهما متأخر وهو: كتاب المأسوخ Metamorphoses لأوفيد Ovid، وهو تجميع منظم لجميع التحولات الأسطورية «الراقية» المعروفة آنذاك، وثانيهما متقدم وهو الأوديسة التي تتعالج على نحو خاص التحولات المليئة بالمخاطر للإنسان هو «عوليس» بالطبع. وتشكل ذروتها عودة «عوليس» إلى وطنه بصفته متسولاً، وهو أذلّ ما يمكن تخيله، وأشدّ التحولات كمالاً، وقد نجح فيها نجاحاً لم يستطع الوصول إليه أيّ شاعر من بعده، ناهيك عن تجاوزه. ومن المثير للسخرية ربما أن نسب في الحديث عن تأثير هذين الكتابين على الثقافة الأوروبية الحديثة، قبل عصر التنوير، ولاسيما أن بعده. قلدي أريوستو Ariosto مثلما الحال لدى شكسبير وعدد لا يحصى من الكتاب الآخرين تظهر مسوخ أوفيد بارزة؛ ومن الخطأ تماماً الاعتقاد بأن تأثيرها على الحداثة قد أصبح. لكنّ عوليس مازال يصادفنا إلى يومنا هذا؛ إنه أول شخص في الأدب العالمي يدخل في المخزون الرئيسي لهذا الأدب، ومن الصعب تعداد خمسة أو ستة أشخاص آخرين يتمتعون بقوة تأثير مشابهة.

أشرجلجامش

إن أول أثر أدبي كان موجوداً دائماً بالنسبة إلينا هو الأول حقاً، لكنه ليس الأقدم، لأن هناك ما هو أقدم منه قد أقصع عن وجوده؛ إذ لم تحض مائة عام على اكتشاف ملحمة جلجامش العراقية القديمة وإدراك أهميتها.

تبدأ هذه الملحمة بتحوك الإنسان الطبيعي إنكيكو، الذي كان يعيش مع الحيوانات في الغابات، إلى إنسان مدنيّ - ثقافيّ، وهذا موضوع مسنّا اليوم مباشرة، لأننا اطلعنا وبشكل مسجّد ودقيق على حياة الأطفال الذين عاشوا بين الذئاب. ثم تتخذ الملحمة منحى الصراع الرهيب مع الموت إثر وفاة إنكيكو رفيق جلدجاش، الصراع الوحيد الذي لا يُخلّي سبيل الإنسان الحديث وطعم مرارة الخلداء الذاتي عالق في فمه. هنا يجب أن أعرض نفسي شاهداً على واقعة غير جذيرة بالتصديق إلى حد ما: لا يوجد هناك أيّ عمل أدبي، وأعني ذلك بالحرف الواحد، حدد حياتي تحليلاً حاسماً مثلما فعلت هذه الملحمة ذات الأربعة آلاف عام، والتي لم يعرفها أحد حتى قبل قرن من الزمان. لقد تعرّفت عليها وأنا في السابعة عشرة من عمري، ومنذ ذلك الوقت لم تتخل عني، فكنت أرجع إليها كما لو أنني كنت أرجع إلى الكتاب المقدّس، وقد ملأني بالرغبة في انتظار المجهول أمامنا، فضلاً عن تأثيرها النوعي المتميّز. فمن المستحيل بالنسبة إليّ أن أنظر إلى دليل الأشياء الموروثة التي نستفيد منها كما نستفيد من الغذاء باعتباره أمراً متنبهاً، فحتّى لو تأكد بأن ليس هناك أعمال خطيّة مثبّنة ذات أهمية سنائيّة، فثمة مخزون هائل من التراث الشفهي الذي تتناقله الشعوب الطبيعية، وفيه من التحوّلات ما لا يتّهي، وهذا ما يعنينا الآن. فيمكن للمرء أن يقضي حياته لاستيعاب هذه التحوّلات وتحسّسها، وستكون هذه ليست حياة سيّئة. قبائل لا يتعدّى قوامها أحياناً بضعة مئات من الأفراد تركت لنا ثروة نحن لا نستطيع بالتأكيّد، لأننا نحن من أذنب في انقراضهم، أو أنهم يتعرضون للانقراض أمام أعيننا التي بالكاد تبصر شيئاً. لقد حافظوا على تحاربهم الأسطورية إلى النهاية، والمعجب في الأمر هو أن ليس هناك من ملأ قلوبنا أملاً ونعمنا مثلما فعلت الأشعار القديمة غير القابلة للمقارنة والتي قالها أناس طاردهم نحن وعاملناهم بنين وسليانهم حتى هلكوا بمرارة ويؤس. أولئك الذين كنّا نكّن لهم الاحترار بسبب ثقافتهم المادية المتواضعة، فأبدانهم دون تردد



إلباس كاتبي

وبلا رحمة قد خلقوا لنا إرثاً فكرياً لا ينضب. وسيعجز المرء عن تقديم الشكر والعرفان للعلم إذا ما استطاع إنقاذ هذا الإرث، ثم إن مهمة الحفاظ عليه وإنجائه من أجل حياتنا تقع على عاتق الكتاب. كنت قد وصفتهم بحماة التحوّلات، وهم فعلاً هكذا، لكن أيضاً بمعنى آخر. ففي عالم قائم على الإنجاء والتخصّص وحدهما، لا يرى إلا الأطراف التي يسعى إليها المرء بأفق محدود مستقيم، مسخراً قوته كلّها لبلوغ أطراف العزلة الباردة، غير أنه يطمس ويتنكر لما هو ملقى جانباً، للكثير المضاعف، الأصل الذي لا يعرّض نفسه مساعداً لبلوغ الأطراف؛ في عالم يحرم التحوّل أكثر فأكثر، لأنه يتعارض مع الإنتاج الملتبّي لجميع الرغبات. عالم يضاعف من وسائل تدميرها الذاتي بلا واعز، وينزع في الوقت نفسه إلى الاختناق بما هو موجود من الزوحيات البشرية المكتسبة قديماً والمتعارضة معه، في عالم كهذا الذي يمكن وصفه بأنّه من أكثر العوالم غروراً وعمى، يترادى بأن من الضروري بشكل حاسم أن يكون هناك من يتمتع بموهبة التحوّل هذه ويحاربها على الرغم من كلّ ذلك.

المهمة الحقيقية للكتاب

هذه هي المهمة الحقيقية للكتاب حسبما اعتقد. وعليهم أن يجعلوا النافذ مفتوحة بين الناس بغضل الموهبة التي كانت ذات طابع عمومي، ومحكوم عليها الآن بالضمور، لكن يجب أن يتمسكوا بها بكلّ السبل. يجب أن يكونوا قادرين على أن يصيحبوا أيّ أحد، بما فيه الفرد الصغير والساج والعاجز. يجب أن لا تفرّز رغبتهم في التعرّف على الآخرين داخلياً من قبل الصالح والأغراض القائمة عليها حياتنا العادية، الرسمية إن شئت القول، بل يجب أن تكون طليقة حرة من التّبيّ في النجاح ونيل الاعتراف، إنها الولع بحدّ ذاته، نعم الولع بالتحوّل. لعلّ الأمر يحتاج دوماً إلى أذن مفتوحة، لكنّ ذلك وحده ليس

بكاف، لأن أغلب الناس لم يعودوا نوعاً ما قادرين على الكلام، فيعربون عن أنفسهم في الصحف ووسائل الإعلام بعبارات حسنة الصياغة، مرددين الشيء نفسه دون أن يكونوا هم أنفسهم شيئاً واحداً. وعبر التحول وحده بالمعنى المتطرف الذي تستخدم فيه المفردة يصبح ممكناً تلمس الإنسان الذي يقف خلف كلماته، فالاستمرارية الحقيقية لما هو حي لا يمكن الإحاطة بها إلا عبر هذا الأسلوب. إنها عملية غامضة لم تُحلل بعد طبيعتها، إلا أنها تشكل المدخل الحقيقي الوحيد للناس الآخرين. لقد حاول المرء تعريف هذه العملية بطرق مختلفة، قسم الحديث عن الأفعال والتعاطف مع الآخر أو التقمص العاطفي، لكنني أفضل كلمة «التحول» الدقيقة المعنى، وذلك لأسباب لا أستطيع عرضها الآن. وبغض النظر عن التسمية فإن الأمر يتعلق بشيء حقيقي نفيس جداً، من الصعب أن يشك به أحد. إنني أرى المهنة الأصيلة للكاتب في تفرقة التواصل وفي ترجمته الضرورية مع بشر من جميع الأنماط، لأسباب، وقبل كل شيء، مع أولئك الذين نادراً ما يلتفت إليهم أحد. إنني أرى مهنة الكاتب في هذه الطريقة الفلقة التي لم يحطمها أي نظام أو يسلبها. من الممكن، بل من المحتمل بأن جزءاً واحداً من التجربة ينتقل إلى عمله الأدبي. أما كيف يقيم المرء ذلك، فذلك متروك سرعة أخرى إلى عالم الإغجازات والأطراف، الذي لا يعنينا أمره في الوقت الراهن، لأننا مشغولون بما سيكون عليه الكاتب، إن وجد، وليس بما سيخلفه.

عندما أحجم هنا كلياً عن الحديث حول ما يعدّ نجاحاً، بل أنظر إليه بريبة حتى، فإن ذلك يرتبط بخطر يعرفه كل إنسان بنفسه. التطلع إلى النجاح، والنجاح ذاته، يتطوئان على تأثير تضييقي. إن من يهي هدفه يشعر بكلّ ما لا يخدم الوصول إليه باعتباره عبثاً. فيتحرر منه لكي يزداد خفة، غير مهتم به، بيد أن ما يلقي به جانباً ربما يكون أفضل مما يعثر عليه؛ المهم بالنسبة إليه هو النقطة التي يصل إليها، قافزاً إلى الأعلى من نقطة إلى نقطة، وقيس بالامتنار. الموقع بالنسبة كل شيء، فهو معين من الخارج، ولم يخلفه بنفسه ولم يسهم في تكوينه. إنه يلحمه فيسعى إليه، ومهما كان هذا الجهد مفيداً وضرورياً في مجالات كثيرة من مجالات الحياة، إلا فإنه سيكون مدمراً بالنسبة إلى الكاتب الذي نريد أن نراه نحن.

على هذا الكاتب أن يخلق باستمرار مكاناً في داخله قبل كل شيء، مكاناً لعلم لا يظفر به بغية تحقيق أغراض مجزية، بل للناس الذين يتعرف عليهم أثناء تحركه فيستوعبهم. ومادام الأمر متعلقاً بالعلم فإنه يستطيع الحصول عليه فقط من خلال العمليات النزوية القوية التي تشكل البناء الداخلي لكل فرع من فروع العلم. ولا يرشده إلى اختيار فروع المعرفة الشديدة التباعد عن بعضها الآخر بقاعدة واعية، إنما الجوع الذي لا يدرى كنهه. وبما أنه يفتح نفسه كذلك للناس المختلفي الأطياف وفيهمهم بالطريقة القديمة ما قبل العلمية، أي طريقة التحول، لأنه يعيش حركة داخلية متواصلة، لا يجوز له أن يضعفها أو ينهبها، فهو لا يجمع الناس، ولا يلقي بهم إلى الجانب بصورة منتظمة، إنما يلتقي بهم فحسب ويستوعبهم أحياناً، وبما أنه يتلقى منهم صدمات عنيفة فإن من الجائز تماماً أن يكون التوجه المسافجئ إلى فرع جديد من فروع المعرفة محدداً أيضاً من قبل تلك اللقاءات.

إنني مدرك بأن غرابة هذا المطلب سوف لا تثير سوى الاعتراض، وشي هذا الكلام كما لو أن الكاتب مشغول بنفسه من المحتويات المتناقضة المتصارعة، ثم إن اعتراضاً وجيهاً جداً كهذا لم يكن استطاع رده إلى حين. إن الكاتب سيكون أقرب الناس إلى العالم إذا ما حمل الفوضى في داخله، غير أنه، ونحن ننطلق من ذلك، يتحمل المسؤولية إزاء هذه الفوضى. إنه لا يرضى بها ولم يكن مرتاحاً لها، ولا يتخيل نفسه عظيمياً لأنه يحفظ بركان خنس من التناقض والانفلات، إنما يكره الفوضى ولم يقطع الأمل في التغلب عليها من أجل الآخرين ومن أجل نفسه أيضاً.

لكي يقول شيئاً ذا قيمة عن العالم فعليه أن لا يتحيه جانباً أو يتغاده. وبما أن العالم عبارة عن فوضى، على الرغم من جميع الخطط والمقاصد فهو أكثر فوضى مما كان عليه في السابق؛ لأنه يتحرك بسرعة متزايدة نحو مداره الذاتي، هكذا، وليس على غرار حذف المحظور لكي يقدم للقارئ نظيفاً مهلباً ناعماً، فعلى الكاتب أن يحمل العالم، لكن لا يجوز له أن يستسلم للفوضى، بل عليه التعارض معها ومقاومتها بعفوان أمله. فما الذي يمكن أن يعنيه هذا الأمل، ولماذا هو ذو قيمة فقط عندما يتشظى من التحولات التي يكتسبها الكاتب بالانفعالات التي تولدها قرآله الآتية ثم يقدمها بصراحة لمحيطه الاجتماعي الراهن؟

هناك إذن قوة الشخصيات المتمكنة منه والتي لا تريد إخلاء المكان الذي شغلته في أصمائه، فهي تتفاعل من خلاله كما لو أنه مكون منها. إنها أغلبية المتطوعة الواعية، وبما أنها تعيش في داخله فهي تمثل مقاومتها

للموت. ومن جملة السمات التي تتحلّى بها الأساطير المتواترة شفافاً هي أن البعض منها لابد أن يتصارع مع نفسه. فحيويتها تضاهي حزمها، ومن معانيها هي أنها لا تتغير. فقط في بعض الحالات المتفرقة يمكن العثور على ما يشكل هذه الحيوية، وربما نادراً ما تساءل المرء لماذا يتوجب عليها أن تتناقل. إن من السهل وصف ما الذي سيحدث للمرء الذي يواجه واحدة منها للمرة الأولى. اعتقد أنكم لا تتوقعون مني أن أقدم لكم اليوم وصفاً شاملاً، بلونه سيكون الموضوع بلا قيمة. أود أن أشير فقط إلى قضية واحدة: وهي الشعور بالثقة والتأكيد القاطع، هكذا كان الأمر، ولابد أن يكون على تلك الشاكلة. وبغض النظر عما يلحس المرء في الأسطورة، حتى لو بدت هذه الأسطورة غير جديرة بالتصديق ضمن سياق آخر، ستبقى مترفعة عن كل شك إليها، ثمة فقط شخص متفرد غير قابل للتزييف.

لقد أمداء المرء استخدام هذا الحزين الاحتياطي من الثقة الذي وصل الكثير منه حتى إلينا نحن، معتبراً إياه إعارات غريبة شاذة. نحن نعرف معرفة جيّدة سوء الاستخدام السياسي الذي مورس مع الأساطير، فحُرِّثت وخُفِّت وشُهِت، فمن طبيعة هذه الإعارات الضخيلة القيمة أن تتدوم بضعة أعوام ثم تنفجر. هناك إعارات من النوع المختلف تماماً أقدم عليها العلم، سأذكر منها فقط مثلاً صارخاً: كيفما يفكر المرء في المحتوى الحقيقي للتحليل النفسي فإن جزءاً كبيراً من قوّته مستمد من مفردة «أوديب»، حتى النقد الرصين الموجه إليه، والذي ابتداء منذ فترة، يحاول أن يتعرض له من خلال هذه المفردة.

ويُفسّر مسوء الاستخدام المختلف الأنواع الذي مورس مع الأساطير قضية الإعراض عنها التي تُغيّر بها عصرنا. إن المرء يشعر بها باعتبارها أكاذيب، لأنه لا يعرف سوى الإعارات المأخوذة منها، فيلقى بها مع الإعارات جانباً، لأن ما تعرضه من تحولات يبدو مجرد شيء غير جدير بالتصديق. ولا يلدرك المرء من معجزاتها إلا تلك التي تكشف حقيقتها عبر الاختلافات، غير ملتفت إلى أننا ندّين إلى النماذج الأصلية للأساطير التي خلقت هذه المعجزات واحدة بعد الأخرى.

إلى جانب كل هذه المحتويات الاستثنائية النوعية التي تشكّل خصوصية الأساطير هناك سمة التحوّل الذي يمارس ضمن إطارها. فبمر هذا التحوّل بالمثل خلق الإنسان نفسه، ومن خلاله صار يتّنى العالم ويساهم فيه، وهو مدين بسلطته للتحوّل. وعلينا أن نقرّ بأنه مدين له بما هو أفضل من ذلك، إنه مدين له برحمته. إنني لا أتدبر هنا في استعمال مفردة تبدو في نظر المفكرين غير موضوعية: لأنها نفّيت إلى مناطق الديانات، وهذا أيضاً يتعلّق بموضوع التخصص، فصارت تدار هناك ويرد ذكرها. إلا أنها كانت تُبعد عن القرارات النزهية المتعلقة بحياتنا اليومية المهيمن عليها تقريباً شيئاً فشيئاً.

لقد قلت إن من يشعر بالمسؤولية هو وحده يمكن أن يكون كاتباً، مع أنه ربما يفعل أقلّ مما يفعله الآخرون في الذود عنها بأعمال فردية. إنها مسؤولية من أجل الحياة التي تدمر نفسها، وعلى المرء أن لا يدخل في القول بأن هذه المسؤولية تنغذّي من الرحمة؛ والمساندة بالرحمة باعتبارها شعوراً عاماً غير محدد ستكون عديدة القيمة، إنَّما هي تتطلب التحوّل للمعوس من كلّ فرد موجود ويميش. وبالأسطورة والآداب الموروثة يتعلّم الفرد التحوّل ويمارسه، وسيكون هذا التحوّل عدماً إذا لم يطبّقه بلا انقطاع على بيئته الاجتماعية. فالحياة الغنية التّوّج السارية فيه والتي تبقى منفصلة حسياً في جميع أشكال تجلياتها، لا تتلاطم في أعماقه على هيئة مصطلح مجرد، لكنها تمنحه القدرة على مواجهة الموت، فيستحيل حينئذٍ إلى شيء ذي طابع عام.

ليست مهمة الكاتب أن يسلم البشرية إلى الهلاك، فهو الذي لا ينقل نفسه أمام أحد سيُعرف بفرع على السلطة المتنامية للموت من خلال الكثيرين. وحتى لو بدأ ذلك للجميع عملاً مفامراً وبلا طائل فإنه سيظلّ يهزّ أركان الموت، لا يستسلم أبداً ولا تحت أيّ ظرف من الظروف. إن كبرياءه هي التي ستجعله يتصدّى لرسول العلم للكثيرين على الدوام في الأدب، ويقارعهم بوسائل أخرى غير وسائلهم؛ سيمش حسب قانون، هو قانونه نفسه، لكنه لم يصنع له وحده، قانون يقول: "إن على المرء أن لا يدفع أحداً إلى العدم حتى لو أراد هذا من طيب خاطر، وعليه أن لا يبحث عن العدم إلا لكي يمر على طريق الخلاص منه حتى يرسم الطريق للآخرين. إن على المرء أن يصبر على الحزن واليأس، لكي يتعلم كيف يستطيع إنقاذ الآخرين منهما، لكن ليس بمعنى إحسان السعادة التي تستحقها المخلوقات، حتى لو شوّء بعضها البعض ومزقه تحزّفاً".

ترجمة: حسين الموراني

المصدر: Das Gewissen der Worte. © Hanser Verlag, München 1976

نصب الحرية

فصل من رواية الكاتبة العراقية اليهودية الأصل منى يحيى. فيه شرح لمعاني ودلالات جدارية الفنان العراقي جواد سليم «نصب الحرية». كما نقدم في الصفحة ٧٢ من هذا العدد قراءة نقدية لهذه الرواية.

- إلى دائرة الجوازات، من فضلك، قال أبي لسائق التاكسي.
- أنا لا أكاد أصدق ذلك! همست في أذن شولي، وأنا أجلس بينه وبين أمي على المقعد الخلفي.
- لا يزال كل شيء موضع شك، رد بنبرة جافة، وبصوت عال، يمكن أن يسمعه الكل.
أدارت أمي رأسها، وحين لاحظت نظرتها، عصفت على شفتها العليا، تريد بذلك أن تنوء، بأنه يتصرف بنهور، وهي تومئ برأسها باتجاه السائق.
- كيف؟ ما الأمر؟ ما الذي قلته؟ رد بتجهم وهو يشيح بنظراته.

مررنا بشارع السعدون، الطريق الأقصر والأكثر راحة للوصول إلى المدينة. يتطلع شولي بدهول إلى المشاهد التي تتابع أمام ناظريه عبر النافلة. لا غرابة، إذا أخذنا بعين الاعتبار، أنه نادراً ما غادر الدار خلال الأشهر الستة منذ إطلاق سراحه. حين مررنا بـ «أبو يونان»، محل الهامبورغر الجديد، صاح أخي مأخوذاً. لكنه لم يكن في السابق سوى كشك! هف وهو يعبر عن دهشته، بصوت عال، بالبؤفيه البيضاء الطويلة واللوحه الزرقاء الضخمة المتدلية فوقها.

وكان الهامبورغر ألد طعاماً، قال السائق معلقاً. بيد أنه سرعان ما تحول اهتمام شولي إلى البدعة التالية، مكتبة Mackenzie، التي تعرض كتباً بالغة الإنكليزية، والواقعة عند التقاطع، قد ابتيعت للمالك آخر وأصبحت تعرف الآن بمكتبة ماجد. بعد مسافة قصيرة من اجتياز السائق لجامع الشهيد أخذ يطفو في السرعة، قام برفع رجاء النافلة، وضرب على نغير العربة، وهو يلعب أعمال ترميم الشوارع التي لا تنتهي والغبار الذي علينا أن نستشفقه إلى الشمال من ذلك ما زال يعرض في سينما النصر فيلم «أبي فوق الشجرة». إنه أول فيلم مصري يطفي عليه موضوع التحليل النفسي. سترنا مشاهدته أنا وسلمى. ما أن اقتربنا من الباب الشرقي، حتى شعرت باضطراب وأنا أذكر ساحة التحرير وما يربط بها من ذكريات



فطبعة. دفعتني شولي وهو يشير إلى نصب الحرية الذي يستحوذ على المكان: إنها منحوتة حجرية يبلغ طولها خمسين متراً وارتفاعها تسعة أمتار، ثبتت عليها تماثيل برونزية.

- اتعرفين أن النصب يقدم لنا استعراضاً لتاريخ الثورة؟

- اسكت، قلتها بسرعة على أمل ألا يكون السائق قد سمع هذه الملاحظة.

- اتعني ثورة ١٤ تموز، قال السائق وهو يتطلع إلى شولي في المرآة متسائلاً.

قام أبي بإنزاع حاجب أشعة الشمس، وهو يتمثل باضطراب في جلسته إلى جانب السائق، محاولاً عبثاً التقاط نظرات ابنة في مرآة الزينة المثبتة أمامه.

- بالضبط، تاريخ ثورة ١٩٥٨، إنها تتيح لنا قراءتها في تتابع تاريخي من اليمين إلى اليسار.

- ماذا تعني بالتتابع التاريخي؟

- انظر إلى أقصى اليمين، إلى هناك في الجهة الأخرى. ألا ترى الجسود؟ هذا يعني، في البداية كان الحصان وهذا غاية في البساطة. بيد أن النصب أصبح الآن خلفنا، فبدلاً من أن يستمر في طريقه إلى المدينة، استدرك سائق تاكسي نحو اليسار، من غير أن يسأل، ليمر حول الساحة، ليوفر لنا ولنفسه الفرصة

في تأمل الحصان الأول. نفرت أمي على كنف أبي، تريد منه أن يتصرف بشكل ما.

- لتكف عن هذا، فوراً، يا شولي... قالها والذي بغضب باللغة الإنكليزية وهو يستدير.

تجاهل شولي طلب والذي واستمر مسترسلاً في إيضاحاته للسائق في لهجة دراجة في الأحياء الإسلامية.

- في البداية كان الجسود، الجواد العربي، رمزاً للنقاء والحياة. الحصان يشب غاضباً. الناس من حوله يملون من الألم وهم يدنون بانفعال سواعدهم وأرجلهم. هناك رجلان يقبعان خلف القضببان. ثلاث

أمهات تكلن يكيين أبناءهن القتلى. صورة تعبر عن العنف والعسف. مرحلة ما قبل الثورة.

رفع السائق عنقه وهتب،

- لكن أين أقدمهن؟ الله، النساء بلا أقدام! والشهيد في الجانب الآخر، في الوسط، يقف على رأسه، ليس

كذلك؟ لماذا؟ ربما كان الفنان مخموراً، عندما أنجز ذلك؟ ها، ها... أم أنه لم يتعلم فنه بشكل سليم؟

- بالطبع، تعلم ذلك! لكن يستطيع الفنان وفقاً للفن الحديث أن يصور الناس هكذا، كما يراهم. فالبيت

في حالة استلقاء، على سبيل المثال، وجرى تصويره من الأعلى.

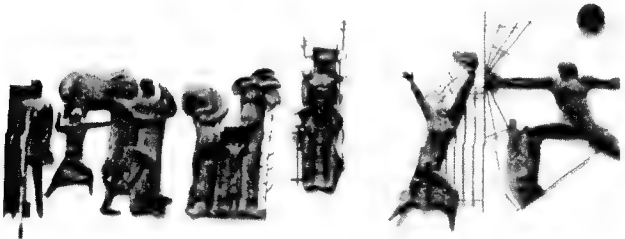
أوقف السائق سيارته ومكث يتأمل الجدارية بعيون جديدة، مفتتناً بشروح شولي. قام سائق تاكسي آخر

قادم من جسر الجمهورية بالضرب بلا توقف على زموور سيارته، وهو يستدير نحو الساحة، حتى بعد ما

اجتازنا. لم يشغل السائق نفسه بالأمر، إنما قام بإشعال سيجارة بكل هدوء.

- من أعلى! ردد ذلك بنبهة يتداخل فيها اللهو بالدهشة.

- حسناً، لتأخذ المقطع الوسط. أترى التمثال الضخم، الرجل الذي يعتمر خوذة، الذي يبدو وكأنه لاعب



رياضي يثب تحت الشمس؟ إنه على ما يظهر جندي، يقوم بفك القضبان الحديدية ويأخذ بيد السجناء إلى الحرية.

- انتظر، انتظرا أي حرية؟ أين هي الحرية؟

- يرمز لها من خلال المرأة التي تحمل مشعلًا - والتي تقف هناك إلى يسار الجندي.

نظر السائق نظرة متفحصة للتحقق من مزاعم شولي، ثم ابتسم بشماتة.

- حقًا، هذه امرأة. تصورت، أنك تمزح. امرأة كرمز للحرية! إنه يبدو معاصراً جداً! أيرى الفنان الأمر هكذا؟

- لا، إن هذا رمز إغريقي قديم قدم الدهر.

- لا أعرف، إن كان الفنان إغريقياً هب السائق وهو ينهي الدورة الثانية حول ساحة التحرير.

- لا أبداً، إن جواد سليم فنان عراقي.

- إذن كيف يستخدم رموزاً إغريقية؟ أم ثورة الإغريق؟

- ليس الأمر كذلك. فترات الفن عالمي.

أسند السائق رأسه إلى راحته اليسرى وهو يضع مرفقيه على إطار النافذة، ويمنح نفسه الوقت، ليفكر بما قاله شولي. أضحي ولدنا فيلسوفاً، همست أبي. قام أبي بوضع النظارة الشمسية على عينيه. بينما واصل أخي ليضاحاته بسطوة لا جدال فيها.

- المرحلة الختامية، حيث المشهد القائم على الجانب الأيسر من الجدارية، تعكس انسجاماً. إذ تحولت القضببان إلى اخصبان. رجل آشوري وآخر سومري يرمزان إلى العرب والاكرد، حيث يسكان مساحة معاً، بينما تمثل المراتان دجلة والفرات. انظر إلى التمثال في أقصى اليسار. يظهر الرجل الضخم الذي يحمل في يده مطرقة عامل. هكذا تسود حالة تعبر عن السلام والحرية والحضب والحضبة والإنتاجية، باختصار إنها نهاية سعيدة. صفر السائق، مندهشاً لطلاقة لسان شولي موجهاً حديثه إلى أبي:

- أمر كل يوم بهذه الساحة، وتصور، أنني لم أحمل نفسي، ولا مرة واحدة، مشقة تأمل النصب. هل يضيركم أن أقوم بدورة أخرى؟ أمل، ألا تكونوا على عجلة من أمركم.

وقبل أن يستطيع أبي الإجابة، أعطى إشارة ضوئية للاستدارة نحو اليسار وهو يبحث عن نظرة شولي في المرأة.

- لنرى، إن كنت استوعبت ذلك حقاً، يا أخي. في البداية كان الاضطهاد. ثم جاءت الثورة. وفي الختام الحرية، اليس كذلك؟ يختير ذلك بنفسه، وهو يعد على أصابع يده الكلمات الثلاثة الأساسية. - بدقة تامة.

- وبذلك انتهى الدرس، تنهد والدي معلقاً.

- باستثناء أن قرأ من اليسار إلى اليمين! أضاف شولي، مع ابتسامة على جانب من شفثيه.

- سأنفجر للحظة، قالت أمي محذرة أبي بصوت منخفض، بيد أنها اكتفت بالضرب على فخذهما.

- ماذا يعني هذا؟ سأل السائق.

- لحد الآن قمنا بمشاهدة الصورة من اليمين إلى اليسار، لأن العربية تقرأ هكذا. لكن لنفترض أنك سائح إنكليزي تزور بغداد، وإنك قد مررت بهذه الجدارية... حينذاك ستقرأ بالطبع الترتيب التاريخي بطريقة معكوسة، هذا يعني، من اليسار إلى اليمين. أفهمت؟

- نعم، نعم، أنا أستطيع قراءة الإنكليزية لحد ما، لكن ليس لدرجة جيدة جداً.

- هذا ليس له أي أهمية، إنما عليك فقط أن تفكر بالإنكليزية، أو بالأحرى، تحمس الطريقة الإنكليزية! لذا عليك أن تفسر الاتجاه وتنتظر إلى مجريات الحكاية من اليسار إلى اليمين. عليك أن تحاول ذلك. ابداً الآن من أقصى اليسار. ما هي القصة التي ترويها لك التماثيل الآن؟

يأخذ السائق نفساً عميقاً من سيجارته ويدور بسيارته، من غير أن يسأل أو يعلن عن ذلك، للمرة الرابعة حول الساحة. بينما كان يجول بصره من نقطة إلى أخرى داخل النصب، أخذ يتمثل في سيره وكأنه تلميذ أثناء أداء الامتحان.

- في البداية كان العرب والاكرد يعيشون مع بعضهم البعض بوتام كالأخوة! وكان الرفادان يمتلئان أرضاً خصبة. كانوا يزرعون الأرض. كان كل شيء في حالة ازدهار ونجاح. النقط يتبثق من منابيه. كنا سعداء



كوكب من يمني

- وأثرياء. كنا نخشى الله، ولا هم لنا، أي أننا كنا في اللجنة.

- رائع، استمر.

- ثم ... جاء جندي ... وحطم هذا الاتساق؟ وحجب الحرية والمعدالة خلف الفضبان؟

شولي ذندن بصوت هامس مؤيداً.

- ما الذي دفع بوطنا إلى الاختناق بالاضطهاد والمعاملة. فالسجون تغص بالرجال الأبرياء. والأمهات لا يتوقفن عن ندب أبائهن الشهداء. يعيش الناس هنا حالة من اليأس اللطيق. والحواد الأبيض يريد أن يفر. لقد جرحت كرامتنا. وما زال الطغنيان سائداً. يستغلنا الإمبرياليون. أصبحت حياتنا كابوساً. إنها الكارثة.

- غماماً، أيده شولي بارتياح مشوب بالكآبة.

يرمي السائق عقب سيجارته من النافذة ويدمدم متلماً.

- هل ينظر الأمريكان إلى نصب حريتنا نظرة كهذه؟

- هذا ما أتوقعه. لكني، بالطبع، غير متأكد من مسألة الإمبرياليين، قال شولي وهو يضحك ضحكة خافتة.

- ماذا يعرف الأمريكان عن الدهنية العربية! بهذا ختم السائق حديثه وأخذ يضحك.

أشعل لنفسه سيجارة أخرى ثم سار إلى الأمام داخل المنيبة. لم تمض سوى دقائق قليلة حتى وصلنا إلى دائرة الجوارات. نزل شولي من التاكسي، وأمي وأنا. بقي أبي جالساً ليدفع الأجرة. فاستغللت أمني الوقت، لتعنف إينها:

- ألا يكفك ما أنت فيه من صعوبات؟ في المرة القادمة لن يستطيع حتى الله أن ينفذك. لماذا تفعل كل هذا بي؟ هل تعتقد، أنني قادرة على تحمل الجحيم مرة أخرى؟

يبدو أن أمني قد دخل في نزاع مع السائق، الذي يتعمد متجاوزاً مسافره، ثم يفتح الباب ويلوح له بيده. قام أبي بترك ورقة نقدية خلف الزجاج الأمامي. يتناولها السائق ويدسها في جيبه والذي بينما يضع والذي أحد أقدامه على رصيف الشارع وهو يهز رأسه احتجاجاً، يلغقه السائق إلى الخارج برفق. يحاول والذي أن يرمي الورقة النقدية عبر النافذة، لكن سائق التاكسي ينطلق بسيارته وهو يلوح له بيده مودعاً.

- لا يريد فلسواً، قال أبي موضحاً. قال لي، إن ما علمه إياه شولي، هو مكافأة عادلة بدلاً من الأجرة. واستطرد قائلاً، إنه من الآن فصاعداً سيروي لكل مسافره حكاية النصب، حين ير بساحة التحرير.

- لكن في أية رؤيا يا ترى، قال شولي.

دس أبي الورقة النقدية ذات الشيا العديدة في جيب قميص ولده.

- إني أحزنك يا شولي، من أن تتصرف بذلك مثالي، إما أن تلزم الصمت، أو تعود في الحال إلى البيت. هل فهمتني؟

- رويداً رويداً! هون عليك، قالت أمي وهي تعاتبه بركة. كلنا بحاجة، في الساعات القليلة القادمة، إلى أعصاب قوية. لا أحد يعرف ما ينتظرنا في داخل هذه الدائرة؟

يبدو أن المسألة التي طرحتها أمي، تشغل بال كل اليهود، منذ أن أعلن في الأسبوع الأخير عبر المذيع، من أن الحكومة تريد أن تعوض عن الجور الذي ارتكبه الحكومات السابقة بحق الطائفة اليهودية. ويتم رفع القيود، كتجميد السندات والأسهم وحسابات المصارف، كما سيسمح لهم ببيع العقارات. والبدء من ذلك، على اليهود الراغبين بمغادرة البلد، تسجيل أنفسهم منذ الأسبوع القادم لدى دائرة منح الجوازات، في وزارة الداخلية، التي أنشئت خصيصاً لذلك. صعدنا درجاً سريع التفتت وكانت تصل إلى مسامعنا قهقهات من الطابق الثاني، ممزوجة بشرثرة صاخبة في اللهجة اليهودية. ورغم أنه كان يوم سبت، كان المعر خاصاً بالناس، كانوا متحين على صعود الدوازين، يدخنون ويتسامرون. يصفون خططاً ثم يتبادلون النكت حولها. رجبوا بنا ترحيباً حاراً، وادروا الاستمارات الموضوعة على المظفة في قساعة الانتظار واخبرونا، أن الضباط الثلاثة المسؤولين هنا مهذبون ومستعدون لتقديم المساعدة. إنهم في حالة إجهاد فهم لم يضعوا في حسابهم، أن يتعرضوا في اليوم الأول لاردحام ضخم كهذا.

قام والدي بملا الاستمارات، وثبت صورنا عليها، وانتظر، إلى أن يأتي دوره. في غضون أسبوع واحد أصبح إصدار جواز سفر سهلاً كسهولة شراء تذكرة اشتراك موسمية.

عند اليهود الذين يتدفقون إلى هنا أخذ يتزايد. البعض تجشم عنه سفر طويل من البصرة، بعد حصولهم على موافقة خاصة للسفر إلى هنا. مع كل قادم جديد يزداد انتعاش الحاضرين ويعاد طرح ذات المراهنات. كانوا يناقشون نوع الجوازات التي ستحصل عليها. وإن كانت جوازات سفر اعتيادية أم أنها مجرد تصريح بالمرور؟ فجواز السفر يتيح لنا السفر إلى الخارج وكذلك العودة. أما التصريح بالمرور فانه يكون ساري المفعول لمغادرة البلد فقط، ويعني أن علينا التخلي عن جنسيتنا وأن نخلف ملكيتنا وراثة. إنها صفقة رديئة، لكن هل نحن في وضع يسمح لنا بالتفاوض بحرية كبيرة؟ من كان يتوقع أن تخضع هذه الحكومة للرأي العالمي أصلاً؟ والله، كان خبر هبوط رجال فضاء أمريكيين على القمر أكثر مدعاة للتصديق من سفرنا على متن طائرات الخطوط الجوية العراقية وهبوطنا بأمان في بلد حر. هذا يعني، أن إسرائيل قد توصلت إلى اتفاقية مع العراق لصالحنا - بالطبع من خلف الكواليس. قيل لنا، إن كندا وأستراليا وهولندا وبلجيكا على استعداد لاستقبالنا. ما هي اللغة الشائعة في هولندا؟ أوجد يهود في بلجيكا؟ لعلهم ليسوا من الاشكيناز؟ هل تتخيلون، أن من الممكن أن يتزوج شبابنا من فتياتهم؟ أين تتوفر أفضل الفرص، لفتح متجر جديد؟ أين تكون أفضل جامعات العالم؟ وأفضل الأطباء؟ ماذا يرتدي الناس في كندا؟ يزعم أن درجات الحرارة هناك لن ترتفع أكثر من درجة الصفر. كم عدد الحفائب التي سيسمح لنا بأخذها؟ يقال إن الفرنسية التي يتم تداولها في منطقة الكيبك في كندا تختلف تماماً عما تعلمناه في المدرسة. لعلنا نستطيع الاحتفال بالعام الجديد في بلد آخر؟ هذا أنهم قد يخذلونا بالطبع.

خرج أبي من المكتب.

- لقد تم إنجاز أهم الإجراءات الرسمية. عليّ أن أحضر إلى هنا في الأسبوع القادم وأن أوقع على بقية الأوراق. حالاً يتم جمع كل الأوراق، يكون الأمر قد أوشك على النهاية، هذا ما قالوه. كلا، لم يخیل إلهم أنهم يخذلونا! ما أن غادرنا البناية، حتى أحاط أبي أمي بلراعه، بعقوبة. ... من يعلم، ربما كان الأطفال يستطيعون أن يكملوا ذلك مع نهاية الشهور الثلاثة من فصل الحريف الدراسي ...

لم يقيم أبي من قبل باحتضان أمي بلراعه في مكان عام! أصبح سيره سهلاً على حين غرة، وصوته خالياً من الهم. وبدا لي وجهه غريباً تماماً: وجه رجل شاب، وعد بالقمر.

ترجمة: علي أحمد محمود

المصدر: Mona Yahia: When the Grey Beetles Took Over Baghdad.

© Peter Halban Publishers LTD, London 2000

منمنمات قاهرة

يوميات كاتب إيراني في مصر

١١ أيار/ مايو ٢٠٠٢

أصل إلى مطار القاهرة في الساعة السابعة وخمسين وعشرين دقيقة مساءً بتأشيرة سليمة ملصوقة في جوار سفر اللاجئين السليم الذي أحمله. جعلتني التجارب السابقة أكثر حصة فطلبت من السيد فيستل، المسؤول في معهد غوته بالقاهرة، أن يستقبلني بالمطار. يدعي أحد ضباط شرطة المطار أن السلطات الأمنية لم تتخذ قراراً بعد بشأن تأشيرتي. أنتظر جالساً على كرسي بالمنطقة للحايدة، أعداد لا حصر لها من رجال الشرطة تتجول في المكان. تفصح نظراتهم لي عن مزيج من الفضول والاحترار، حتى علامات النظافة بحجابهم المحكم يرمقني أيضاً بنفس تلك النظرات. خلف الحاجز يجلس جندي. ترقد طاقيته بجانب بندقيته الآلية على المائدة. لقد خلع حذاه. يقرأ القرآن ويتمايل بجذعه والذراع غادياً مثل يهودي متدين. هل يحمي هذا الورع دولته بالبندقية الآلية أم بالقرآن؟ أخيراً تُخرجني السفارة الألمانية بعد أن أبلغها معهد غوته بالأمر. بعد أربع ساعات من الانتظار أطأ أرض مصر.

نصل إلى الفندق عند منتصف الليل. عند المدخل بوابة إلكترونية تلك التي بالمطار، لكن هذه الأخيرة لا تعمل. يلوح الشرطي المثالب الجالس أمامها لنا متعباً. يقدمني السيد فيستل بصفتي د. سعيد. يتطلب الجنوب بعض الأكاذيب. عشاء متأخر مع السيد فيستل. ردأ على سؤاله عن رغباتي، أفصح له عن رغباتي في تفصيل بدلة هنا بمصر. ليست هناك مشكلة، فمجندي التقني الذي يعمل بالمعهد له أخ يعمل خياطاً. كتمت رغباتي الأخرى في أن أشهد ذبح جمل، حيث أنني لم أبرا بعد من آثار المعاملة في المطار. بعد العشاء زهرة قصيرة. تعود إلى ذاكرتي الآن مشاهد الناس والشوارع في طهران قبل أربعة عشر عاماً.

١٢ أيار/ مايو

القاهرة مزعجة، تنمو وتتسع دون أن تدري إلى أين؟ الأشجار قليلة، لكنها متألقة. هل يرمز ذلك لانتصارها على الصحراء؟ أو هل يعتني بها البشر جيداً؟ أمام الفندق يقف زير مليء بالياه في الظل، سبيل للمطش وبل مقابل. يجيء سائق معهد غوته لإحضاري ويريد أن يصرف متي على الفور إن كان الشاء أفضل أم الخسني، لا تعجب إجابتي بأن الاثنين وجهان لعملة واحدة. أمام المعهد يقف عسكري ويحرص الثقافة الألمانية ببندقته الآلية. أمام كل مؤسسة وكل بنك يقف عساكر يشبهون في سوء تغذيتهم وأعينهم الخائفة الوجلة قطع القاهرة وهم لا يعرفون إن كانوا يحرسون شيئاً ما أم يخافون من شيء ما. يرحب بي السيد ابيرت مدير معهد غوته بود ويقدمني لزميلته السيدة غادة الشرييني. اليوم في المساء سألتني مع نجيب محفوظ. يجلس نجيب محفوظ كل سبت في فنلق "شيرد" ويحج إليه مريدوه. اتفقنا على ألا أزعج الأديب الحائز على جائزة نوبل.

بعد الظهر حوار مع صحيفة «أخبار الأدب» وهي أهم صحيفة أدبية في البلاد. يرأس تحريرها الروائي جمال الغيطاني. يقدم مجندي نفسه إليّ بلغة ألمانية سليمة. ينبغي علي أن أتصل به في الساعة التاسعة مساءً حتى يأتي ليأخذني إلى أخيه الخياط. يعطيني رقم تليفونه المحمول. الجميع تقريباً يمتلكون تليفوناً محمولاً، فالتليفون العادي صار بلا فائدة. ثم الطعام مع السيدة غادة الشرييني. أتعلم كلمة جديدة، كلمة خبز معناها بالمصرية «عيش»، الكلمة نفسها تعني في مصر الحياة وتعني في إيران التمتع.

مكتب جمال الغيطاني صغير ومليء بالكتب والملصقات والصحف. يحييني بود شديد. جمال عاشق للتراث الإيراني. يعدد لي عناوين المؤلفات التي أشرف على إصدارها من جديد في السنوات الماضية. معه تليفون محمول. لا بد أن التليفون الموجود على المكتب ما هو إلا للزينة فقط.

يقدمني جمال لنائب رئيس التحرير محمود الورداني. يبدأ الورداني الحوار بعد ذلك مباشرة. تبهمني أمثلة

محمود وأبعاده. في النهاية يقول لي إنه روائي وقد ترجمت له قصص إلى الألمانية ضمن أنطولوجيا للقصّة المصرية صدرت عن دار لينوس السويسرية. لا بد لي أن أسأل نفسي: متى قام روائي بمحاورتي من قبل؟ لم يحدث لي ذلك في ألمانيا قط.

عند الوداع يقول لي الغيطاني: "ستقابل غداً أمام مسجد السلطان حسن، أكبر مساجد القاهرة"، ثم يغمر لي بعيني: "أمامه على الناحية المقابلة يرقد الشاه. حينما احتفل بمرور ٢٥٠٠ عام على اعتلاء أسرته العرش، هل كان يظن أن مثواه الأخير سيكون هنا؟" أسأله إن كان علي أن أזור قبر الشاه، أنا الذي ناضلت ضده طوال الوقت. ويجيب جمال: "وهل لأحد سوا أن يفعل ذلك، فنحن معارضيه، لا نبغضه رقلته الأخيرة" ثم بعد فترة من الصمت "يا صديقي، إن المغلوب يستحق الاحترام" يعانقني.

نصر السيدة غادة الشرييني على أن تريني رفاق المدق. لقد خلده لحبيب محفوظ في روايته. لا تتمكن من الوصول إلى الزقاق. تسأل والرجال يجيبوني. السيدة عادة الشرييني ذات شخصية قوية وتتجاوز مع الناس بود. رفاق المدق رفاق قصير والمباني مهذمة. لا أحد يسكن هنا. وحتى المقهى الذي دارت فيه أحداث الرواية مغلق. المقهى صغير، التي نظرة عبر النافذة داخل المقهى. لم يظهأ أحد منذ شهور.

تنتظر سيارة أجرة. أروبيات بشورتات قصيرة يجلسن أمام المسجد ويظهرون الكثير من سيقانهن. أتساءل إن كان ذلك ضرورياً في الطريق إلى الفندق تتأنيبى حصى النظام الألمانية: ليس من الممكن تنظيم الأمور بصورة أفضل في هذه المدينة؟ سائق سيارة الأجرة يريد مقارنة شارون بأدولف هتلر. كيف أستطيع أن أوضح له في ست دقائق حجم هذه المأساة وخطأ تصوره؟ الجميع يألوني هنا عن رأيي في إسرائيل. لا أحد يتساءل عن أحواله الخاصة وعن هذا الفقر أو يتلمز منه. تصرف الدولة اليهودية انتباه الناس هنا عن مشكلاتهم الاجتماعية بشكل كبير، فهل هذا هو دورها المحتوم؟

يصلي موظف الأمن في الشارع أمام الفندق. لقد وضع تليفونه المحمول على الأرض. هل يصلي لهذا المخلوق البلاستيكي؟ المصريون يصلون في كل مكان، في الشارع، في المطار... من الواضح أن بهم ليس له بيت.

في المساء أجلس في شرفة الفندق وأنظر إلى المنازل المتسخة. لماذا لا يهب واحد من آلهة هذه المدينة لها مطراً لمدة شهر كامل؟ أم يفكر هذا الرب في الفقراء الذين قد يفقدون مساكنهم؟ الجنوب: ما الذي يثير أعصابي فيه؟ هل هي تلك الذبابات العنيدة وحدها؟

يأتي مجدي في الساعة التاسعة ليأخذني إلى أخيه. يسألني إن كان الرأي العام في ألمانيا مع المسلمين. ثم يقول: "نحن المسلمين ندين هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. ماذا ساستفيد من موت الأبرياء. بن لادن عيب للولايات المتحدة. يعمل لها بدون أجر."

يطرني أخوه بوبال من الأسئلة عن سلمان رشدي. هل أساء فعلاً إلى القرآن؟ في نهاية الحديث يقول: 'ينبغي له أن يعيش، فهو أيضاً من خلق الله.'

١٣ أيار/ مايو

يؤذن المؤذن لصلاة الظهر. لا أشعر بشيء. هل اتسلخ متني شيء؟ أم أنني لم أهد أتقبل الجنوب وجمالياته. في الساعة الرابعة عصرًا يصبح ديك بالقرب من المكان. بطء المصريين، هل يتحدثون به طول بال الموت؟ كيف يذبحون الجمال هنا؟ هل أريد حقاً أن أرى فظاعة هؤلاء البشر الطيبين؟

١٤ أيار/ مايو

هل يتحمل الجنوب تلك المحدودية التي أصبحت طابعاً لي في الشمال؟ رعب الاستهلاك يتبدى هنا في كامل عريه. يبدو وحشياً بينما يبدو في الشمال متخفياً.

أزلق عن الرصيف وأسقط على التراب. يهرع إلي عسكريان يحملان بندقيتهما الأكتين ويساعداني على النهوض وينفضان التراب عن ملابسي ويقدمان لي كرسيًا ويسألاني إن كنت أريد ماء أم قهوة أم شايًا؟ عبر النافذة أرى سيدتين داخل مكتب سياحة، إحداهما محببة والأخرى بدون حجاب، كانتا تضحكان وتنتجان أعمالهما سوياً. هل يمكن للمرأتين أن تتعاديا، حينما يتفجر الوضع في هذا البلد المتسم بالوداعة؟ في المساء موعد القراءة بمعهد غوته. يقتصر الحضور على أعضاء نادي القلم المصري. يأتي السفير الألماني



وهو رجل مثقف ولطيف وغير متكلف. ينصرف بعد نهاية القراءة دون أن ينتظر سماع الأسئلة. كيف استطاع اليهود أن يتخلصوا من ذنب قتل المسيح خلال خمسين عاماً فقط؟ متى تشعر ألمانيا أخيراً بخلاصها من الذنب؟ لماذا تخلت عن ثقافتها وأخلصت للثقافة الأوروبية؟ بعد ذلك أعرف أن معظم الحضور قد اتوا لتهنئة من مظاهرة أمام السفارة الإسرائيلية.

١٥ أيار/ مايو

رحلة إلى الإسكندرية. انتظر السائق في الصباح الباكر لينهب بي إلى محطة القطار. تبدو القاهرة في هذه الساعة الصباحية الباردة نظيفة جداً. النظافة لا تنضج هنا من تلقاء نفسها، لا بد للمرء أن يبحث عنها أولاً؟ هل أخلط بين النظافة والغنى؟ ينطلق القطار. على السكة المجاورة يجلس رجل ويدخن سيجارته. لا يكثر بشيء. ربما يعرفه سائق القطار ويعرف متى ينهض ويذهب. نظرة عبر النافذة. أرض منبسطة ترعى فيها الجواميس بغير اكترار. أخيراً لا أرى سيارات ولا اختناقاً، وفي وسط الأرض السهلة أرى صبياً يقف بجانب جاموسة وأضعاً يديه في جيبيه ويتأمل المكان من حوله. لم يلوح للقطار عندما مر أمامه، هل يرضى الجاموسة أم أنها ترعاه؟ أبراج حمام كثيرة، روث الحمام كسماد؟ يعمل فلاح في الحقل. لقد بنى مظلة من القماش لحراجه الأربعة وعلى البعد يقف حمار، بالقرب من بركة، وحيداً. اسم الإسكندرية مكتوب على لوحة وتحته رقمها البريدي. أسج إلى بيت قسطنطين كافانيس، الذي تحول الآن إلى متحف، على المدخل لوحة مكتوب عليها: "هنا عاش الشاعر السكندري قسطنطين كافانيس". سوداني بشوش يحرس كافانيس. تفتح نافذة مكتب كافانيس على كراج، ملك للجالية اليونانية. يعيش في الإسكندرية اليوم خمسمائة يوناني. سألت السوداني عن عدد زوار كافانيس. بالأمس زاره ثمانية أشخاص.

الكنيس اليهودي: مبنى مهيب بدوج ضخم. محكم الإغلاق. باستثناء الحراس، لا يستخدمه أحد في الوقت الحاضر. هناك ثلاثون يهودياً بالإسكندرية. أغلبهم كبار في السن ومعظمهم من النساء. عندما يموت أحدهم لا يكتمل العدد اللازم لصلوة الجنازة «كادش» وهو اثنا عشر شخصاً. عندئذ تستورد الطائفة بعض السادة من القاهرة، القنصلية الإسرائيلية هي المسؤولة عن هذه الأمور. كل المدينة تتجنب الغنص. كنيسة القديس مرقص تقع على الجهة المقابلة للكنيس. هنا يرقد رأس القديس مرقص، مؤسس الكنيسة

التقطية. الجدران الداخلية مزينة بالخط العربي، وهو شيء جديد بالنسبة إلي، بينما هو مألوف هنا. الضريح البسيط: بعض الزهور الياقة القليلة، كثير من الأوراق العامرة بالأمنيات، أتردد في إلقاء أمّنتي، ولكن ماذا ستكون تلك الأمنية، حين يسألني الخادم الذي رافقني إن كنت مسيحياً. أتنازل عن الأمنية وأتمتع بدلا من ذلك شمعة للقديس مرقس ولهذه الكتيبة وللأقباط الذين ما يزالون يعانون من تضييق الحناق عليهم. وفي المساء القراءة. يلقي ممثل اسكندراني أشعاري بالعربية. يمثل «فاوست» مع فرقته. ليس لديهم مسرح خاص بهم. ياملون في أن يعرضوا بمعهد غوته. يحكي لي أمثلة: مصر تشبه قطار إكسبريس يسير ليصطدم بسور. والجميع يعرفون ذلك لكن لا أحد يشد مكبح الطوارئ، لأن من ميقوم بذلك سيكون حيثنذ هو المسؤول.

١٦ أيار/ مايو

بعد الإنطار أجلس في مقهى «ديليس»، تأسست عام ١٩٢٢، من المحتمل أن كافافيس قد جلس هنا. الجو بارد بالداخل. الأثاث له ذوق والتادل مهذب. على المائدة للجواوة يجلس عاشقان. هي ترتدي الحجاب. شديدا القرب من بعضهما. تقبل يديه. في الإسكندرية ولد الشاعر الإيطالي جورجي أونغارتي والشاعر اليوناني قسطنطين كافافيس والسياسي الألماني رودلف هيس.

في زمن ما، قبل اختراع كلمة المجتمع المتعدد الثقافات في أوروبا بوقت طويل، عاش هنا الأرمن واليونانيون والإيطاليون واليهود والمصريون متجاورين في سلام، ثم جاء جمال عبد الناصر وأمم قناة السويس، وكانت النتيجة هي العدوان الثلاثي كما يسمونه هنا. إنكلترا وفرنسا هاجمتا مصر وشاركتها إسرائيل. يمكننا أن نتصور ليرة، ما كان سيحدث لو قتلت إسرائيل إلى جانب المصريين! بعد هذا الغزو حرب «الأجانب»، وتدهورت أحوال الإسكندرية لتصبح ريفاً. الموال القديم: الدولة القومية تحرر وتحقق المساواة. واليوم: بم يتمسك البشر اليوم؟ أخفى التراث وقيت الحداثة و٩٠ في المائة منها من البلاستيك.

١٦ أيار/ مايو

مترو الاتفاق بالقاهرة. العربات المخصصة للنساء. القراءة الثانية بمعهد غوته. فرضي شاملة. أناس يدخلون ويخرجون وتليفوناتهم المحمولة ترن. بعد القراءة، يستبق كل المناقشين أسئلتهم بالترحيب بي. لماذا تميز السياسة الخارجية الألمانية تجاه إسرائيل بالمداينة؟ لماذا يقترب شعري من راينر كوتسه أكثر من حافظ؟ بعد القراءة يأتيني مجدي. البدة جاهزة. إنها جميلة وقد كلفستي ٤٥٠ جنيهًا بما في ذلك القماش. يبلغ مرتب مجدي في معهد غوته ١٨٠٠ جنيه شهرياً.

١٧ أيار/ مايو

بحضر شاب غيبلاً نظيفاً إلى الفندق ويحصل على أجره. يقبل كل عملة ورقية ويضعها على جيبيته ثم يحشرها في جيبيه. اليوم هو الجمعة، معظم المحلات مغلقة، كم مريحة هي الشوارع وهي خالية. اكتشفت لافتة إعلانية فوق أحد صناديق القمامة بالمدينة: كان مكتوباً أعلاها "Coca Cola" وتحته "keep Egypt clean". كوكاكولا تخلص مصر من النفايات. يجلس رجل في الشارع ما بين سيارتين واقفتين. يصلي في رداء أبيض. ينادي ربه. صوته مليء بالحزن وبالنعيم. غارق مع ذاته ولا يكثر بأحد.

الشاعر سعيد ولد عام ١٩٤٧ في إيران، ويعيش اليوم في ألمانيا ويكتب باللغة الألمانية؛ كان لسنوات عديدة رئيساً لـ «نادي القلم» الألماني. هذا النص «نمنات قاهرة» كتبها خصيصاً لمجلة «فكر وفن».

ترجمة: أحمد فاروق

"Very important magazine. I read it regularly."

Edward W. Said

**For today's authors
and poets from
around the Arab world
in English translation**

"Banipal provides an invaluable service
to the academic community and the
general reading public."

Roger Allen, Univ. Pennsylvania

- Poetry • Short stories
- Novel excerpts
- Interviews • Critical essays
- Book reviews

"Banipal is providing a window on the
Arabic-speaking world that is unique
and extremely valuable."

Terry Carlbom,
International Secretary, International Pen



CURRENT ISSUE
No 15/16 –
a double issue
with 130 pages
on contemporary
Palestinian literature

Summer 2002, No 14 –
6 Iraqi fiction writers



STOP PRESS Summer 2003, No 17 – includes 30 pages of Iraqi authors



www.banipal.co.uk

LONDON
ARTS

BANIPAL, PO Box 22300, LONDON W13 8ZQ, UK Email: editor@banipal.co.uk Fax: +44 (0)20 8568 8509

Subscribe today

Individual: **FREE** with every new individual subscription, Issues Nos 1 and 2 UK ☐ 1 year £20 ☐ 2 years £30
Rest of Europe ☐ 1 year £24/£38 ☐ 2 years £38/ £60 Rest of world ☐ 1 year £30/ \$50 ☐ 2 years £50/ \$85
Single sample copy: Europe ☐ Free Rest of world ☐ £8
Back Issues Nos 1-9, 12-14 (each): Europe ☐ £8/£12 RoW ☐ £12/\$18 Double No 10/11 Europe ☐ £12/£18 RoW ☐ £16/\$25
Institutional rate (annual subscription): UK ☐ £30 Rest of Europe ☐ £35 Rest of world ☐ £40

I would like to subscribe from current issue No 15/16 ☐ I would like to purchase back issues No ☐

Name

Address

Town Post Code Country

Payment

☐ I enclose a cheque for £ / \$ / € / other / amount, made out to BANIPAL

☐ I have transferred £ to the account of BANIPAL PUBLISHING

Acc. No: 51201565, Sort Code 40-04-07, HSBC, 31 Euston Road, LONDON NW1 2ST, UK

أحمد حسو

Ahmad Hissou

عالم صدام حسين

الأولى من الرواية ويشده إلى القصاد الذي سيأتي. إلا أنّ الكاتب يخيب ظن قرائه، فهو لا يتحدث عن دكتاتور، كما عهد القارئ في الدوريات والكتب وحتى الروايات. إنه يروي عن طفل كبير صلب يختلف عن أقرانه ويعرف تماماً ماذا يريد.

يظهر صدام مهدي حيدر متعاسكاً واثقاً من نفسه يدير خيوط اللعبة بإحكام ويستغل كل صغيرة لبقوي نفوذه في حزب البعث ومن ثم في جهاز الدولة الإداري والسياسي. بدأ صدام تسلفه من خلال الأجهزة الأمنية ووضع الجميع تحت تصرفه، بمن فيهم ولي نعمته الرئيس العراقي السابق أحمد حسن البكر. صدام صنع اسطوره بيده، لكن بالطبع من خلال مظلة البكر. فالبكر كان منذ البداية ضابطاً معروفاً وشارك في كل الانقلابات التي شهدتها العراق منذ سقوط الملكية وتبوأ من خلالها مواقع قيادية في الجيش والدولة، على النقيض من صدام الذي كان نكرة، أو في أحسن الأحوال شاباً متهوراً يمكن استخدامه في العمليات القذرة.

ومن هنا بالذات صنع هذا الرجل النكرة تاريخه الشخصي وتسلفه من خلال عملية قلرة. فصدام لم يكن في أي يوم من الأيام منظرأ نفي الحزب، ولا ضابطاً من ضباطه.

مهدي حيدر يرسم بدقة خط صعود الرجل منذ اليوم الأول الذي اشترك فيه بمؤامرة اغتيال الرئيس العراقي الأسبق عبد الكريم قاسم الفاشلة. ورغم أنه لم يكن من الأساسيين الذين كلّفوا بإطلاق النار على قاسم، إلا أنه الوحيد الذي جنى ثمار هذه العملية.

ربما يجدر بنا أن نطلق على هذه الرواية اسماً آخر غير عالم صدام حسين، أي صناعة دكتاتور مثلاً، أو كيف تتسلق إلى الأعلى في بلد كالعراق من الصفر.

في الوقت الذي كان العالم يحبس فيه أنفاسه خوفاً من وقوع حرب يكون حاكم بغداد أول أهدافها، أطلت دار الجمل للنشر (كولونيا /ألمانيا) على قرائها برواية فريدة تتناول حياة صدام حسين الذي طبع تاريخ العراق في العقود الأربعة الأخيرة بطابعه الشخصي. وبعد كل هذه الفترة من الحرب وسقوط النظام العراقي والغموض الذي يلف مصير دكتاتور العراق، ازدادت أهمية رواية «عالم صدام حسين» للكاتب مهدي حيدر. هذه الرواية لا تشبه في شيء كل ما كتب حتى هذه اللحظة عن طائفة بغداد. فهي ليست مسيرة ذاتية فحسب، ولا تقدم تسلسلاً تاريخياً لحياة هذا الرجل فقط، بل تنسج العالم الخاص بهذه الشخصية الذي هو في الوقت نفسه تاريخ العراق والنخب العراقية والعربية. صدام حسين، الحاكم الذي تحول إلى الكتابة الروائية وأصدر روايتين، يظهر هنا كبطل لرواية يكثف كل الأحداث التي مرت بها العراق والمنطقة العربية منذ سقوط الملكية في بغداد وظهور الفكر القومي العربي مثلاً بشقيه الناصري والبعثي. ورضم أن الناشر أكد مراراً أنّ مهدي حيدر اسم مستعار لكاتب الرواية الأصلي، ودارت نقاشات وتكهنات كثيرة في الصحف العربية حول هوية الكاتب فإن هذه المسألة لم تغير شيئاً في قيمة هذا العمل الفني الفريد. نص محكم يتناول حياة شخصية معاصرة يعرفها القاصي والداني. مهدي حيدر يحبس أنفاس قرائه منذ الصفحة

عالم صدام حسين

رواية

مكتبة

صدام حسين الشكاك يرسم مؤامراته بدقة وسط انبعاث السياسيين هؤلاء ومجد شبكته الامنية من خلال جهاز «حسين» إلى كل شبر من أرض العراق. وحتى تنجح هذه الشبكة لا بد أن يكون على رأسها صدام المتأمر والجزار ناظم كزار، ولا بأس أن يكون شيوعي مغضوب عليه من أسرته وحزبه، بجانبها يدير أرشيف هذا المخطوط القتل. رجل الأرشيف الذي يقرأ تولستوي بالروسية يسد الفجوة النظرية لدى هذه الشبكة المجاعة التي رسمت هدفها بدقة: إزاحة كل شخص يشتم منه قدرات قيادية تشكل خطراً على عالم الجاهلة الذي سيحتاج العراق على أيدي ناظم كزار وصدام حسين. بحين وضجر السياسيين وثورة المشفقين يسود السواد أرض السواد وبحكم هذا الثنائي العراقي، إلى أن يأتي الصدام بينهما، وبالطبع يربح الأكثر ذكاء، وهو صاحب القهوة السادة بالحليب البارد. رواية سوداوية تيمت على التقز من كل من سامع في حكم هذا البلد، وكأن الأقدار هي التي تدبر آلة الحكم وليست القوى السياسية أو الاجتماعية أو البشر.

البحث بأجنحة العسكرية والسياسية. فالنخب السياسية في هذا الحزب فئة ثائرة لا تحيد إلا الكلام والتباهي به، وهي عاجزة عن الفعل السياسي، وهذا العجز هو الذي مهد الطريق لشخصية وحشية مثل صدام حسين بالانكسار على الوحش الآخر ناظم كزار ليصفي كل النخب السياسية والفكرية وحتى العسكرية في هذا البلد. والنخب العسكرية تغير ولائها حسب حصتها من الكعكة. فعبد الرزاق النافذ، أحمد أبرر العقيدة الثلاثة في عهد عارف سرعان ما يتخلى عنه ويستجيب لمخطط صدام الانقلابية مقابل وعد بتسليم منصب رفيع لا يبقى فيه إلا لفترة قصيرة، وهو نفسه كان يدرك ذلك. لكن القدر التراخيدي دفعه إلى الارتقاء في فم الحوت، لأنه لو بقي مع عارف لربما استطاع البقاء طويلاً كصاحب نفوذ طالما أن الرجل زاهد عن السلطة ولا يهمه إلا البقاء وأن تسير المعجلة ويواصل هو شرب الأرزو بضجر. وحين تخلص صدام من رئيس الوزراء القوي عبد الرزاق النافذ وأرسله إلى المنافي، ماذا فعل الأخير لاسترداد ملكه الضائع؟ هام على وجهه في الأرض على طريقة امرئ القيس، لكن كمنح لهما الشاعر العظيم الذي ترك وراءه معلقة شعرية أصبحت عملاً أدبياً خالداً. فلم يكن للنافذ من هم سوى التلذذ بالطعام وشرب أفضل أنواع الخمور في فنادق الدرجة الأولى في العواصم الأوروبية. هل يستعبد حكم بشر بربوبيته؟ والحصم الآخر، عبد الرحمن عارف تحول إلى مستثمر في استانبول يفتح المطاعم والملاهي ومحلات بيع الخمور في هذه العاصمة الإسلامية، وينتج هناك في البداية وتزدجر تجارتها، لكنّ اللعنة تلاحقه إذ يغلق مطعمه المشهور بعد أن يتسبب في تسمم العشرات من الأتراك.

صدام حسين بطل لتراجيديا عراقية مرسومة بدقة، فجميع الأبطال الآخرين يتحولون إلى أسرى في شبكته هذا الصياد القادم من هامش المجتمع، ذي الطفولة البائسة، أو يسرون إلى حقنهم بطريقة قدرية لا حول لهم فيها ولا قوة. أو لنقل إن القدر ساعد هذا الرجل ليضيع من دبه كل الطامحين في حكم العراق! لكن كيف؟ حكام العراق الذين رسم مهدي حيدر أقدارهم على يد صدام حسين أناس ضجرون بانسون لا يهمهم إلا التلذذ بالماكولات أو المشروبات. ومع طموحاتهم السلطوية فإنك تلاحظ وكأن الحكم وبنا عليهم لا يعرفون كيف يتصرفون به. فالرئيس عبد الرحمن عارف عارف عن السلطة، لا يدري كيف جاءه، ولولا حادث الطائرة المشؤوم الذي أودى بحياة شقيقه الأصغر الرئيس عبد السلام عارف، ل بقي على الهامش مسرحاً من الجيش. ولعل الصورة الساخرة، التي نسجها مهدي حيدر عن حياته اليومية، خير دليل على ثقافة النخب الحاكمة في البلاد العربية. فهو يأكل بطريقة وحشية لا تليق برئيس دولة. يضع سيخ اللحم بين خبزته وليتهمها بعد أن يكون قد تمتع من شرب الأرزو. أما البكر المدمن على تدخين الغليون، والذي لا يهمه شيء في هذا الكون سوى الحديث عن أنواع التبغ، فياكل بالشركة والسكين ما يلفت نظر الطامح الآخر إلى السلطة، رئيس الوزراء عبد الرزاق النافذ. وحده صدام يجيد شرب القهوة بالحليب البارد! شخصيات تراجيدية تسير إلى حتفها بملء إرادتها وبسطحياتها وتجاهتها، وليس على صدام سوى الإخراج. ما تقدمه الرواية لنا من صراعات بين النخب العراقية لا يتجاوز السطحي الذي يطفو في عالم السياسة ويتكثف في صراعات القصر الجمهوري وحزب

شتيفان فايدنر

Stefan Weidner

السِّيَابِيّ البَابِلِيّ

رواية عن بقايا اليهود في بغداد

لو كانت خبرة الحياة فقط، هي الضمانة لكتابة رواية جيدة، لاكتفت الكاتبة بسرد سيرة حياتها المتقلبة، لعرفنا سر نجاح هذه الرواية. ولدت منى يحيى في بغداد في عام ١٩٥٤، لعائلة يهودية. في نفس الوقت كان قد غادر ١٢٧,٠٠٠ من أصل ١٣٠,٠٠٠ يهودي عراقي البلاد إلى إسرائيل، وهكذا بدأت نهاية الوجود اليهودي الذي دام طوال آلاف السنين في بلاد ما بين النهرين. وعلى عكس ما كان الحال في أوروبا، التي كانت تضطهد اليهود باستمرار، فإن يهود العراق عاشوا حتى القرن العشرين في شبه أمان. ولكن وبعد أن أصبح العراق وفلسطين تابعين للإنتداب البريطاني فقد رُج باليهود العراقيين كطرف في أحداث الاضطرابات اليهودية - الفلسطينية وذلك بسبب الهجرة اليهودية إلى الأرض المقدسة. وفي عام ١٩٤١ حصلت أولى حملات اضطهاد اليهود في بغداد بعد أن قام انقلاب لصالح السياسة الألمانية النازية داخل العراق، لكنه سرعان ما قمع على يد البريطانيين. وعندما وقعت الحرب الأولى بين العرب وإسرائيل في عام ١٩٤٨ اشتد الضغط على اليهود حتى أن الكثيرين منهم حاول مغادرة البلاد في الخفاء إلى أن سمحت الحكومة العراقية لهم بالمغادرة. كان ذلك في بداية الخمسينات، وكان الثمن التنازل عن الجنسية العراقية. فعمد المقيمين لم يزد عن بضعة الأفراد كان من بينهم

أفراد أسرة منى يحيى. في عام ١٩٦٩، السنة التي تبدأ و تنتهي فيها قصة البنت لينا، يستعد اليهود المتبقون في بغداد إلى الهروب تحت أقسى ظروف الخطر. وقصتهم تشكل إطار وخلفية الكتاب.

فعلى الرغم من كثرة الذكريات والأحداث المشتركة بين الكاتبة والبطلة، الطفلة لينا، والتي تروي القصة من رؤيتها الذاتية، إلا أنه يصعب تصنيفها بالسيرة الذاتية للكاتبة. السرد الروائي البالغ الإحكام والمهارة لا يمكن تجاهلهما، حيث كاد كل فصل أن يخلق درجة شد ذاتية، ومع ذلك يحافظ على اتصاله بالقصة الكاملة. الأحداث تعرض بقدر المستطاع بشكل مشهدي والحوار يسود أقساماً واسعة من الرواية. المعلومات التاريخية عن يهود العراق لا تظهر وكأنها رحلة استطلاعية لكنها توفر للقارئ المندهش الخلفية اللازمة. المنظور الروائي يبدأ بالطفلة الصغيرة ويتقل بعدها إلى البنت المراهقة. الجالية اليهودية كما توصفها يحيى معرضة للترفة بصورة واضحة، إنما في الفترة الأولى بعد دفعة الهجرة في عام ١٩٥١ لم تكن مهددة حقيقية. بعد، في غالب الأحيان يظل اليهود متعزلين ولم يختلطوا مع الآخرين في تلك الأثناء، والأطفال كانوا يذهبون فقط إلى مدرسة يهودية. أما الخطر الكامن الذي يحيط بهم فلا يدركونه إلا عند انطلاق المسيرات من أجل القضية الفلسطينية أو في حالة إحدى المحاولات الانفصالية. أثناء تلك الأحداث تعطل المدرسة اليهودية مخافة أن تتعرض لاعتداءات من قبل متظاهرين غاضبين. ولأن كل حاكم ينهم السابق بالتعاون مع إسرائيل، فإن كل انقلاب كان يضيّق الخناق على يهود بغداد. غير أن الوضع بقي قيد الاحتمال حتى عام ١٩٦٧ بالرغم من أن الكل أدرك عدم وجود مستقبل

له في هذه البلاد. حتى ذلك الوقت بدت طفولتها وكأنها لا تختلف عن تلك التي للأطفال المسلمين في بغداد، ومن عاش وترى في مدينة المانية في الخمسينات فانه لا بد أن يحسد الطفلة لينا لسفرة الروائح والألوان والقصص التي أحاطت بها في تلك البيت، والتي أبدعت الكاتبة بنقلها وتصويرها إلينا.

بعد النكسة العربية في حرب الأيام الستة ازداد وضع يهود العراق سوءاً بصورة مثيرة.

تتجع منى يحيى بنسج الأحداث السياسية في العالم الصغير للرواية المراهقة.

الأسرة حائرة على من تصول؟ على إسرائيل أم على العرب والأنباء المتناقضة للاذاعات المختلفة تثير الاضطراب: "احتبسنا في حرب لا مفر منها ولا مشاركة لنا بها، حرب سنخسرهما مهما كان الأمر. إن انهزمت إسرائيل سنخسر إسرائيل وكل أهلكنا وإن غلبت إسرائيل سنخسر أنفسنا." قصة مأساة الرواية تبلغ ذروتها عندما يتخذ حكم الإعدام العلني في تسعة يهود يزعم بأنهم قاموا بالتجسس لصالح إسرائيل. فبدلاً من الوصف المباشر للمحدث تعود يحيى إلى تقنية أدبية مأخوذة من المسرح. أحد أصدقاء المدرسة والذي كان معروفاً بتهكمه الخاص يقوم بزيارة لينا التي تكاد تخرج من البيت و يشدها حديثه عن الجثث المعروضة جهاراً - هي والقراء. من الآن فصاعداً يزداد عدد الطلاب الغائبين عن المدرسة ويزداد عدد الأسر الهاربة من العراق والمتبقون لا ينتظرون إلا الفرصة للهروب.

لكي تنسى القلق نرغب لينا لو أنها تتمكن من محو الأحرف العربية والتي حفظتها بمسومة في بداية الكتاب مع الإنكليزية والعبرية من ذاكرتها فتخلق «برنامجاً متناسقاً لسيان العربية» لفتها

القومية. وعندما تعلم سلمى صديقة لنا بمشروعها، تقرر مصارحتها: "هل ترن الكلمات قذرة أو لذيلة إن كانت غير عربية؟ بأية لغة يمكن أن تقرأي بين الأسطر؟ هل تضحكين على النكت الإنكليزية، أنتهمين تلاعب الالفاظ بالفرنسية؟ هل تعرفين الضرب أو حتى العد، هل أنت قادرة على السب؟ هل باستطاعتك استدعاء الذكريات بلغة غير العربية؟"

منى يحصى أعطت الجواب بكتسابها. بعد الهروب غابت أولاً إلى إسرائيل و درست هناك الفرنسية وعلم النفس، ثم سافرت إلى أوروبا، مكثت فترة في باريس، عادت إلى إسرائيل ومنذ عام ١٩٨٥ استقرت في ألمانيا، درست في أكاديمية الفنون في كاسيل وعملها الرئيسي اليوم هو حالة نفس. تتقن العربية حتى اليوم والعبرية أيضاً، الفرنسية، الألمانية والإنكليزية، اللغة التي كتبت فيها كتاب الذكرى هذا. لأنها كما تكتب: "لم تسمى اللغة الإنكليزية إلي، أو خانتني كالعربية وما طالبتني بالحق المطلق كالعبرية. بل بالعكس كلغة أجنبية تركت لي البعد المأمون لعالمي - بلاد اللامكان في رأسي."

منى يحصى ترتبط خاتمة أقدم التواريخ. تاريخ اليهود في العراق ببداية أحدثه، تاريخ تعدد اللغات، هابر الاوطان، تاريخ المواطن العالمي، الذي يعتبر البحث عن هويات، عن لغات قديمة ربما حتى عن الأديان، بحثاً دون جدوى. والمواضيع الناتجة عن هذا العالم الجديد ستعرضها منى يحصى في كتابها القادم.

ترجمة: نيرمين الشرفاوي

هانز مارتين لومان

Hans-Martin Lohmann

نحن نحدد ما هو الإرهاب

الصلبية والعنصرية ضد ما يعتبره عدواً لها (مثال: محور الشر). فالولايات المتحدة تساند في بعض الأحيان وبكل صراحة الإرهاب، كما في حالة تركيا وحربها على الأكراد، وفي أحيان أخرى تسجّاهل أو حتى تشجع إرهاب الدولة أو الإرهاب المضاد للدولة، وفقاً لمهمومها المرن للإرهاب: فنحن الذين نحدد ما هو الإرهاب.

يود تشومسكي بقوة على الرأي الشائع الذي يدعي أن التطرف الإسلامي أو مشاكل العولمة هي محور الصراعات في الشرق الأوسط والأمن. إن المثقفين ورجال الأعمال العرب يرون بالأحرى أن الجماهير المعذمة تتقابل سياسات الولايات المتحدة في المنطقة بالفضب التزايد والشعور بالمرارة، لأن هذه السياسات تدعم بضمير مستريح أنظمة رجعية (مثل السعودية) طاماً أن تلك الأنظمة تستخدم طواعية المصالح الاقتصادية والجيوسياسية للقوة العظمى. ولهذا السبب تلقى شعارات بين لادن الإسلامية المشوشة صدى حتى بين أولئك الذين يعترضون على أفعاله الإرهابية ويتصلون من أي علاقة تربطهم به.

إن ما يفضحه تشومسكي ويحريه في كتاباته هي سياسة القوة التي تتهجها الولايات المتحدة، وهي السياسة التي تعزق التوصل إلى حل سلمي للنزاع بين الإسرائيليين والفلسطينيين، والتي لن تقود إلى سلام في هذه المنطقة المشتعلة إلا إذا تم تعديلها. وطالما تصر الولايات المتحدة، ومعها حلفاؤها الغربيون، على المضي قُدماً في هذه السياسة، فإن صوتاً، يدعو إلى التعقل ونزع التوتر والتوازن، كصوت نوم تشومسكي لا يمكن الاستغناء عنه.

Noam Chomsky: The Attack

ترجمة: سمير جريس

المصدر: "Die Zeit", Oktober 2002

يعد نعيم تشومسكي من أهم الأصوات الثقلية في أمريكا. لقد عقد هذا العالم ذو المكانة الدولية عزمه على هجر برج اللسانيات العاجي، وانصرف منذ عقود إلى تحليل طبيعة الإمبراطورية الأمريكية، ولاسيما مصالحها الأمنية وتطلعاتها السياسية. وبعد اعتداءات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر الإرهابية مباشرة أخذ تشومسكي على عاتقه توضيح كنه تلك الحرب التي أعلنها الرئيس بوش على «الإرهاب الدولي». ماذا يخشئ وراء هذا المصطلح؟ وعلى أي شيء يشن الأمريكيون الحرب في حقيقة الأمر؟ ومن هو العدو؟

لم يعد أحد يعتقد، يقول تشومسكي، أن الأصولية الإسلامية ومبادئها للعلمانية هي العدو، اللهم إلا أولئك الذين يصدقون بلا نقد أو تحقيق كل حرف تنطق به الآلة الإعلامية الرسمية في واشنطن. يشير تشومسكي، بحق، إلى أن الأصولية الدينية يحد ذاتها لا تمثل على الإطلاق عدواً بالنسبة إلى الولايات المتحدة، لأنها منتشرة في ربوع البلاد، وتجدد في كل أركان الولايات المتحدة قبولاً واسعاً. إن الأصولية تغدو غير مقبولة فقط عندما ترتبط بالمصالح التي تتعارض مع مصالح الولايات المتحدة، وهذا هو الحال في الشرق الأوسط والأمن.

يشير تشومسكي هنا إلى فيض من الحجج المناقضة التي تشلق بها الإدارة الأمريكية وهي نخوض حملاتها

شتيفان فايدنر

Stefan Weidner

مصطفى دانيش:

من يسرق كلمة الله؟

لا غرو أن عملية تمييز الثمن من الثمين في هذا السيل العارم من الكتب حول الاسلام تزداد مع الوقت صعوبة، رغم أن القليل من الكتاب يعطونا انطباعاً غير جدي. الموضوعيون منهم يكتبون في أسلوب

Wer Allahs

Wort

missbraucht

جاف، والمتحمسون يخلطون غالباً وجهة نظرهم الشخصية للأشياء بالواقع.

مصطفى دانيش اختار الطريق الوسط. فمن بين كل الكتب التي صدرت مؤخراً في ألمانيا حول الاسلام، فاز كتابه بأسبقية ترجمته الى الإنجليزية. ويعتبر هذا الصحافي الإيراني، الذي جاء إلى ألمانيا في الستينيات للدراسة، من أفضل خبراء آسيا الوسطى. منذ عشرين سنة وهو يبحث بالتقارير إلى التلفزيون وللجولات الإخبارية من أفغانستان، إيران والعالم العربي، وغالباً في ظروف خطيرة. هذه التقارير أكسبت كتابه

وحتى تحليل دانيش النموذجي للشورة الإيرانية، يعتمد كثيراً على تجاربه الشخصية. مثل كل الإيرانيين كان دانيش سعيداً لما طرد الخميني الشاه سنة ١٩٧٩، وكان يحلم ببداية ديمقراطية جديدة. لكن الخميني عمداً في السنوات الثلاث الأولى للشورة إلى التخلص من معارضيه السياسيين الداخليين بطرق وحشية. ومن الأوصاف الرهبة في كتاب دانيش، وصفه لزيارته لآلة السله خلخال، ورويسير الإيراني، الذي كان يصدر أحكام الأعدام في لمح البصر، والذي استضافه من ألمانيا لحضور إحدى جلسات محاكمته. ورغم أن أحداً لدانيش قد سقط ضحية لنظام الخميني، إلا أنه يرفض مع ذلك إصدار أحكام إجمالية ويظل يميز بين الإسلام كدين وبين الاستغلال السياسي للإسلام من طرف الأنظمة الإسلامية في العالم. إنه يحجم عن تقديم حلول جاهزة. إنه يدعو القارئ لاجترار فعل التفكير.

ترجمة: رشيد بو طيب

شتيفان فايدنر

Stefan Weidner

صورة دكتاتور

سيرة صدام حسين

إن كتابة السيرة الذاتية لصدام حسين تشبه قضية محاكمة رئيس المافيا الذي قتل معظم الشهود. وانطلاقاً من هنا أدى الصحفي البريطاني كون كولين Con Coughlin مهمته على أكمل وجه. قد يكون الكتاب اعتد، في محاور عديدة على تخمينات وشهود مشبوهين، لكنه صيغ بشكل جيد وبوضوح حول التشابكات

حسوبة المغامرة. لكن قطعاً لم يكن يحكي القصة من أجل القصة، بل من أجل وصف وتصوير العلاقات والظروف الواقعية.

وكعلماني، وقبل ذلك كإيراني يساري، حافظ دانيش على مسافة صحيحة ومتوازنة في علاقته بالعالمين الغربي والإسلامي. فنشوء الحركات الإسلامية لمنطقة يرد إلى الحرب الباردة وإلى اليوس السياسي والاقتصادي للدول العربية. ويهدف التخلص من قوى المعارضة والاحتجاج بداخلها، عمدت البلدان العربية في الثمانينات، وعلى نطاق واسع، إلى تصدير شبابها إلى أفغانستان. الشباب الجزائري والعسودي، الذي لم يحصل على عمل في بلاده ولم يتمكن من بناء أسرة، وجد في أفغانستان متنفساً له، وغالباً ما توصل كمكافأة له بامرأة من معسكر الأعداء. وقد دعمت الولايات المتحدة الأمريكية هذه الحركات من داخل باكستان بالسلاح والمال، كما شجعت زراعة الأفيون في أفغانستان، من أجل تحويل الجنود السوفيات إلى مدمنين، وهذا ما تحقق فعلاً إلى حد ما. ويعتبر تحويل الزراعة الأفغانية عن إنتاج الأفيون، من المهمات الملحة وفي نفس الوقت الأكثر صعوبة بالنسبة إلى الحكومة الجديدة.

رغم أفغانستان الجديدة يعرفهم دانيش معرفة جيدة، بفضل عمله كمراسل في أفغانستان لأكثر من عشرين سنة، لذا ينظر إلى فرص لنجاح هذه الحكومة بنوع من الشك. كل الوزراء الأفغان تقريباً ساهموا في تدمير وتجزئة البلاد بعد جلاء السوفيات، كما نفراً ذلك بتفصيل لدى دانيش. رئيس الوزراء كرزاي فقط يعتبر بالمقارنة معهم صفحة غير مكتوبة. إنه لأمير إيجائي، ولكن في المجتمع الأفغاني القبلي، يتحول إلى أمر سلمي، فإن لا يكون للعرء سوابق، يعني أنه لا يملك سلطة كبيرة.



والفأر التي كان يلجأ إليها صدام مع مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة في التسعينات. ينهي كون كولين كتابه بالقول صراحة "إن على صدام أن يرحل"، فهو كارثة على شعبه ويعرض السلام في الشرق الأوسط للخطر، وأنه لن يتسدد في صنع الأسلحة النووية واستخدامها لو أُتيح له الحصول على مادة اليورانيوم. وإذا كان هذا مبرراً لأن تقوم الحرب لا محالة ضد العراق، فهذه مسألة أخرى. فالكثيرون من المحاولات الانقلابية الفاشلة ضد صدام أثبتت مدى صعوبة إيجاد البديل عنه. وفي الختام يحاول هذا الكتاب أن يفهمنا، ويوعي، ما آل إليه وضع صدام حسين وأنه ليس هناك من حل سهل لهذه المعضلة.

Con Coughlin:
Saddam: The Secret Life
384 pp, Macmillan, London
2003, € 20.

* وكذا كون كولين في سنة ٥٩١ هـ وعُيِّن مراسلاً في الشرق الأوسط لصحف بريطانية مختلفة، وهو يتولى اليوم رئاسة تحرير صحيفة آل اسفندي تلعفرالـ.

ترجمة: محمد أمين الهندي

عندما استلم حزب البعث سنة ١٩٦٨ السلطة، وأصبح الجنرال البكر رئيساً، وهو صديق لحال صدام، نجح الأخير في أن يصبح سكرتيره الخاص واستطاع أن يضع جهاز الاستخبارات تحت سيطرته. وبينما كان الحزب كعادته يستهين بأبن الفلاح، كان صدام يفرغ سلطة الرئيس من محتواها الفعلي ويُضعف نفوذه حتى تمكن خلال فترة قصيرة من أن يسيطر على كل مفاتيح الحكم. وفي عام ١٩٧٩ بلغ الرئيس البكر مستوى من الضعف بحيث أنه لم يبق له خيار آخر سوى أن يوقع على استقالته التي طلبها منه نائبه. وهكذا أصبح الشاب القوي الفقير رئيساً لأغنى دولة عربية وهو لم يتجاوز الواحد والأربعين عاماً.

ما حدث بعد ذلك معروف من وسائل الإعلام. ففي عام ١٩٨٠ قام صدام بحرب طاحنة ضد جاراته إيران، حيث كان الخميني قد استلم الحكم قبل ذلك بسنة. ورغم الدعم الهائل الذي أتاه من الغرب لم يستطع أن يكسب الحرب. وعندما تم توقيع السلام بينه وبين إيران عام ١٩٨٨ كان العراق غارقاً في الديون وقسم كبير من الشعب يعاني الفقر. لجأ صدام إلى احتلال الكويت عام ١٩٩٠ لكي يتغلب على المماناة، لكن الأمر ازداد استفحالاً.

في الفصول الأخيرة من الكتاب يتحدث الكاتب بشكل مفصل عن الدسائس والمؤامرات المضحكة التي تخيكلها عائلة صدام وحواشيها، وعن محاولات الانقلابات الفاشلة، وعن مرض صدام بما يسمى بجنون الاضطهاد، وعن البشاعات والجرائم الوحشية التي لا تصدق والتي تشهدنا آنية التعذيب التي أهدمها صدام. كما يتطرق الكاتب بشكل مفصل إلى محاولاته الفاشلة للحصول على أسلحة نووية مشيراً إلى لعبة القط

الداخلية لقوى النفوذ في العراق. والكتاب يحتوى أيضاً على آراء جديدة تدعم الحرب على العراق. ولا تُعد البشاعات التي ارتكبتها صدام حسين في الثمانينات والتسعينات من أهم فصول الكتاب، بل أدرج فيه المؤلف وصفاً دقيقاً لحياة صدام ودرية السياسي الذي أوصله إلى الحكم التي لا يعرف عنها الغرب إلا القليل.

ترعرع صدام كطفل غير شرعي في ظل ظروف فقيرة جداً. وتُعد سنة ١٩٣٧ تاريخ ميلاده الرسمي الذي لا يُعرف بالضبط. كان العنف الجسدي جزءاً لا يتجزأ من حياته اليومية. وقد عانى صدام العظم بشكل خاص من عمه (روح أمه)، ولهذا السبب قض معظم طفولته عند خاله غير الله طلفاح. كان طلفاح متأثراً ببعض تيارات القومية العربية الحديثة التي اتخذت من الإيديولوجية الفاشية الألمانية والإيطالية قدوة ومثالاً لها.

انخرط صدام وهو صغير في هذا التيار الفكري السياسي الذي يفسى عليه طابعه وتأثيره إلى اليوم. وخلال فترة قصيرة عُرف صدام داخل حزب البعث بعنفه وقيامه بالمهام الخاصة، بما في ذلك التصفيات الجسدية. في سنة ١٩٥٨ ارتكب جسيمة الأولى وذلك باغتيال غريم خاله. وشارك عام ١٩٥٩ وتكليف من حزبه في محاولة اغتيال الرئيس عبد الكريم قاسم الذي جاء إلى سدة الحكم قبل عام إثر انقلاب عسكري. لكن محاولة الاغتيال بامت بالفشل وأجبر صدام بعدها على الهرب إلى مصر. لكن شهود على هذا العصر أقل من قليلين بالإضافة إلى أن التدينون الرسمي للسير الذاتية لصدام حين مجته وأغفل العديد من أعماله هذه. ويعود الفضل إلى الصحفي البريطاني كولين الذي يحقّر القارئ على متابعة الأحداث بشكل نقدي، في لفت الأنظار إلى مثل هذه التشابكات.

أيام لاتنسى

شمل تروي تجربتها في «فكر وفن»

في يوم السادس والعشرين من شهر كانون الثاني/ يناير من هذا العام ٢٠٠٣، توفيت أنّا ماري شمل. كل من يعيش في الدول التي تتكلم اللغة الألمانية ويهتم بالشرقيات يعرف اسمها. كتبها التي تتعدى المائة جذبت الكثيرين من عشاق الشرق إلى العالم الإسلامي. ليس هناك أي من المستشرقين حظي بالمكانة التي تبوأها هي. أثناء منحها في ألمانيا جائزة السلام للكتاب شَرَفَتْها أيضاً باكستان وشتى البلاد الإسلامية الأخرى بالعديد من الجوائز وشهادات الدكتوراة الفخرية.

ولدت أنّا ماري شمل في السابع من نيسان/ أبريل عام ١٩٢٢، وتعلمت اللغة العربية عندما كانت تلميذة في المدرسة. في عام ١٩٤١ حازت على الدكتوراة في برلين. عملت كأستاذة في جامعات أنقرة وهافارد وبون، وعملت أيضاً كأستاذة زائرة في العديد من الجامعات. محور أعمالها كان يدور بصفة خاصة حول الشعر الصوفي الإسلامي وخاصة الشعر الصوفي لجلال الدين الرومي ويونس عمره وكذلك السير الشعبية الإسلامية في كل من باكستان والهند. إلى جانب عملها الأكاديمي ونشاطها في الترجمة كانت شمل أيضاً إحدى مؤسسي مجلة «فكر وفن». ليس فقط لها الفضل، على الملء، على التعريف بالاسلام في الغرب، بل ساهمت بنشر الاستشراق في العالم الاسلامي والتقاء الثقافتين بعضهما عن طريق الحوار. في العام الماضي ٢٠٠٢، صدر كتابها «الشرق والغرب» والذي يعد سيرة ذاتية، كتبت فيه عن تجربتها مع مجلة «فكر وفن»، واحتراماً لذكرها ننشر هذا الفصل من الكتاب.

لا بد أن ذلك كان في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٦٢ حينما زارنا ألبرت تايله. في هذه الليلة وقف أمامنا رجل قصير في منتصف العمر بعينين داكنتين ومفعمتين بالحيوية. دعوانه إلى كأس من النبيذ، وكان قد أرسل لي قبل ذلك بفترة قصيرة نسخة من مجلة «هومبولت» الثقافية التي يشرف هو على إصدارها بالاسبانية، التي نشر فيها ترجمتي لقصيدة يحيى كمال «الراقصة الاسبانية» مع صورة رائعة لراقصة فلامنكو. والآن جلس بيننا وحكي لنا عن حياته وأعماله، كان لوقت طويل في تشيلي حيث أصدر في فترة المهجر مع أودو روسكر مجلة Deutsche Blätter السياسية الأدبية، ثم انتقل إلى البابان، والآن هو في سويسرا. سألته أمي: "ولكن كيف كانت بدايتك؟" فرد قائلا: "أول عمل كبير أقوم به كان إصدار مجلة تدعى Böttcherstrasse، غالباً لم تسمعي بها." لكنه جاء هنا عند أناس لديهم الخير اليقين، فخالتي ميا عاشت لسنوات طويلة في فورسفيده. وحيث إن لدينا أقارب في برمين، كان ملك القهوة وراعي الفنون لودفيغ روزيلوس اسماً معروفاً لنا، طالما تعجبت، وأنا طفلة، من المعمار الغربي لشارع بوتشر وتاملت أعمال برنهارد هوتغر الفنية التي يعرفها ضيفنا معرفة جيدة، دون أن أفهمها. سألت أمي عن تفاصيل كثيرة عن أوساط حي فورسفيده وأجاب هو عن الأسئلة إجابات مرضية، بما في ذلك السؤال عن الراقصة سنت ما هيسا Sent Ma Hesa. بعد ذلك قررنا أن نستمع منه إلى حكاياته عن اليابان وتشيلي ومناطق أخرى، بما في ذلك مسقط رأس ألبرت، وهي منطقة دورقوند - هورده.

طبعاً كان هناك هدف عملي من الزيارة وهو أن وزارة الخارجية تريد إصدار مجلة ثقافية باللغة العربية إلى جانب مجلة هومبولت التي تصدر بالاسبانية والبرتغالية. تولى تايله هذه المهمة وعليه الآن أن يبحث عن مستشرقين متخصصين. وبهمة المجلة كانت بالضبط ما أحلم به في سري، أي مجلة تؤكد على توطيد العلاقات الثقافية بين الشرق والغرب، ويكون تصميمها جميلاً وراقياً. مع الوقت أصبحت «فكر وفن» مجلة رائعة باللغة العربية تصدر مرتين سنوياً ويبلغ عدد صفحاتها ٦٩ صفحة. وكان لكل عدد غلاف زخرفي (على غرار تلك المطويات التي صارت تزين فيما بعد الكثير من البيوت والمساجد في العالم



أنا ماري شعل

الإسلامي) يصمم أحد الخطاطين المشهورين ويتناول موضوعاً محدداً. وكان العدد الثالث أول عدد يحقق نجاحاً فعلياً، وكان مخصصاً لفن الخط الزخرفي. وقد تناول أهمية الخط في الغرب في القرون الوسطى وتأثير الخطوط الزخرفية الشرقية على فنون الرسم والتصوير الغربية المعاصرة وضم العدد قصائد عن الخطوط وأشياء أخرى. تناول العدد الخامس موضوع الحيوان الخرافي وحيد القرن والذي لم يقتصر ظهوره فقط في فنون العصر المسيحي الوسيط، بل ظهر أيضاً في الفن الإسلامي، سواء أكان ذلك في المنمنمات أو في النقوش السلجوقية أو على السيراميك. ترجمنا من الأدب الغربي نص إنغريد بيشر Ingrid Bachers: «أرجوحة وحيد القرن» إلى العربية، وبالعكس ترجمنا قصيدة توفيق صايغ: «بضعة أسئلة لأطرحها على الكركدن» إلى الألمانية. كان العدد العاشر مخصصاً للنساء وكان إعداداً فاصراً على النساء. وهكذا سارت الأمور. احتوى كل عدد على الأقل، على مقالة فلسفية، ومقالة علمية، وسيرة ذاتية لأحد المستشرقين الألمان. وكنا ننشر أيضاً ترجمات من اللغات الشرقية، وبهذه الطريقة عرفت أشياء كثيرة عن الشعر العربي الحديث، تعرفت على أشعار بلو شاعر السياب ونازك الملائكة ومحمود درويش ومحمد الفيتوري. أما أشعار البياتي، التي أعجبها بشكل خاص، فقد قرأتها أولاً عندما نقلها كاريل بيترتشيك Karel Petrácsek إلى التشيكية، لكنني وجدت أن فهم الأصل العربي أسهل. وقد قمت في كل عدد تقريباً بتعريب بعض التجارب التي لا تنتمي إلى العالم العربي - الإسلامي، سواء أكان ذلك في صورة مقال عن التأثيرات العربية في الهند، أو تعريب لأشعار مكتوبة باللغة الأوردية، أو مداخل إلى أعمال جلال الدين الرومي أو محمد إقبال. لأنني توصلت من خلال أسئلة مترجمين - ونخص هنا مجدي يوسف بكثير من الشاء - إلى اكتشاف مفاهيم - وهو أن معرفة العرب، حتى المثقفين منهم بثقافة الشعوب الإسلامية الشرقية محدودة جداً، وهكذا حاولت أن أقدم لهم شيئاً من هذا الثراء الضخم الذي يتمتع به الإسلام في تركيا ووسط آسيا والهند وإندونيسيا. ألم تكن سمرقند وبخارى في الماضي هما قلعتا المعرفة الإسلامية في العصور الوسطى؟ ألا يتجهج المسلم وغير المسلم بروعة «تاج محل»؟

لم يكن البحث العلمي هو فقط ما يبهمني في «فكر وفن»، فقد كنت أشعر بنفس السعادة في تصميم المجلة مع فنّي متميز في فن الإخراج الصحفي. لقد علمني تصميم المايكث الكلاسيكي بالمقصد والغراء وتجهيز الصفحة بصورة فنية، أن أضع هنا زخرفاً وهناك قصيدة كحاشية. كانت لي في ذلك متعة كبيرة، وبخاصة طوال الوقت الذي كنا نطبع فيه في مطبعة أوغسطين الشهيرة بمدينة غلوكشتات وقبل أن يصبح العمل كله آلياً باستخدام أجهزة الكمبيوتر.

كان للعمل أيضاً جوانب لطيفة أخرى، فقد كنا نذهب إلى المتاحف والمعارض، وحاول البرت أن يتيح لي فهم الفن الحديث، وتعلمت الكثير من خلال ذلك، رغم عدم إعجابي عامة بهذا الفن (لقد جاء حبي لأعمال

ماغريت بعد ذلك بوقت طويل). كنا نزرع عروض المسرح أيضاً، بدءاً من سيدتي الجميلة ووصولاً إلى العرض المهر لمسرحية «لعة فاوست» من إخراج بيجار Béjart في أوبرا باريس. وهكذا ازدت ثقافة من خلال المجلة. وعندما كنت أذهب إلى سويسرا للعمل في تحرير «فكر وفن» في منطقة أوترافري، كان سبق ذلك طقس معتاد وهو تناول الغذاء بمطعم «فالسزر» كانه Walliser Kahne بزيورخ ثم التمشية عبر شارع المحطة وينتهي الطريق دائماً عند بشرونفلي بساحة باراده، وهو جنة المتعة. وفي آخر المطاف هناك مطعم وجبات سريعة اسمه «أوسترن» عند المحطة. لقد تعلمت إلى جانب العمل بعض الأشياء الدنيوية أيضاً. لكن عندما حصلت على وظيفة ثابتة في جامعة هارفارد لم يعد ممكناً الاستمرار في العمل بالصورة القديمة، إضافة إلى أن السقادر أروا أن مجلتنا لها طابع نخوي. لم نرغب في تغيير أسلوب المجلة وأدت بعض التعقيدات إلى أن أترك العمل بالمجلة عام ١٩٧٤ بعد عشر سنوات من العمل الممتع. وعندما ترك ألبرت تابه العمل، دعنتي هيئة انترناسيونس إلى تولي إدارة تحرير المجلة بمفردتي. لكنني لم أرغب في ذلك ولم أجزم أيضاً. وكذا انتقلت المجلة إلى أياد أخرى وانفصلت عنها كلية لكنني أتذكر بين حين وآخر ذلك الوقت الجميل المحافل بالإحمارات.

ما مضي، لا يعود

لكنه يغيب مضيئاً

ويظل إشعاعه باقياً لأجل طويل

ترجمة: أحمد فاروق

المصدر: Annemarie Schimmel: "Morgenland und Abendland. Mein west-östliches Leben", S. 163-166. © C.H. Beck Verlag, München 2002.

Ahmad Hissou أحمد حسو

لغة العلوج ومآزق الإعلام العربي

الحرب على شاشات التلفزة

"كل صحافي يحصل على المعلومات بمقدار مشاركة بلاده في الحرب من عدمها." هذه الجملة لم تكن لوزير الإعلام العراقي محمد سعيد الصحاف، بل نقلها مراسل القناة التلفزيونية الألمانية الأولى ARD في الكويت عن ضباط أمريكيين وبريطانيين في جنوب العراق. إذن الوصول إلى منابع المعلومات يتم بشكل استثنائي، والمعلومة لن تقدم ليطلع عليها الرأي العام ويتعرف من خلالها إلى مجريات الحرب، بل هي سلاح في هذه الحرب إلى جانب المقاتلة القاذفة أو الدبابة.

كان جلياً منذ البداية أن حرب الخليج الثالثة ستخاص على شاشات التلفزة تماماً بالتساوي مع ساحات المعارك. فكلون باول وزير الخارجية الأمريكي حذر الصحافيين، حتى قبل وقوع الحرب، من عدم التوجه إلى العراق، ونصح المتواجدين هناك بالمغادرة. هذه الإشارات كانت واضحة بأن الجانب الأمريكي لا يريد شهوداً على حربه، ويسعى إلى احتكار الصورة والمعلومة أيضاً، خصوصاً إذا ارتفع عدد الضحايا المدنيين في صفوف العراقيين. سادة واشنطن ولندن الذين أدلوا ظهورهم لكل العالم وخاضوا الحرب دون غطاء دولي وفي ظل معارضة شعبية لم يشهد التاريخ لها مثيلاً، توجسوا من الإعلام. لأن المعارضة للحروب السابقة، كحرب فيتنام وغيرها، تصاعدت بعد وقوعها ووصول أنباء الضحايا والخراب.

في الحرب الباردة رفع العالم ناقوس الخطر منذ البداية وارتفعت أصوات المناهضين للحرب حتى من بين أخلص حلفاء القوة العظمى الوحيدة في العالم. الثقافة المدنية المناهضة للحرب بلغت أوج قمعتها في العالم الغربي، رغم احتقار شعوبه لدكتاتورية صدام حسين البغيضة. من هنا كانت خصامية أمريكا وبريطانيا عالية جداً من الإعلام.

الإعلام العربي كان الحاضر الأقوى في هذه الحرب وذلك بوجود محطات تلفزيونية تملك قدراً كبيراً من الحرية، وقدراً آخر أقل من الاستقلالية، عطفاً على مهنية، هي جديلة في تاريخ هذا الإعلام. وحين نتحدث عن محطات التلفزة العربية، فإننا نستنتج منها للمحطات الرسمية التابعة للحكومات العربية. ما نعينه بالإعلام العربي هنا للمحطات الفضائية الإخبارية «المستقلة» كالجريدة وأبو ظبي والعربية وغيرها من الفضائيات الخاصة، التي لعبت دوراً رائداً في كسر احتكار الإعلام الغربي لتغطية الحرب وخصوصاً محطة CNN الإخبارية الأمريكية الدائمة الصيت. إنه درس تعلمه الإعلام العربي من حرب الخليج الثانية.

الانتصارية العراقية ومازق الإعلام العربي

لم يكن، جديداً على العالم العربي أن يسوق نظام عربي ما غزائمه ويحوّلها إلى انتصارات كلامية. وربما تكون هذه الظاهرة ملازمة لجميع الحروب التي خاضها العرب في القرن الماضي، بدءاً بمعارك فلسطين الأولى مروراً بالاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ وحرب الخليج الثانية وانهاء بـ «أم الحوامس» التي لم يعمر النظام العراقي ليعلم انتصاره فيها. إلا أنه مارس هذه الانتصارية في الأسبوعين الأولين من الحرب، عبر المؤتمرات الصحافية اليومية لوزير الإعلام العراقي محمد سعيد الصحاف وغيره من المسؤولين العراقيين. وما ساعد النظام العراقي في تسويق انتصاراته، تعثر القوات الأمريكية والبريطانية في مدن الجنوب العراقي والمقاومة التي لقيها في الأيام الأولى من الحرب وخصوصاً في أم قصر والبصرة. الإعلام العربي، من جهته، ساهم في تسويق هذه الانتصارية وخلق أوهاماً في الشارع العربي وكأن النظام العراقي بجيش وقواته الخاصة يقاوم الغزو الأمريكي لأرضه. هنا لا بد من الدخول في التفاصيل وإيراد بعض الأمثلة، ولناخذ الفضائية الأكثر شعبية في العالم العربي، أعني محطة الجزيرة الفضائية القطرية التي لعبت دوراً كبيراً في هذا المجال إلى حد بدت تغطيتها للحادث العراقي وكأنه خطاب رسمي لنظام عربي يقاوم. ولو حظ وكان الغناء القطرية قد حددت مسبقاً هدفاً لتغطيتها وهو تلبية ما يتبعث في نفوس المشاهدين العرب التواقين إلى رؤية مقاومة عراقية للغزو الأمريكي. ربما أكثر من ذلك إذ ظهر العراقيون على شاشتها وهم ملتحمون مع «قيادتهم» في مقاومة الغزو. الجزيرة التي ترفع شعار «الرأي والرأي الآخر» تدرك تماماً أنّ هناك «آخر» في العراق يخالف رأي حاكم بغداد، إلا أن هذا «الآخر» لم يجد له مكاناً على شاشتها. لم تستضيف الجزيرة خلال ثلاثة أسابيع من الحرب أي معارض عراقية مهما كان اتسامه السياسي، سواء من معارضة الداخل أو الخارج. لا بل نسيت دورها الإعلامي وأصبحت طرفاً من خلال تصوير المعارضة كمجموعة من الحقنة جاؤوا على ظهور دبابات الغازي. واكتفت، في تغطيتها للحرب بالانصاف بـ «خبراء» عراقيين (من الداخل)، أغلبهم أساتذة جامعات في العراق، موالون للنظام (طوعاً أو كرهاً)، حتى إنّ بعضهم ظهر بالزي العسكري الذي دأب المسؤولون العراقيون على الظهور فيه منذ الحرب التي شنها النظام العراقي على إيران في مطلع الثمانينات. فإين مصداقية محلل سياسي يتماهى مع نظامه حتى في طريقة ملابسه. الخبراء العرب، الذين استضافتهم الجزيرة، سواء أكانوا محللين سياسيين أم عسكريين (غضبوا سابقين)، تمهّلوا لغة الوقائع وانساقوا إلى لغة وزير الإعلام العراقي الانتصارية، التي توسلت مفردات بذية بنأى أي عاقل بنفسه عن استعمالها، ولعل أكثرها اتزاناً كانت مفردة «العلوج».

في الأيام الأولى للحرب استضافت الجزيرة رئيس تحرير صحيفة «القدس العربي» السيد عبد الباري عطوان، كضيف دائم في الاستديو ليحلل ما يدور على جبهات القتال. والسيد عطوان، ومن خلال لغته العاطفية والمثيرة للغرائز لا يهتم بالوقائع أو بالحقائق على الأرض والفرق الشاسع بين قوة الطرفين، العراقي من جهة والأمريكي-البريطاني من جهة أخرى، بل جل ما يصبو إليه بث الحمية في القوم على طريقة «طاب الموت يا عرب» دون التفكير في النتائج، وفيما تستبهي هذه الانتصارية من اتكسار ويأس وتقوط عند الجماهيرية العربية، «حين يلوب الثلج وبيان المرج». وهو ما حصل في يوم التاسع من نيسان/ أبريل حين سيطرت القوات الأمريكية على العاصمة العراقية بـ «بابنتين» واختفت القيادة العراقية وكانها «فص ملح وذاب» بعد ساعات من تهديدها برد نوحي على القوات الغازية؟

مراسلة لقناة الجزيرة في بغداد قدمت تقريراً عن المقاومة العراقية. تقرير موثق بالصور، عراقيون مسلحون في شوارع بغداد على أهبة الاستعداد للقتال. ومن الجانب الآخر، نساء منهمكات بأعمال المساعدة من طبخ وما شابهه، وكاننا في إحدى الغزوات في الأيام الأولى من ظهور الإسلام. والمراسلة لا تتورع عن تسمية هؤلاء النسوة بـ «المجاهدات»، أي اللقب الذي تفاخر رأس النظام العراقي بإطلاقه على نساء العراق. لكن تبين بعد

ذلك أنّ من قاوم لم يكونوا «أمّاجد» ولا «مّاجدات» صدام ولأجيشه وقواته الخاصة، التي زرعت الرعب في نفوس العراقيين لعقود، بل بضعة متطوعين عرب.

مثال آخر، حين ظهر الرئيس العراقي في صور تلفزيونية في حي المنصور، ليثبت أنه على قيد الحياة، اتصلت الجزيرة بالسيدتين حمدين صباحي وعمار فوري شعبي، ليقوما بتحليل دلالات هذا الظهور! فماذا فعلاً الخبيران العراقيان؟ لقد أظهرا المشاهدين بخطاب قومي انتصاري عن فشل الاستراتيجية الأمريكية في الوصول إلى القائد العراقي، وما هو يظهر بمتمته الشجاعة بين شعبه في أحلك الظروف. علماً أنّهما يدركان تماماً أنّ الرئيس العراقي لا يظهر في مكان عام وفي الظروف العادية إلا إذا تمّ تنشيطه جيداً وزرعه بعناصر الأمن، فكيف والغاي بالدار؟

لماذا إذن خداع المشاهد والمتلقي العربي؟ هل غيرت إشارة النصر التي رفعها الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات في بيروت عام ١٩٨٢ من حقيقة هزيمة المقاومة الفلسطينية في لبنان؟ هل يمكن الصمود في وجه الترسنة الأمريكية بالعطائف الأخلاقية والشتائم ولغة العلوج؟

الإعلام العربي، ورغم ما قلناه عن هذه القنوات الفضائية، وقع في الفخ الانتصاري. هنا لا بد أن نشير إلى مثال آخر وهو قناة أبو ظبي، فهذه الفضائية بدت في تغطيتها لمجريات الحرب أكثر اتزاناً وأقل انتصارية وقدمت صورة عن مجريات الحرب كانت أقرب إلى الواقع من كل وسائل الإعلام العربية الأخرى. حتى في الجانب العسكري استعانت منذ البداية بمحلل عسكري واحد (ضابط مصري متقاعد) ابتعد عن لغة الشعارات وزود المشاهدين بمعلومات عسكرية دقيقة عن سير المارك كانت صادمة أحياناً.

هل هناك حياد صحافي؟

يصعب تحديد حدود الحياد الصحافي. فبالرغم من أنّ الإعلام الغربي يتشدق بالمهنية العالية والحياد، إلا أنّ معظم المؤسسات الإعلامية الكبرى في الغرب هي ذات توجهات سياسية معروفة. في ألمانيا، مثلاً، تميل القناة الأولى إلى تبني أفكار «يسار الوسط» أو الحزب الاشتراكي الديمقراطي الحاكم، في حين أنّ القناة الثانية مقربة جداً من المعارضة اليمينية المسيحية. لكنّ المهنة العالية التي يتمتع بها العاملون في هاتين المؤسستين وحرية التعبير الواسعة في ألمانيا تحدان من بروز الأحادية أو الموقف المسبق من الحدث أو ظهور تأثير خط المؤسسة في صناعة الخبر. لذا نجد الفروق بين هاتين المحطتين تكاد تكون غير مرئية. هذا الأمر غير معهود في العالم العربي بسبب الإعلام المغيد والمندروس والمراقب بدقة. غير أنّ الطفرة الإعلامية التي شهدتها البلاد العربية في السنوات الأخيرة بوجود مناطق إعلامية حرة وبرز محطات التلفزة الفضائية الخاصة أو شبه الحكومية خلق أرضية لهذه الإمكانية هناك أيضاً. لكن السؤال، الذي ينهض هنا، وكيف يكون الإعلامي العربي حياًداً إزاء حرب تخاض على بلد عربي؟ تحدث صحافي عربي بارز (بلال الحسن) عن هذه النقطة مدافعاً عن التغطية الإعلامية للقنوات التلفزيونية العربية، معتبراً أنّ الصحافي العربي صاحب رأي في هذه الحرب ولا يستطيع أن يكون لامبالياً تجاهها، ولابد أن يعكس رأيه في تغطيته للحدث. لكن ثمة بون شاسع بين الرأي وبين لوي الحقائق، أو بعبارة أدق تحويل الهزيمة إلى انتصار كلامي وتسويق إعلام نظام دكتاتوري. ثم إنّ القاصي والداني يعلم أنّ هناك معارضة قوية لحاكم بغداد وأكثر من أربعة ملايين عراقي فروا من البلاد، وأنّ النظام يعيش في عزلة بسبب ما ارتكبه بحق شعبه، آليس من واجب الإعلام العربي إبراز هذا الجانب، حتى يكون المشاهد غير العالم على بيته من طليعة النظام الذي يقاوم الغزو الأمريكي.

ومع كل السبلات التي ذكرناها، لا بد من الإشادة بهذه القنوات الفضائية التلفزيونية الخليجية كالجزيرة وأبو ظبي والعربية. فهذه المحطات الثلاث زرعت مراسليها في معظم المدن العراقية وكانت حاضرة مع الحدث في أصعب ظروف الحرب، وتعرضت مكاتب التثنتين منها للقصف الأمريكي المباشر ودفعت إحداهما الثمن غالياً وهو حياة أحد عامليها. ولعلّ الشعار الذي تبنته قناة أبو ظبي معبر هنا وهو «الحدث من أرض الحدث». وبهذه الطريقة تحرر الإعلام العربي من هيمنة المحطات التلفزيونية العالمية، خصوصاً الأمريكية، واستطاع أن يصل إلى الأحداث من خلال عيون مراسليه. لكنه فشل، وخصوصاً الجزيرة، في تقديم خطاب إعلامي عقلاني يضع الحقيقة أمام المتلقي حتى لو كانت مرّة.



جذع محروق مع عشب أخضر

Ansel Adams: «Burnt stump with green grass».

Reproduction from: Anne Hammond: Ansel Adams. Divine Performance.
Yale University Press, New Haven & London, 2002

مکن نماز بران بی چکس که میسج مکرده

FIKRUN WA FANN

ART & THOUGHT

77

داد و نشیند عاقبتش

مکاح الله

الکس که بدینار و درم گیرند و خست

سرهاقت اندر سردینار و درم کرد

خایسته که جمع شوی از نعمت دنیا

با حلق کرم کن که خدا با تو کرم کرد

مشک عرب که در حلقه از الفایده الیا

البیت



ز افهام و فضل خود معطل گذشت

منت منه جو خدمت سلطان سی کنی

منت شانس ارو که بخدمت بداشت

GOETHE INSTITUTE
INTER NATIONES

یعنی بخش و منت منه که نفع آن تو باز

میکرد

در خدمت کرم هر کجا پنج کرد

کشت از فلک شایخ و الاهی

بنت منه از بهر پای و

A